

هـ. أ. ر. جب
ل. ماسينيون
لفتنانت كولونل فرار
ج. كامبفاير
ك. ك. برج

وجهة الإسلام

نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي

ترجمة
محمد عبد الهادي أبو ريده
تقديم
مصطفى لييب عبد الغني

المركز القومي للترجمة

لا ريب أن لموضوع الكتاب من الخطر بقدر ما فيه من الطرافة؛ لأن الباحثين في الإسلام والمسلمين لم يعنوا بتناول الناحية الاجتماعية والدينية والفكرية إلا قليلاً، وإذا كان المسلمون قد طال اتصالهم بأوروبا واشتد تأثيرهم بالمدنية الأوروبية خيرها وشرها، فقد أصبحنا في حاجة إلى ما يكشف لنا عن مدى تطور الشعوب الإسلامية وعن خطوات هذا التطور وظروفه التاريخية والعوامل التي ساعدت عليه وعن مسلك المسلمين إزاء المدنية الغربية ومقدار قبولهم أو رفضهم لها وعن وسائلهم في حل مشكلاتهم الحاضرة وما أصابوا من نجاح، ثم عن وجهة الإسلام في جملته ومحاولته التوفيق بين أنظمتها وبين العصر الحديث.

جاء هذا الكتاب وافياً بهذا الغرض لأنه يوجه أكبر العناية إلى تحليل تيارات الفكر الداخلية بين شعوب الإسلام وما يتردد بينهم من نزعات ويفصل ما يشغل بالهم من الناحية الدينية والاجتماعية، ويكاد القارئ العربي لا يجد كتاباً يُجمل له الكثير من شئون المسلمين مع تنائي بلادهم واختلاف لغاتهم وتنوع مشكلاتهم بطريقة علمية وبقلم باحثين ثقات كهؤلاء الأساتذة الذين عني كل منهم بدراسة الناحية التي كتب عنها وخبر شئونها بنفسه.

وجهة الإسلام

نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٢٩٠

- وجهة الإسلام (نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي)

- نخبة

- محمد عبد الهادي أبو ريده

- مصطفى لبيب عبد الفنى

هذه ترجمة كتاب :

Whither Islam ?

*A Survey of Modern Movements in
the Moslem World*

by : Louis Massignon

H. A. R. Gibb

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

وجهة الإسلام

نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي

تأليف : هـ. أ. ر. جب

ل. ماسينيون

لفتنانت كولونل فرار

ج. كامبفاير

ك. ك. برج

ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده

تقديم : مصطفى ليبب عبد الغنى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جب ، ه . أ . ر .
وجهة الإسلام : تأليف : ه . أ . ر . جب : ل . ماسينيون : لفتنانت
كولونل فرار : ترجمة : محمد عبد الهادى أبو ريده : تقديم :
مصطفى ليبب عبد الفتى
القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٢٨٠ ص : ٢٤ سم
١ - الإسلام والمجتمع .
(أ) أبو ريده ، محمد عبد الهادى (مترجم) .
(ب) عبد الفتى ، مصطفى ليبب (مقدم) .
(ج) العنوان
٢١٤ ، ٣٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٢٤٥٣٩
الترقيم الدولى 5 - 006 - 479 - 977 - I.S.B.N. 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها
فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

مقدمة

فى ثلاثينيات القرن الماضى، ومنذ خمسة وستين عاما، أقدم محمد عبد الهادى أبوريدة، وكان لا يزال طالبا فى السنة الثالثة بقسم الفلسفة بالجامعة المصرية، على مغامرة جريئة فترجمَ عن الإنجليزية كتاباً صغيرَ الحجم كبيرَ القدرِ، يضمُّ بحوثاً عميقة، هى شهاداتُ حيَّةٌ عن العالمِ الإسلامى المعاصر، لخمسة من كبار المستشرقين : الإنجليز والفرنسيين والألمان والهولنديين، ذلك هو كتاب *The Trends of Islam* الذى شارك فيه وأشرف على تحريره المستشرق الإنجليزى الكبير هاملتون جب الأستاذ بجامعة لندن، وعاونَه فى نظم باقى فصوله لويس ماسينيون الأستاذ بجامعة باريس، وج. كامبفاير الأستاذ بجامعة برلين، وك.ك. برج بجامعة أيدن والليفتنانت كولونيل فرار بالجيش الهندى سابقا. وطُبعت الترجمة العربية، وهى بعنوان : "وجهة الإسلام - نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى" سنة ١٩٣٤، دونَ نِكْرٍ ناشِرٍ بعينه ولعلها طُبعت على نفقة الشاب المتحمس؛ فقد تكون هذه الترجمة باكورة الجهد العلمى الطموح وربما تكون قد سبقتها محاولات أخرى تُضاف إلى أعمال عديدة رائدة لطلاب من كلية الآداب سبقوه فى التخرُّج أو لحقوه بقليل. وتلك ظاهرةٌ عجيبَةٌ تستوقفنا اليوم لعلَّ تفسيرها المقنع هو أن الجامعة المصرية قد حظيت من لحظة قيامها بأساتذة كبار أحسنوا رعاية تلاميذهم فأظهروا أفضل ما فى وسعهم، وأن أولئك التلاميذ كانوا يمتلكون بالفعل أحلاما كبيرة يحرصون على تحقيقها فى إطار مشروع قومى صادق.

وسنُّ الشاب لنفسه سنَّة حميدة، التزم بها من بعد فى ترجمته لعيون الدراسات الاستشرافية، وهى أن لا يترك الرأى يلقى على عواهنه عن حضارتنا دون قدر كافٍ

من التمحيص، وخاصةً ما مَسَّ منه ثوابت العقيدة أو شابه انحراف عن الإنصاف. ولكم كان هذا الباحث المتميز، كُلُّما اشتدَّ عودُه، يكشف عن عزيمة لا تلين؛ فجاءت أعمالُه كُلُّها، سواء في ميدان التأليف أو التحقيق للنصوص التراثية أو الترجمة، أعمالاً خُلُقِيَّةً بِقَدْرٍ ما كانت أعمالاً علميةً رصينةً.

* * *

بجسِّ المُتَّقِفِ المُلتزم بقضايا أُمته وِبِوَعي مواطن الدولة الإسلامية بأهمية الوحدةِ في عالم مضطرب تسوده إرادة الكِبَار أقدم الشاب على ترجمة هذا الكتاب الذي قال عنه في تقديمه له: "ولا رَيْبَ أنْ لموضوع الكتاب من خَطَرٍ بِقَدْرٍ ما فيه من طَرَاةٍ لأن الباحثين في الإسلام والمسلمين لم يُعْنُوا بتناول الناحية الاجتماعية والدينية والفكرية إلا قليلاً، وإذا كان المسلمون قد طالَ اتصالهم بأوروبا واشتدَّ تأثرُهم بالمدنية الأوربية خَيْرُها وشَرُّها فقد أصبحنا في حاجة إلى ما يكشفُ لنا عن مدى تطور الشعوب الإسلامية وعن خطوات هذا التطور وظروفه التاريخية والعوامل التي ساعدت عليه وعن مسلك المسلمين إزاء المدنية الغربية ومقدار قبولهم أو رفضهم لها وعن وسائلهم في حلِّ مشكلاتهم الحاضرة، وما أصابوا من نجاح، ثُمَّ عن وَجْهَةِ الإسلام في جُمْلَتِهِ ومحاولة التوفيق بين أنظمتِهِ وبين العصر الحديث. جاء هذا الكتاب وافياً بهذا الغرض لأنه يُوجِّه أكبر العناية إلى تحليل تيارات الفكر الداخلية بين شعوب الإسلام وما يتردَّد بينهم من نزعات ويُفصِّلُ ما يَشْغَلُ بالهم من الناحية الدينيَّة والاجتماعية، ويكاد القارئُ العَرَبِيُّ لا يجد كتاباً يُجَمِّلُ له الكثير من شئون المسلمين مع تَنَائِي بلادهم واختلاف لغاتهم وتَنَوُّع مشكلاتهم على طريقة علمية وبِقَلَمِ باحثين ثقات كهؤلاء الأساتذة الذين عُنِيَ كُلُّ منهم بدراسة الناحية التي كتبَ عنها وخَبِرَ شُؤنَها بنفسه."

* * *

كَاتَبَ الطَّالِبُ الْمِصْرِيُّ الْأَسْتَاذَ جِبَ فِي لَنْدُنْ مُسْتَنْذِنًا إِيَّاهُ تَرْجَمَةَ الْكِتَابِ وَنَشَرَهُ
فَأَذِنَ لَهُ مُرَحَّبًا، بَعْدَ أَنْ عَرَضَ طَلِبُهُ عَلَى صَاحِبِ حَقِّ النُّشْرِ الَّذِي اسْتَقْبَلَ بِتَوْبِهِ
الْمَشْرُوعَ بِالرِّضَى وَالِاسْتِحْسَانِ؛ بَلْ أَفْرَدَ الْمُسْتَشْرِقُ الْكَبِيرُ لِلتَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُقَدِّمَةً
خَاصَّةً. وَلَعَلَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا يَكْشِفُ عَنْ مُشْتَرَكٍ ثَقَافِيٍّ وَاضِحٍ بَيْنَ الْفِكْرِ الْمِصْرِيِّ
الصَّاعِدِ وَبَيْنَ أَرْقَى دَوَائِرِ الْفِكْرِ الْأُورُبِيِّ فِي الْعَصْرِ عَلَى نَحْوِ يُرْسَخُ دَعَائِمُ تَفَاهُْمِ
عَقْلَانِيٍّ مُثْمَرٍ وَتَعَارُفٍ خَلَّاقٍ لَا بَدِيلَ عَنْهُ. وَلَعَلَّ أَهْمُ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْمَقْدِمَةِ الْخَاصَّةِ
لِلتَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ، الدَّالُّ كُلُّ الدَّلَالَةِ عَلَى خَطَرِ تَرْجَمَةِ أَعْمَالٍ بَعِينِهَا، قَوْلُ هَامِلْتُونِ جِبَ :
وَإِنِّي لِأَرْحَبُ بِالتَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا صَدِيقِي مُحَمَّدُ عَبْدِ الْهَادِي أَبُو رِيْدَةٍ أَفْنَدِي
الطَّالِبَ بِكَلِيَّةِ الْأَدَابِ بِالْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَكَمَا أُرِيدُ بِالنَّسْخَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ أَنْ تُعَيِّنَ الْقَارِئَ
الْأُورُبِيَّ عَلَى أَنْ يَرْقُبَ بَعَيْنَ الْعَطْفِ حَرَكَةَ الْأَفْكَارِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِإِنِّي أَمَلُّ أَنْ تُعَيِّنَ
النَّسْخَةُ الْعَرَبِيَّةُ قُرَآءَهَا عَلَى أَنْ يُقَدَّرُوا الْوَحْدَةُ الْجَوْهَرِيَّةُ الَّتِي هِيَ الْمَطْمَحُ الَّذِي
يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِهِ وَالَّتِي تَرْبِطُ شِقَى الْعَالَمِ الْغَرْبِيِّ. [الَّذِي يَتَكُونُ فِي رَأْيِ الْمُؤَلِّفِ مِنْ
الْعَالَمِينَ : الْإِسْلَامِي وَالْأُورُبِي].

* * *

وَإِذْ نَسْتَعْرِضُ بَعْضَ الْمَلَامِحِ الْهَامَةِ لِهَذَا الْكِتَابِ الْقِيَمِ، نَتَوَقَّفُ عِنْدَ إِشَارَةِ هَامِلْتُونِ
جِبَ فِي "الْمَقْدِمَةِ" إِلَى كَوْنِ "الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ الَّذِي انْتَشَرَ فِيهِ الْإِسْلَامُ، مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ،
كَانَ هُوَ الْعَالَمُ الْإِغْرِيقِيُّ الَّذِي وَرَثَ الْمَدِينَةُ الْيُونَانِيَّةُ الرَّومَانِيَّةُ، وَإِلَى أَنْ الْفَتْوحَاتِ
الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى كُلُّهَا تَقْرِيْبًا كَانَتْ دَاخِلَ الْعَالَمِ الْإِغْرِيقِيِّ وَلِهَذَا كَانَتْ الْمُؤَثَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ
الَّتِي صَاغَتْ الْمَدِينَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِغْرِيقِيَّةً فَارْسِيَّةً، وَتَغْلَغَلَتْ الثَّقَافَةُ الْيُونَانِيَّةُ فِي صَمِيمِ
الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ... مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ الثَّقَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كُلُّهَا وَفِي جَوْهَرِهَا مِنْ
الطَّرَازِ الْغَرْبِيِّ وَاتِّصَالًا بِهَا أَوْثَقُ مِنْ اتِّصَالِنَا بِثَقَافَاتِ الْهِنْدِ أَوْ الشَّرْقِ الْأَقْصَى،
فَتَسْمِيَّتُهَا "شَرْقِيَّةً" تَسْمِيَّةٌ خَاطِئَةٌ. هِيَ شَرْقِيَّةٌ لَا بِالْمَعْنَى الْمَطْلُوقِ بَلْ شَرْقِيَّةٌ فِي مَوْطِنِ
اِمْتِدَادِهَا فَحَسَبَ كَانَمَا هِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ الْغَرْبِيَّةِ فَرَعُهَا الشَّرْقِيُّ الَّذِي تَشَارَكَ فِيهِ فِي كُلِّ

العصور اليهود والمسيحيون الشرقيون تحت كنف المسلمين". ويدلّ هاملتون جب على فكرته هذه بتوجيه النظر إلى أنه "رغمًا عن تكييف المظاهر الدينية بما يلائم العرف الإقليمي ولا سيما بين الطبقات الدنيا فإن الإسلام أبى أن يسالم بينته الجديدة أو أن يُعيد النظر في نزعتة أو أصوله، بل إنه على النقيض من ذلك رفع لواء التوحيد عاليا أمام التفكير الهندوكي والوثني وكان من أثر التباين بينه وبينها أن صار أصلب مقاومة وأقوى تشبُّثاً بأهداب ثقافته". كما يشير هاملتون جب إلى ظاهرة خاصة اقترنت بهذا وصحبت انتشار الإسلام وكانت هي السبب في وحدة ثقافته، "تلك هي قوة الثقافة الإسلامية الفتية على إضعاف ذكرى الثقافات الموروثة، بل على محوها في بعض الأحيان من نفوس معتنقيه وإحلال تاريخ الإسلام وتقاليده السالفة محلّها". وهناك عامل ثالث عمق هذه الوحدة الإسلامية هو الاختلاط الدائم الذي ظل قائما بين أنحاء العالم الإسلامي ولاسيما بين الأطراف ومركز الإسلام في مصر وآسيا الغربية، وكان الحج أقوى عامل في توثيق عرى هذا الاختلاط. ويلى الحج مباشرة، في العمل على التوحيد الروحي الجهود التي بذلها دعاة الإسلام. ويضيف هاملتون جب إلى ذلك قوله : "ويجب أن نخص بالذكر عاملا من العوامل التي ساعدت أيضا على تحقيق هذه الغاية ذلك هو الاتصال الذي نشأ من التجارة في العصور الوسطى وظل قائما في العصور التالية بفضل تقدّم وسائل المواصلات .. وكان الأثر الخالص لهذه العوامل أنها أوجدت وصانت في العالم الإسلامي كلّ ثقافة وتقاليده متينة التماسك إلا تكن قد بلغت تمام كمالها فإنها تسترعى النظر بحق إذا ما نظرنا إلى أجزائها المتباعدة واختلاف أصول أجناسها ولغاتها. وعلى ذلك فالإسلام ليس دينا بالمعنى المجرد الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كلّ مظاهر الحياة الإنسانية".

وهنا يحرص هاملتون جب على بيان أن الشقة كانت أضيق بين العالمين الإسلامي والمسيحي في القرون الوسطى حتى أنها لا تقاس بما صارت إليه بعد ذلك، وكان من أسباب ذلك أن كلّاً من المجتمعين قام على أسس كثيرة الشبه وأن الأفكار السائدة في كليهما كانت متطابقة تقريبا وأن كلّاً منهما اشترك بدرجة كبيرة في جعل الدين محور

نظرتة إلى الكون، ولقد يكونا عَدَوِيَّين يُصِرُّ كُلُّ منهما على استئصال الآخر ولكن كان كل منهما يَفْهَم صاحِبَه على الأقل، وكانا يتحاربان بأسلحة مادية وروحية واحدة. وكان هناك سبب آخر أكبر خطراً هو التأثير المُلَطِّف الذي أحدثته العلاقات التجارية من وراء ستار؛ ففي هذه النقطة التقى المجتمعان لا على أنهما متساويان فحسب ولكن على أنهما متعاونان أيضاً. وقد بذل كلا الجانبين -حتى إبان الصراع الحاد في الحروب الصليبية - أقصى جهده لصيانة ما كان بينهما من تجارة. وإن الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي قد أَعْدَقَ عليه فوائد اقتصادية عظيمة: فبفضل وقوعه على الطُّرُق التجارية للدنيا القديمة كان يتحكَّم في المسالك البرية والبحرية جميعاً بين أوروبا وآسيا كما أن امتداده مع طول ساحل المحيط الهندي واضطلاع بَحَارته ومتاجريه بالأعمال مكَّنه من احتكار التجارة البحرية حتى تبوَّأ مكانه اللائق في حياة العالم الاقتصادية وأنشأ علاقة تجارية مزدهرة مع البلاد المجاورة. على أن هذه الحالة الطَّيِّبة قُدِّرَ لها بعد ذلك أن يتبعها تدهور اقتصادي متواصل.

ويستوقفنا ما لاحظناه هاملتون جب من أنه "منذ أكثر من عشرة قرون كان فقهاء الإسلام يُلَقِّنون الناس بمناسبة وبغير مناسبة وجوب طاعة أُولي الأمر سواء أكانت حكومتهم شرعية أو مغتصبة. وقد عَزَزَ القابضون على السلطة أنفسهم هذا المبدأ بطريقة مؤكَّدة له حتى يُخَيَّلَ إلينا أن الهدوء السياسي فِطْرِيٌّ في الشعوب الإسلامية وأن تَحَمُّلَ الظُّلم وفساد الحكم دون شكوى: هذا التحمُّل الذي ملأ الأوروبيون دهشة أدى إلى رَمَى الإسلام بأنه عَقيدة الاستسلام والخضوع. ولكن هذا لم يَكُنْ أكثر من بعض الحقيقة؛ ذلك أن الاستسلام بهذا المعنى المطلق أقربُ لأن يكون نتيجةً منه لأن يكون مبدأً؛ فإنَّ الغفلة السياسية التي أظهرها جمهور السكان حيال التغيرات السياسية كانت ترجع غالباً إلى أسباب طبيعية أقواها الفقر الاقتصادي".

وفي رصده للملامح التطور في العالم الإسلامي المعاصر يقرر هاملتون جب أن "أكثر ما يدهشنا من معالم النزعات الجديدة إنشاء أدب جديد فيما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٠، وأكبر من ذلك إنشاء صحافة تذيع الأخبار. ولكن بينما كانت الرقابة شديدة على الصحف التركية وكانت الصحف الهامة ذات صبغة رسمية أو أبواقاً

مأجورة لفكرة "الجامعة الإسلامية" كانت الصحف المصرية مستقلة في الغالب عن الحكومة وكان آراؤها مُجددة قوية التجديد حتى استطاعت أن تكون عضداً قويا لزعماء الاستغراب في كفاحهم لاستنفار الرأي العام إلى جانبهم، وهو نفس ما يراه ج. كامبفاير من اعتبار صحافة القاهرة هي المركز الفكري للعالم الإسلامي.

وفي بيانه لتغلغل عوامل التثقيف الأوربية في العالم الإسلامي ولمبلغ استعداد الفكر الإسلامي لمواجهة الظروف الحضارية الجديدة يقول هاملتون جب : " في مقدمة بحثنا في الاستغراب قررنا بشكل عام أن العالم الإسلامي يرغب في ذلك.. ويجب أن نقرر حكماً عاماً آخر أكثر إطلاقاً وليس أقل خطراً : لا يزال المسلمون متمسكين بدينهم تمسكا شديداً ومقتنعين اقتناعاً تاماً بأنه خير الأديان، أما كون أفراد مُبعثرين من المسلمين ولاسيما في الطبقات العليا فاترى العزيمة في دينهم ومهملين لأوامره بل معلنين أنهم ملحدون فهي مسألة قليلة الشأن مثل مسألة أن بين الذين يُسمون أنفسهم مسلمين جماعة لا يزيد دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة. إن قوى الإسلام الحيوية من حيث هو عقيدة وقاعدة للحياة ونظام خلقى لا تزال بنجوة من الفساد، ومضت الساعات الحرجة التي كانت تهدد الإسلام في القرن الماضي، وأكبر الفضل يرجع للشيخ محمد عبده وتلاميذه وكان من أثر جهوده التي فرغ لها حياته - مثل سير سيد أحمد خان - أن أزال العوائق التي كانت تشل حركة الإسلام وتجذبه القهقري وأن أطلق الهمم الفتيّة من عقالها لتعمل على التوفيق بين الإسلام وأنظمتها وبين الحياة الجديدة في بلاد الإسلام، على أن الإسلام لم يعد شيئا يؤخذ من غير تمحيص ولكنه في هذا العصر وما يلابسه من ضيق ومن انحلال في النظام الاجتماعي القديم صار شيئا لا بد من أن يُجاهد من أجله، وفي هذا باعث قوى للناس على أن يزيد تقديرهم لقيمتها. وفي هذا الشأن يضيف هاملتون جب قوله : "إن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوربية التي تعارض قواعد الأخلاق ستدفع بالثقفين منهم حتما إلى أن يزدادوا إصرارا على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصروا خاصة على مبدأ الإخاء الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام. وعلى هذا فالنزعة إلى تأكيد الرابطة الاجتماعية بين شعوب الإسلام تأكيدا مُكرراً نزعة أخذة في القوة -

كما يبدو للعيان - على أسس أخلاقية، لاسيما مع تزايد النفوذ السياسى للطبقة الوسطى التى أُنْثُرَتْ فيها على الدوام تعاليمُ الإسلام الخلقيةُ تأثيراً أقوى مما كان لها فى الأرستقراطية الحربية القديمة، وكُلُّما زادت روح الديمقراطية فى القوميات المقبلة زاد سلطان مبادئ الإسلام على العلاقات السياسية.

ولئن كان تفاوت الثقافات فى البلاد الإسلامية عائقاً لوَحْدَةِ المسلمين، فلا تزال العباداتُ الإسلامية منبعاً للرضا والاطمئنان حتى عند مَنْ يُهْمَلون فى أديانها.. ومن أكبر مميزات الإسلام الحديث شعور الولاء لذات محمد (صلى الله عليه وسلم) والحماسة التى يبعثها بين كل الطبقات.

- وعن تأكيد دور الريادة المصرية فى حركة الإصلاح الإسلامى المعاصر - الدينى والاجتماعى والسياسى - يُشِيد هاملتون جب بمكانة الأزهر، التى لا تُبَارَى - فى التعبير عن آراء أهل السُّنَّة، كما أن الفَارِين السياسيين من تركيا وغيرها من بلاد الإسلام يجدون فى مصر مأوى لهم ويتنسمون فيها الحرية ويسعون لتحقيق غاياتهم، وأن المجتهدين من كُتَّاب سوريا وقد كُمتهم الرقابة الشديدة فى بلادهم أتوا مصر زرافات وزاندوا الصحافة المصرية قوة حملت ثمارها وأراعها إلى الأفاق، وكان نشر التعليم الأولى فى الوقت نفسه سبباً فى توسيع الدائرة التى أمكن للصحافة أن تؤثر فيها داخل البلاد، كما أن ازدياد الاتصال الفكرى بأوروبا قوى تأثير الاستغراب بين الطبقات العليا والوسطى، بل تحول المركز العقلى لفكرة الجامعة الإسلامية عن القسطنطينية (الآستانة) إلى القاهرة قبل نهاية القرن التاسع عشر. وقد مَسَّت الحركة الفكرية كل نواحي الحياة الجديدة والموروثة وكانت تنطوى على حياة قوية شديدة الحركة، وإن لم يستطع الباحثون المعاصرون أن يروا إلا ما كان يعلوها من زَبَد... ولاشك أن ممَّا له معناه أن أول تبلور لحركة الإصلاح الاجتماعى كان فى مصر وحدها وأن ذلك كان حول مسألة حرية المرأة، ولا شىء يرينا بوضوح أكثر من هذا كيف غارت أصول النزعة الحديثة وكيف كانت تُغَيَّر آراء قادة الفكر فى مصر تغييراً عميقاً وتقلبها قلباً - على أنه إذا كان المسلمون المحافظون قد أخذهم على هذا النحو وهم كارهون تيارُ الاستغراب الجارف فقد كان من المحتمل أن مجرى الحوادث سيؤدى إلى شقة

كبيرة بين أنصار التجديد وبين المدافعين عن ميراث الإسلام، ولكن المُجدِّدين حتى أكثرهم تطرُّفاً نفروا لأسباب كثيرة من أن يتَّخذوا مثل هذه الخطوة... فإن المصلحين المصريين رغم ثقافتهم الغربية وقبولهم للأفكار الغربية كانوا ما يزالون يشعرون بصلتهم الوثيقة بالإسلام ولم يضعف فيهم شعور العطف على سائر العالم الإسلامي ولم تصادف قبولاً لديهم نزعةً لوحظت في بعض البلدان الإسلامية ترمى إلى تكوين أحزاب تنزع منزع التوفيق بين النحل والأديان.

وإذا كانت النزعات الجديدة قد جعلت أطراح مجرد التقليد وفتح باب الاجتهاد أمراً محتملاً فإنها انتهت إلى تقرير الوفاق بين الإسلام والفكر الحديث. ووجد أنصار هذا الاتجاه زعيماً في شخص الشيخ محمد عبده الذي يعد من أشهر الشخصيات المحترمة في تاريخ الإسلام الحديث والذي جذبت إليه شخصيته ومواهبه طائفة كبيرة من المعجبين به وأكسبت حركته أتباعاً كثيرين لا في مصر وحدها ولكن في البلاد الإسلامية الأخرى... وقد واصل تلاميذه ما بدأ من عمل، وهم وإن لم يبلغوا مبلغ شخصيته الباسلة فقد حملوا مبادئه بكتاباتهم وجهودهم الشخصية إلى جميع أجزاء العالم الإسلامي وأثروا تأثيراً كبيراً ولاسيما عن طريق مجلّتهم الشهرية "المنار". ومما له شأن في هذا أيضاً ما يذكره "ماسينيون" من تأثير المثل الذي ضرب به مصر : "فقد وجد من يحتذيه في تونس حيث تأسست بنوك مالية على نفس نظام بنك مصر كما أن التنظيم الرأسمالي للصناعة بدأ ينفذ أيضاً إلى الدوائر الإسلامية في الجزائر حيث نشأت منذ الحرب طبقة جديدة من أصحاب رؤوس الأموال المسلمين".

ويوجه ج. كامبفاير - الأستاذ بجامعة برلين الانتباه إلى حركة انبثقت في مصر فكانت أكبر دلالة على الحالة العقلية الحاضرة لا في مصر فحسب بل في كثير من البلاد الناطقة بالضاد، مشيراً بذلك إلى قيام جمعية الشبان المسلمين في القاهرة سنة ١٩٢٧، التي ضمت صفوفاً من شبان المسلمين تنطوى نفوسهم على روح وطنية قوية جداً مؤكدين أن الإسلام عنصر من الماضي القومي ومن الفردية الحديثة لشعوب الشرق، وأن من يرغب في التمسك بالقومية ينزع إلى التمسك بالإسلام أيضاً. وتحرك زعماء الجمعية فكرة أخرى فهم لا يزالون مقتنعين أن إنماء القومية الصحيحة

وصيانتها مستحيلان في الشرق إذا انصرف الناس عن الدين والأخلاق، فيجب الاعتصام بالدين والتمسك بالأخلاق الفاضلة. وفي هذه البلاد " يجب أن يكون الإسلام أساس الحياة القومية".

حرصت الجمعية على إصدار مجلة تُروِّج لأهدافها. ولم نجد في مقالاتها شيئاً من ضيق العقل أو حرج الصدر ولكن فهما صحيحا لما تحتاجه العصور الحديثة من مطالب الدين : كالتمسك بالجوهريات وتأكيد بها بقوة وترك ما هو عرضي المرتبة. ولما كنا نحتاج إلى الدين لتأثيره في الأخلاق فطبيعي أن نجد في المجلة مقالات كثيرة في مسائل خلقية ونفسية بحتة كتقوية الإرادة وفي ردائل كالبخل والانتحار وفي فضائل الكرم والإيثار. وكما انعقدت نية الأعضاء على الإصلاح، تناولت معظم المقالات الحاجات الأولى للحياة الوطنية في مصر وفي بلاد الإسلام كمسائل : التعليم وحالة المرأة والمسائل الاجتماعية والطب والفنون والصناعة والأمور الاقتصادية، كما اهتمت مقالات أخرى بالألعاب الرياضية والكشافة، ونجد إصراراً على التعاون والتواصي بالمشروعات الاجتماعية قويا.

وقد اجتذب نشاط الجمعية أحسن العقول وأقوى العزائم وحل بمقرها في القاهرة كثير من أعلام العالم الإسلامي، كما شارك في تحرير مقالاتها أحيانا كتاب غير مصريين حيث نما شعور قوي بالوحدة الإسلامية وضرورة توثيق عراها. وكان من أمانى الجمعية آنذاك تعميم اللغة العربية في الأقطار الإسلامية وتكوين عصبة أمم إسلامية للفصل في المنازعات الإسلامية. كما اهتمت الجمعية اهتماما بالغاً بالتعليم.

ومهما يكن من شيء فإن في مصر عوامل كثيرة تتضافر مع أهداف جمعية الشبان المسلمين بحيث نستطيع الكلام دون معارضة عن اتجاه عام للفكر الإسلامي في مصر. وجدير بالاعتبار قول "كامبفاير" : "وأما عن التعليم فقد أدهشني ما شهدته من رقيّه حينما كنت في مصر عام ١٩٢٨، وأدهشني توفر الحكومة والأساتذة والطلاب عليه وما بلغه من نتائج. حقا لقد كانت دراسة الدين الإسلامي وحُب الوطن أساس هذا التعليم الذي يُعنى أيضا عناية كبرى بالألعاب الرياضية لينشئ جيلاً قويا. ولاشك أن

البلاد ستبلغ مبلغاً عظيماً من الرقي بتقدّم هذا التعليم الذي شهدته وباستثمار تلك المواهب الخلقية والعقلية التي لا سبيل إلى إنكار أن الطبيعة حبّت بها المصريين. وقد حاول وزيرُ تولّى وزارة المعارف في سنة ١٩٣٠ أن يُغيّرَ هذا النظام فلقيَ معارضةً وكانت وزارته قصيرة الأجل، ولا أظنُّ - والحالة كما وصفتُ - أن وزيراً يستطيع أن يطرحَ المبادئ الصحيحة التي تقوم عليها مناهجُ التعليم في مصر. وتلك ملاحظةٌ فيها من الشجَن الآن بقدر ما كان فيها من الصدق في زمانها. ويتابع "كامبفاير" تقييمه للوضع العام في مصر في مختلف مناحي نهضته فيقول: "وتفسير حركة تعليم المرأة وإعطائها حقوقها بحزم عظيم ونظر ثاقب. وترى العناصر الصالحة في الأمة تدفع التعليم العام وتهيبُ به أن يضع الدين والأخلاق وسلامة البدن نصب عينيه، ونرى كذلك اتساعاً تدريجياً في نطاق المعاهد الدينية وفي آرائها؛ فهناك إصلاح للأزهر وهناك المجلة التي أنشئت منذ سنين "نور الإسلام" لتدرس تعاليم الإسلام وما يتصل به من مسائل علمية وخلقية وتاريخية وفلسفية درساً جدياً ولتصل فيها إلى رأى صحيح".

"ولونظرنا إلى الأدب العربي الحديث في مصر لوجدنا.. العقول مفتوحة أمام ثقافة الغرب ولكن يغلب عليها شعور ديني وإحساس عميق بالحاجة الخلقية والاجتماعية. نلاحظ في هذا الأدب شعوراً متزايداً بالشخصية المصرية والشرقية المستقلة". ويستشهد الكاتب في ذلك بأمثال المنفلوطي وعلى عبد الرازق، ويعتبر محمد حسين هيكل مثلاً على التطور الفكري الحديث، ذلك إن أعظم رأي يمتاز به، وهو الرأي الذي يردُّ كثيراً، هو ما يسميه "بعث الشرق من جديد". وهو يعتقد أن المنقذ الوحيد للمدنية هو يقظة روحية أو "نورٌ جديد"، وأن هذا النور لابد أن يطلع من الشرق، وله في الدين آراءٌ محكمة، ويذهب إلى أن العلم وحده لا يفي بحاجة الإنسانية وإلى أن الدين غذاءٌ روحي لا غنى عنه.

كما يوجّه كامبفاير النظر إلى "الجهود القوية لإنماء الصناعات والمشروعات الوطنية التي يُعدُّ بنك مصر من أروع أمثلتها". ويبيدُ طلعت حرب، وهو مصري صميم، نشاطاً عظيماً في هذه الناحية".

كان المصريون أثناء العشرين سنة الماضية عُرَضَةً لَأَن يَفْقِدُوا بسبب اتصالهم بمدينة الغرب، ما لهم من شخصية ويقطعوا الصلة بما لهم من ماضٍ ودينٍ وأخلاق ويُسلموا أنفسهم لمساوئ تلك المدينة دون أن يأخذوا ما فيها من محاسن. والظاهر أنهم تغلبوا على هذا الخطر الذي كان يتهددُهم، فمنما الشعور القومي وزاد تغلغلاً وأوشك أن يكون شاملاً، وزاد معه فهمهم للحاجات الحقيقية في بلادهم وفي بلاد الشرق، والحق أن بينهم شعوراً عاماً يظهر قوياً منظماً في نشاط جمعية الشُّبان المسلمين.

ثم يتساءل "كامبفاير" هل سيقدر الإسلام على الاحتفاظ بالوحدة بين شعوبه رغم هذا الانحلال السياسى وأمام غارة تشنها الأفكار الحديثة والعلم الأوربى؟ أترأه سيكون خصيماً أم حليفاً؟ أهو أخذ في الانحلال إلى قوميات صغيرة تتأثر كل منها على حدتها بالمؤثرات الأوربية وتتهج طريقاً خاصاً بها؟ ويُجيب قائلاً : "أستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولاسيما مركزها العظيم الذى يتكون من الكتلة المتماسكة التى قوامها مصر وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دوراً فى غاية الأهمية، وسيزداد نزوعها إلى تكوين وحدة فكرية أساسها وحدة اللغة الأدبية وسهولة المواصلات بينها، ونهضة الإسلام فى هذه البلاد واقع لا سبيل إلى رده، ولن يحدث فى البلاد العربية شئ يشبه ما حدث فى تركيا، ولن تستبدل هذه الشعوب الكتابة اللاتينية بالكتابة العربية.. وإن الصحافة العربية التى بلغت مبلغاً عظيماً من الرقى ستعمل كثيراً على تقوية تأثيرها فى العالم الإسلامى كله، ولن يقوى الانحلال السياسى على تغيير شئ من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة.

أما الإجابة عن سؤال هل سيكون العالم الإسلامى الحديث خصماً أم حليفاً؟ فيتوقف هذا على أوربا. ويجب أن نُقرَّ فى صراحة وتأكيد أن الكتلة العربية التى نحن بصدها الآن لا تكن عداءً لأوربا أو الأوربيين ولا للمسيحية أو المسيحيين. وفى الشرق العربى يتضامن المسلمون والأقباط فى ميدان السياسة، لكن هناك شيئين يسخطهما الجميع أشد السُّخط هما : الاستعمار الأوربى والسيادة الإمبراطورية الاستغلالية

المفروضة على الشرق من جهة واعتداء المبشرين على الإسلام من جهة أخرى... فالشرق يقف والحالة هذه موقف المدافع لا المعتدى، والعالم الإسلامي يريد أن يعيش على ودٍ مع الغرب ولكن على قدم المساواة.

وببصيرة نافذة، يُعبرُ كامبفاير عن تَخَوُّفه من سوء هذه العلاقة التي يتحمل تبعتها الغربُ في الأساس، وذلك عندما يُضيف مباشرة قوله: "هذا هو الحل الوحيد الذي يُمكن أن تُحلَّ به المصاعب الحاضرة في الشرق العربي الأدنى بما في ذلك أصعب العضلات قاطبة وهي مسألة الوطن اليهودي، وسيُفضي الضُغط والقُوَّة اللذان يُستعملان مع العرب إلى نكبات جسيمة، وأصبحت الوعود قليلة الغناء، والغرب لا يثقون في الكلام، ولن تُجدي الدعاية نفعا ولا "ميثاق السلام" بين العرب واليهود، ولن يحسم النزاع إلا اتفاق حر تمضيه حكومة وطنية".

وجوابا على السؤال هل سيقنع المبشرون بتعاون المسلمين والمسيحيين على إنهاض حضارة الشرق وبما ينشأ عن ذلك من نتائج نافعة؟ يجيب كامبفاير مؤكداً "بأن أحدا من المسلمين لا يعارض في بيان محاسن الدين المسيحي، وفي إظهار الحياة والأعمال المسيحية الصحيحة، وربما كان هذا مؤديا إلى نتائج نافعة، أما الاعتداء على الإسلام فلا تُرجى منه فائدة. وأقرّر مع الأسف أن مثل هذا الاعتداء حدث في جهات كثيرة، وفي المسلمين اليوم من يقرءون ما يُكتب ويسمعون ما يُقال بأي لغة ولن يردّهم الاعتداء عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقوّيها، هذا الاعتداء ليس من شأنه إلا تكدير الجو وخلق المتاعب في العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في الشرق وتوسيع الهوة بين الشرق والغرب مما يتعارض مع مصلحة المبشرين ومع ما نرغب فيه من إقرار العلاقات بين الشرق والغرب إقرارا شاملا".

* * *

وفي الفصل الرابع المخصّص لبيان أوضاع المسلمين المعاصرين في الهند تحت الحكم البريطاني يثبت كاتبه الكولونيل فرار معلومات قيّمة عن أهم الحركات

الإصلاحية التي واجهت أزمة المسلمين مع الحضارة الغربية عند أمثال : سير سيد أحمد خان الذى رأى مُفتاحَ تقدم المسلمين فى نشر التعليم فعمل على إنشاء المعاهد العلمية مثل الكلية الإسلامية فى عليكرة، وندوة العلماء فى لكنو وكلية لكنو ودار العلوم، وما صاحب ذلك من نشأة مدرسة أدبية كان هو أول باحث لها من خلال مجلته "تهذيب الأخلاق"، ومن تجديده للفكر الدينى، وعند الشريف سيد أمير على ودفاعه عن جوهر الإسلام الصافى وحيويته وبيانه كيف أنه دين شعاره الوحدانية وعقيدته الكبرى الأخوة الإنسانية، وعند الشاعر الفيلسوف محمد إقبال وتجديده للتفكير الدينى فى الإسلام ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد، وحملته على دعاة القوميات : فليس فى الإسلام نزعة إمبراطورية بل هو جمعية أمم تعترف بالحدود الصناعية والفروق الجنسية لسهولة الإشارة فحسب لا لتضييق الأفق الاجتماعى للمسلمين، وعند مرزا غلام أحمد مؤسس حركة الأحمديّة القاديانية.

ويفيضُ الكاتبُ فى بيان اختلاف الديانة الهندوكية الصوفية عن العقيدة الإسلامية.

والفصل الخامس عن الحركات الحديثة فى إندونيسيا وعلاقتها بالإسلام، وعن كفاح الإندونيسيين فى سبيل الوحدة على الرغم من وجود أجناس متعددة وأمم كثيرة ومئات من اللغات المتباينة، وصنوف من الثقافات. وعن مكانة الإسلام فى إندونيسيا، واختلافه العظيم عن الهندوكية يستشهد الكاتب ك.ك.برج الأستاذ بجامعة ليدن بقول المستشرق الهولندى الكبير "سنوك هورجرونى" Snouck Hurgronje: "ورغم كل ما فى الإسلام من إصرار على الشكليات فلا تزال فيه تقوى إنسانية حارة وإسلام لله لا تمتاز بهما الهندوكية وإن لم تكن منهما صِفراً. ونظام الطوائف التى تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثر له فى الإسلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوّته على الدوام من حب الجماهير له حُباً حماسياً. إن الإسلام يعرف كيف يجعل له فى قلوب الناس مكاناً وإن معتنقيه ليفخرون به ولكنهم مع فخرهم هذا لا يدافعون غيرهم.. وما أسهل اعتناق دين محمد (صلى الله عليه وسلم). هو لا يستلزم دراسة معقدة، فليس هناك إلا النطق بالشهادة التى تتضمن الإيمان بالله الذى لا شريك له وبرسوله، وليس هناك كاهن يُشرف على الحياة الدينية. وإن إجماع المسلمين على أن اختلاف الرأى رحمة من الله،

هذا الإجماع الذى يستلقت النظر بليته وتسامحه ويبرهن برهانا جديرا بالذكر على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجود سلطة معينة تُرغم الناس على رأيها... إن شعور مُعتنق الإسلام بأخوته للمسلمين جميعا وبأنه عضو فى العالم الإسلامى هذا الشعور الدينى الذى يبعثه الدعاة فى نفسه عند أول دخوله فى الإسلام ينمو ويخلق فيه استعدادا عقليا لاعتناق الإسلام من صميم قُوده. والحج المفروض على كل مُسلم أن يقوم به مرة فى حياته إن استطاع إليه السبيل والذى أداه ملايين الإندونيس... واستيطان عددٍ عظيم من الإندونيس أو "الجاوى" فى مكة التى هى المركز المشاع للعلوم الإسلامية والتى حمل الإندونيس إليها حماسهم للحج، وأثر اللغة العربية فى العمل على الوحدة، وتشابه طرق التعليم فى كل العالم الإسلامى كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية فى المكان الأول، حتى بعد أن تمّ تمزُّق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة رغم عقيدة وَحْدَةِ الأمة تحت لواء الدين. والمثلُ السيئ الذى ضربته أوروبا التى تُزعم أنها مسيحية، هذا المثل الذى ظلّ قرونا يَضَع المصلحة الفردية فوق المصلحة العامة، لم يقتد به العالم الإسلامى إلا فى هذا القرن، وعُذره فى ذلك ما وقع عليه من ضغط خارجى.

ثمَّ يعرضُ الكاتب بعد ذلك للاتجاه الجديد فى الثقافة الإندونيسية ولدور حركة التجديد المصرية - ممثلةً فى مدرسة الإمام محمد عبده وتأثير مجلة المنار إلى جانب الانتفاع بالأساتذة المصريين فى تنشئة الشباب الإندونيسى على الروح الجديدة - ، وإقيام الوهابية الجديدة. ويبيِّن كيف أدى تغيير التعليم على الطراز الأوروبى بالحالة الثقافية العامة فى إندونيسيا إلى تغيير جذري، ونشأ عن ذلك أن أصبحت الحركة الإسلامية الحديثة تنزع نزعة التجديد. ويَعدها يعرضُ الكاتبُ للعقبات التى تعوق سيادة الإسلام متسانلاً عما إذا كان أفراد هذه الأمة سيُفصِّحونَ عما سيؤثرونه فى المستقبل : الإسلام أم القومية؟ فيشير إلى أن هناك بعض الدلائل على تقهقر العالم الإسلامى. كما أن أوروبا تعاني أزمةً رُوحية وهى ليست أزمةً عارضةً البتة بل هى نتيجة حتميةً لفعل الفردية المُسرَّفة التى سادت تطوّر أوروبا منذ نفورها من العالم الإسلامى بعد الحروب الصليبية. ويأمل الكاتب أن تنشأ بين الشعوب الشرقية قوى جديدة تُعين على إيقاف التقهقر الحالى فى العالم الإسلامى بل على تحويله تقدُّماً إلى الإمام.

وماذا سيكون موقفنا من الإسلام ومن كفاحه مع العضلات التي نشأت عن تسرُّب المبادئ الأوربية السياسية والاقتصادية والثقافية إلى المسلمين؟ وكيف سنقفُ إزاء ما يُنتظرُ من تدهور الإسلام أو نهوضه؟ وأي قيمة سنجعل للظواهر التي تشخصُ أمَامنا؟ يُجيبُ الكاتبُ بقوله: كل ذلك يتوقف توقفا كبيرا على ما أختارنا لأنفسنا من وجهة نظر نسير عليها في حياتنا دون غيرها من الجهات الكثيرة الموجودة.

إن مستقبل الإسلام في إنونيسيا رهين طريق ومدى مقاومة كل من الإسلام والقومية والتعليم الأوربي والمبشرين المسيحيين صاحبه في المستقبل القريب، ويتوقف كل من طريقة هذه المقاومة ومداها توقفا كبيرا على السياسة الاستعمارية الهولندية... ولكن المستقبل يُضمّر في خباياه ما سيكون من قوة تلك العوامل بعضها بالنسبة لبعض والأثر الذي يُحدثه كل منهما في الآخر.

* * *

وفي نهاية الكتاب يُعبّر هاملتون جب عن قناعة، يختلط الحلم فيها بالواقع والثقافة بالسياسة، بمستقبل مُشتركٍ واعدٍ بين العالم الإسلامي وأوربا، يُجسدها قوله :

وعلى كل حال فالعالم الإسلامي يقف جنبا لجنب مع أوربا متميزا عن المجتمعات الشرقية الصميمة في الهند والشرق الأقصى، وفكرة رابطة شرقية عامة من العالم الإسلامي والهند والصين واليابان هي النتيجة الخيالية الناشئة عن الحق على سيادة أوربا السياسية والاقتصادية المؤقتة، ولكي يصل العالم الإسلامي إلى أتم رقي في حياته الثقافية والاقتصادية لا يستطيع أن يستغنى عن التعاون مع المجتمع الأوربي، ولكي تصل أوربا أيضا إلى أتم رقي في حياتها الثقافية ولاسيما في حياتها الروحية لا تستطيع أن تستغنى عن القوى والكفايات التي توجد في المجتمع الإسلامي. ولن يستطيع أحد الفريقين أن يسترد ويستثمر قواه الكاملة إلا بعد أن يستعيدا ذلك التعاون الذي تمتع به الشرق والغرب في ظل الإمبراطورية الرومانية. ولا يزال الإسلام

فى داخل العالم الغربى يسلك سبيلا وسطا بين المتناقضات الشديدة، وهو على معارضته لفوضى القومية الأوروبية وللنظام العسكرى لروسيا الشيوعية لم يقع فريسةً بعد لهجمات الحياة الاقتصادية الملحة التى تمتاز بها أوربا الحاضرة وروسيا الحاضرة كذلك.

ولا تزال رسالة للإسلام يؤديها من أجل قضية الإنسانية.. فله ماضٍ مجيد من تفاهم الأجناس وتعاونها.. وإذا لم يكن بُدٌّ من أن يحلَّ التعاونُ محلَّ الشقاق بين المجتمعات العظيمة فى الشرق والغرب فإنَّ وساطةَ الإسلام شرطٌ لابد منه لأن فى يده إلى حد كبير حلَّ المُعضلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق، وإنَّ اتِّحادًا زاد الأملُ زيادةً لا حدَّ لها فى بلوغ نتيجةٍ سَلْمِيَّةٍ، أما إنْ قذفت أوربا بالإسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه فلا بد أن تكون النتيجةُ ناكبةً للجانبينَّ.

تلك كانت رسالة الكاتب الواضحة للعالم العربى آنذاك، وما أجدرها أن تُوجَّه من عقلاء المفكرين، بعد انقضاء ثلاثة أرباع القرن، إلى العالم الغربى اليوم وفى الطليعة منه الولايات المتحدة الأمريكية .. فذلك أمرٌ فيه ما فيه..

* * *

والتحية واجبة للمركز القومى للترجمة على مبادرته الطيبة بإعادة نشر هذا الكتاب المهم ضمن "ميراث الترجمة".

وبالله التوفيق ،

مصطفى لبيب عبد الغنى

وجهة النظر الإسلامية

نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي

تأليف

ل . ماسينيون

الأستاذ بجامعة باريس

و عضو المجمع اللغوي الملكي المصري

ه . ا . ر . جب

أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

و عضو المجمع اللغوي الملكي المصري

ك . ك . برج

جامعة لندن

ج . كامبفاير

جامعة برلين

لفتنانت كولونل فرار

بالجيش الهندى سابقا

أشرف على تحريره الأستاذ ه . جب

ونقله عن الانجليزية

محمد عبد الهادي كوفري

ليسانسيه في الفلسفة مع درجة الشرف الاولى

والطالب بكلية الآداب بالجامعة المصرية بالجيزة

راجع الترجمة وقدم لها الأستاذ ه . جب

الطبعة الاولى (حقوق الطبع محفوظة للمترجم)

يطلب من المكاتب الكبرى بالقاهرة ومن المترجم

محتويات الكتاب

خطاب الأستاذ «جب» الذى يأذن فيه بترجمة الكتاب ونشره.

كلمة المترجم

مقدمة الأستاذ «جب» للترجمة العربية

الفصل الأول : مقدمة للمشرف على التحرير

الفصل الثانى : إفريقية (ماعدامصر) للأستاذ لويس ماسينيون بجامعة باريس.

الفصل الثالث : مصر وآسيا الغربية للأستاذ ج. كامبفماير بجامعة برلين.

الفصل الرابع : الهند للفتانت كولونل م. ل. فرار.

بالجيش الهندى سابقا

الفصل الخامس : إندونيسيا للأستاذ ك. ك. برج بجامعة لندن.

الفصل السادس : وجهة الإسلام للمشرف على التحرير.

فهرس

مصور العالم الإسلامى

خطاب الأستاذ «جب» الذى يأذن فيه بترجمة الكتاب ونشره .

PROFESSOR H. A. R. GIBB

SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES
UNIVERSITY OF LONDON

FINSBURY CIRCUS, E.C.2.

في ٢٦ إبريل ١٩٤٣

حضرة الفاضل محمد عبد الهادى ابو ريده
قد تلقيت خطابكم برور زائد
وعرضت طلبكم فى الحال الى المستر
Goellance صاحب المطبعة الذى له
حق نشر الكتاب "بشير الاسلام"
وقد انقبل المشروع بالرضى والامتحان
وتفضلوا بقبول التحيه والسلام

Halim

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه
وبعد فر بما كنت محتاجا لشيء من الابانة عن سبب ترجمة هذا الكتاب الذى
أقدمه بين يدى قراء العربية، فقد وقع فى يدى منذ عام وما كدت أتم قراءته حتى
أحسست بياعث شديد يعنى على ترجمته لأنه ألم بأطراف موضوعه بقدر
ما يتسع لذلك كتاب صغير الحجم لا يقصد به تفصيل موضوع للبحث بل
الإشارة إلى أهم ما يسترعى النظر فيه . ولا ريب أن لموضوع الكتاب من
خطر بقدر ما فيه من طرافة لأن الباحثين فى الإسلام والمسلمين لم يغنوا بتناول
الناحية الاجتماعية والدينية والفكرية إلا قليلا ، وإذا كان المسلمون قد ظال
اتصلهم بأوروبا واشتد تأثيرهم بالمدنية الأوروبية خيرا وشرها فقد أصبحنا فى
حاجة إلى ما يكشف لنا عن مدى تطور الشعوب الإسلامية وعن خطوات هذا
التطور وظروفه التاريخية والعوامل التى ساعدت عليه وعن مسلك المسلمين إزاء
المدنية الغربية ومقدار قبولهم أو رفضهم لها وعن وسائلهم فى حل مشكلاتهم
الحاضرة وما أصابوا من نجاح ثم عن وجهة الإسلام فى جملته ومحاولة التوفيق
بين أنظمتهم وبين العصر الحديث . جاء هذا الكتاب وإفادته الغرض لأنه
يوجه أكبر العناية إلى تحليل تيارات الفكر الداخلية بين شعوب الإسلام وما
يرتددينهم من نزعات ويفصل ما يشغل بالهم من الناحية الدينية والاجتماعية ثم
ويكاد القارئ العربى لا يجد كتابا يحمل له الكثير من شئون المسلمين مع تباين
بلادهم واختلاف لغاتهم وتنوع مشكلاتهم على طريقة علمية وبقلم باحثين
حقا كهؤلاء الإسمائنة الذين عني كل منهم بدراسة الناحية التى كتب عنها وخبر

شئونها بنفسه .

هذا ما بعثني على مكاتبة الاستاذ د جب ، مستأذنا في ترجمة الكتاب ونشره ،
وقد أذن لي . بعد عرض طلبي على صاحب الحق في طبع الكتاب كما يرى في
صورة خطابه إلى ، ولما حضر الاستاذ إلى مصر عرضوا في المجمع اللغوي الملكي
المصري أسعدني الحظ بمقابلته فتكرم بمراجعة كثير من الكتاب على الأصل
الانجليزي وضحى في ذلك بالكثير من وقته الثمين وأوضح كثيرا عما في الكتاب
وكتب مقدمة للترجمة العربية فله الشكر كله على ذلك .

ولم أجد في ثايات الكتاب كثيرا مما يحتاج إلى التعليق ، ولم أعلق إلا على بعضه
في اختصار لكي أترك القارىء مع المؤلف وجهه لوجه ولكي تكون مهمتي
قاصرة على نقل ما في الكتاب في إخلاص ودقة وعرضه للقارىء . ايرى فيه
رأيه ، وربما رأى القارىء العربي ما يسترعى نظره لأول وهلة ، وهذا طبيعي
لاختلاف وجهة نظر الباحثين ولأن الباحث الخارجى يستطيع أن يتبين في
حياة المسلمين نواحي قد تفوتهم ، ورأى الغير - مهما يكن - لا يخلو من فائدة ،
ويجب على المسلمين أن يقرءوا كل ما يكتب عنهم ليروا أنفسهم من وجهة نظر
الغير ، ولا ريب أن في هذا الكتاب كثير من النظرات الصادقة في شئون المسلمين .
وقد ترجمت الكتاب أثناء دراستي ولم أشرع في طبعه الا بعد امتحان الليسانس
وأرجو أن أكون قد وفقت في اختياره وفي ترجمته بقدر ما تسمح بذلك ظروف
طالب يجتهد في اقتصاد بعض وقته لعمل كهذا يكلف من يضطلع به مشقة كبيرة ،
وأختم كلمتي بتكرير الشكر للاستاذ د جب ، ولكل من ساعدني وأيدني في
أمر هذا الكتاب ؟

القاهرة في ١٤ صفر سنة ١٣٥٣ (٢٧ مايو سنة ١٩٣٤)

محمد عيد الهادي أبو رييدة

الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مقدمة للترجمة العربية

بقلم الأستاذ «جب»

كنت أتحدث يوماً إلى صديق زار البلاد الشرقية كثيراً فسألني: «هل تدلني على كتاب يصور لي حالة المسلمين في جملتهم؟ فلقد قرأت كتباً كثيرة غير أن كلا منها لا يتناول إلا جزءاً صغيراً من بلاد الإسلام ومعظمها لا يتناول إلا الناحية السياسية، وإنما أريد كتاباً يصف حياة المسلمين في جميع مناطق الإسلام الكبرى ويبين كيف تأثروا بما انتشر فيهم من الأفكار الأوروبية ويصف ما يذنبون من عادات وما يشغل عقولهم من آراء إلى غير ذلك، فأجبت: «إن الكتاب الذي يفني بحاجتك لم يكتب بعد فيما أعلم»، فقال: «ولماذا لا تكتب مثل هذا الكتاب؟»

صادفت فكرته مني ارتياحاً ولكن أني لا، بل أني لكائن من كان أن يكتب كتاباً كهذا؟ فبلاد الإسلام متعددة، ولغات شعوبه متغايرة أشد التغاير، ولا بد لمن يريد الإجابة عن سؤال صاحبي أن يخبر تلك الشعوب عن كتب، وأن يقرأ ما يكتبون على اختلاف لغاتهم، وأن من يعرف العربية والفارسية والتركية والأوردو والبنجابية والجاوية ولغة الملايو؟ وإذا عرف أحدهذه اللغات جميعاً فهل في طوقه أن يقرأ عشر معشار ما كتب بها؟

لم يكن بد إذن من تقسيم هذا العمل بين نفر من العلماء لكل منهم خبرة خاصة بناحية معينة. لكن أمر تأليف الكتاب لم يقف عنده هذا الحد، فلكي يدرس كل أقليم دراسة وافية لا بد من كتاب ضخيم، فلم يكن بد من أن نختار بعض بلاد الإسلام ونترك على الرغم منا بعض البلاد التي لها نصيب قليل أو لا نصيب لها ألبتة في حركة الأفكار العامة في العالم الإسلامي مثل وسط أفريقيا ووسط

آسيا، ثم استقر الرأي أخيراً على أن نخصص فصلاً لكل من آسيا الغربية والهند وإندونيسيا، ولما كان للمغرب مشكلاته الخاصة في علاقاته بأوروبا رأينا أن نجعل له فصلاً صغيراً. وبعد أن عرف الذين اضطلعوا بكتابة أربعة الفصول المذكورة غاية هذا الكتاب في جماعته والأسئلة التي لا بد من محاولة الإجابة عنها أعطى كل منهم مطلق الحرية في أن يكتب ما شاء كيف شاء من غير أن يتقيد إلا بعدد الصفحات، والحق أنهم اختلفوا اختلافاً عظيماً في مناهج البحث وفي عرض المسائل، تنعكس من كتابة كل منهم صورة الظروف الخاصة بالناحية التي يكتب عنها. وليس لي في هذا المقام أن أطيل في وصف ماتحويه تلك الفصول وما يمتاز به كل منها، ولكن إشارتي إلى نقط قليلة ربما تعين قارئ هذه الترجمة العربية. ولا يدورن بخالد القاري، أن يجد في مجمل كهذا وصفاً مفصلاً لجميع نواحي حياة المسلمين في المغرب وآسيا الغربية والهند وإندونيسيا، فهناك كتب كثيرة منها الغث ومنها السمين تناول حياة هذه البلاد وحياة أهلها، فأما الذي يرمى إليه مؤلفو هذا الكتاب فهو أن يحلوا تيارات الفكر التي تعبر عن حالة المسلمين ثم النزعات التي تتردد بينهم ليراها القاري. الأوروبي اللبيب الذي له بعض الخبرة بحياة البلاد الشرقية.

فيرينا الأستاذ ماسينيون مثلاً مشكلة العمال الذين اتصلوا أكثر من جميع من عداهم من المسلمين اتصالاً وثيقاً بالحياة الأوروبية جنداً مجبرين في الجيش أو مرتزقين في مصانع فرنسا والذين لا يزالون على تمسكهم بمبادئ الصوفية الإسلامية كما يمثلها أهل الطرق. أما في آسيا الغربية فإن المهمة أكبر وأشد تعقيداً ذلك أن تمايز الطبقات والشعوب وما تعرضوا له من مختلف أنواع الاتصال العقلية والاجتماعية كان من أثره إيجاد عدد كبير من الظواهر لكل ظاهرة دلالاتها ومكانها في حياة عصرنا الحاضر، وكان للاستاذ كامبفابر أن يختار من بين هذه الظواهر ما يراه أكبر دلالة، وقد اختار - وأحسن الاختيار -

التنظيم الجديد في الحياة الاجتماعية والعقلية، لأن هذا التنظيم ظاهرة جديدة كان لها أثرها في إيجاد إرادة عامة وغاية عامة، وبعد أن اختار إحدى الجمعيات — لا لأنها أهم ولكن لأنها تمثل نشاط سائر الجمعيات — أرانا تحليلاً مفصلاً لتكوينها وأغراضها ووسائلها :

أما في الهند فإن للمشكلة تختلف عن ذلك، لأن الصراع بين ثقافة الإسلام والثقافة الهندوكية قد جعل الناحية السياسية اليوم في المكان الأول، ونرى المسلمين كما يصفهم الكولونيل فرار، جبهة متحدة للدفاع عن ميراثهم الديني والسياسي أمام الاخطار التي يخشونها من أغلبية الهندوك الساحقة في الحياة السياسية الجديدة للهند. وفي أندونيسيا شيء من هذا حيث يظهرنا الاستاذ برج على عدد هائل من المسلمين ولكنه منعزل مشتب يراجه الحياة الجديدة بقلق، ويحمد لكي يضع برنامجا يسير عليه أمام مختلف العقبات التي لاتواجهها أي جماعة إسلامية أخرى.

سجد القاري في هذه الفصول الأربعة ما يعينه على تمثل الحياة التي تختلج فيما بين المسلمين، وما الفصل السادس إلا مثل هذه المحاولة للتخفيف الموقف، ورب ناظر آخر من تعظيم الظروف أقدر على التحليل يرى رأيا آخر في العوامل الموجودة فيرفع من شأن بعضها مما يرى أنه لم ينل تقديرأ كافيا ويقلل من قدر ما يحسب أنه قدر أكثر مما يستحق، ولا إخال باحثانزها يرى أن الصورة التي عرضتها محرقة تحريفا شديدا، وإني لا أرحب بالترجمة العربية التي قام بها صديقي محمد عبد الهادي أبو زيدة أفندي الطالب بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وكما أريد بالنسخة الانجليزية أن تعين القاري الأوروبي على أن يرقب بعين العطف حركة الأفكار بين المسلمين فاني آمل أن تعين النسخة العربية قراءها على أن يقدروا الوحدة الجوهرية التي هي المطمح الذي يجاهدون في سبيله والتي تربط شق العالم الغربي (١)

(١) الذي يتكبر في رأي المؤلف من العالم الإسلامي ومن أوروبا .

الفصل الأول

مقدمة

إن الإسلام في نظر الجمهور يعد قبل كل شيء ديناً — نظاماً من العقائد والعبادات — يقترن بذات النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) وبسجل أقواله المحفوظ في القرآن، (١) ونحن نسمى أتباعه محمديين أو مسلمين أو «مسلمان» — وبعدها الأخصائيون بأرقام إجمالية وتفصيلية لبيان توزيعهم وقوتهم النسبية ومكانة الإسلام بوجه عام بين أديان العالم — وإن كان معظم هذه التقديرات غير دقيق حتى لتفاوت بما قد يبلغ عشرات الملايين — تنبأ أدق هذه الأحصاءات أن مجموع معتقى الإسلام يتراوح بين ٢٤٠ و ٢٥٠ مليوناً أى ما يزيد على مجموع سكان الأمريكتين من هؤلاء ١٨٠ مليوناً في آسيا (في الهند ما يربى قليلاً على ٧٠ مليوناً وما يقرب من ٥٠ مليوناً في أندونيسيا وحوالى ٤٠ مليوناً في آسيا الغربية والباقيون في الصين وسيبيريا) وفي أفريقية ما يربى على ٥٠ مليوناً حيث يزيد حقا عدد المسلمين على غيرهم من متبعي سائر الأديان المنظمة أضعافاً مضاعفة وحيث يكونون مالا يقل عن ثلث سكان القارة، يضاف إلى ذلك ملايين عديدة من المسلمين ما يزالون في أوروبا وأكثر ما يوجدون في ولايات البلقان وفي روسيا الجنوبية .

ومسألة «وجهة الإسلام» بالمعنى الدينى و«الكلامى» الضيق، لها عند هذه الملايين أهمية حيوية، كما أنها ليست عندنا مسألة نظرية محضة، فلقد عرفنا حق المعرفة أن بواعث الناس ووسائلهم ومثلهم العليا في حياتهم اليومية إنما

(١) يريد المؤلف حكاية ما يعتقده جمهور غير المسلمين ممن ليست لهم بالإسلام دراية خاصة لأنهم لا يفرقون بين القرآن والحديث، والكل عندهم كلام النبي عليه السلام، أما المسلمون فيعتقدون أن القرآن كلام الله وأن الحديث تبين النبي .

تصدر عن عقائدهم المتغلغلة في نفوسهم ، ونجد في الاسلام بخاصة أن المكان الذي تبوأته التعاليم الدينية كان دائماً من العظمة بحيث لا نستطيع إغفال ناحية العقيدة عند إلقاء أى نظرة على النزعات الحديثة في العالم الاسلامي . على أنه بينما نجد المسائل الدينية من غير شك أساس كثير من النزعات الحديثة في الفكر حتى مع عدم ظهورها للعيان نرى أن تطور العقيدة والمظاهر الدينية إنما هو ناحية واحدة (وثانوية الآن) من معضلة أكبر كثيراً .

الحق أن الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، إنه أعظم من ذلك كثيراً ، هو مدنية كاملة ، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا العالم المسيحي ولم نقل المسيحية وقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفو شيوس . يشمل الاسلام مزيجاً كاملاً من الثقافات التي نمت حول الاصل الديني أو ارتبطت به في معظم الاحوال مع تعديل قليل أو كثير فهو مزيج ذو خصائص يتميز بها في تكوينه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وفي تصوره للقانون وفي نظراته الخلقية ونزعاته العقالية وأساليبه في الفكر والعمل ، وهو بعد يضم عدداً عظيماً من الشعوب المختلفة في الجنس واللغة والخلق والاستعدادات الموروثة ، غير أنها على اختلافها مرتبطة لابو شبيعة العقيدة المشتركة فحسب ، ولكنها ترتبط ارتباطاً أشد قوة بشاركتها في ثقافة واحدة وخضوعها لشرعية واحدة واتخاذها تقاليد واحدة . /

وأعجب من هذا ، التوزيع الجغرافي الشاسع للشعوب الاسلامية فهي تمتد بلا إنقطاع من الساحل الاطلسي في غرب افريقية إلى السودان وتسير مع السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط إلى مصر وآسيا الغربية ومن هناك تمتد مع سواحل البحر الاسود وبحر الخزر في قلب سيبيريا وتسير شرقاً في منغوليا . وتمتد مع ساحل افريقية الشرقى إلى خط عرض مدغشقر وتخترق سلاسل جبال الافغان إلى سهول الهند ، وهنا ينقطع امتداد الكتلة .

لأول مرة ولكن بعد أن تتفرع منها جماعات كبيرة منشورة في النيجال وغيرها من أقاليم الهند تبدأ سلسلة جديدة في شبه جزيرة الملايو وتمتد متصلة في مجموع جزر الهند الشرقية حتى تنتهي في جزر الفلبين الجنوبية، وتوجد فيها عدا هذه المساحات جماعات صغرى منعزلة على حدود الصين الغربية وفي جنوب أفريقيا. وإذا نظرنا إلى العالم الإسلامي على المصور ألفيناه يشبه هلالين عظيمين يخرج قرنا كل منهما من مركز مشترك في آسيا الغربية ويكون الشمال منهما نطاقا يربو عرضه على ألف ميل ويحيط بأوربا من أقصاها إلى أقصاها تقريباً ويفصلها جغرافياً عن البلاد الغاصة بالسكان في جنوب آسيا وشرقها، ويحيط الذراعان الدقيقتان من الهلال الجنوبي بالمحيط الهندي إلا في بعض أجزاء الهند وسيلان حيث ينقطع امتدادهما.

ولعل من سداد الرأي توقعنا أن يكون انتشار الإسلام على هذه الأصقاع الشاسعة واشتماله على أجناس كثيرة وتقاليد قديمة أمرين سيحولان دون بلوغ وحدة حقيقية في المدنية الإسلامية وأنه رغم اتحاد المظاهر الدينية فإن بقاء العادات التي رسخت قديماً وأساليب التفكير المختلفة في طبيعتها اختلافا لا يدع لثقافتها سيلاً سيؤثر تأثيراً قوياً في ثقافة كل إنليم على حدة حتى لا يترك مجالاً لتقاليد شاملة ولا لأى وحدة تامة في الشعوب وحتى يوجد عدداً من الثقافات الإقليمية الإسلامية. لقد كان حتماً أن يحدث بالفعل شيء من هذا ويمكننا كما يظهر من عناوين فصول هذا الكتاب أن ندين يقيناً في كل جهة رئيسة خصائص تميزها إلى حد ما عن سائر جهات العالم الإسلامي، وليس عجباً أن تتمايز الثقافات ولكن العجب أن أصول المدنية ونزعات الفكر بقيت واحدة بوجه عام على رغم كثرة العوامل التي تعمل على الاختلاف ونستطيع أن نتبين لهذه الظاهرة ثلاثة أسباب رئيسية.

أول ما نلاحظ، أن اتساع رقعة الإسلام الحاضرة لم يكن إلا إلى جديماً

نتيجة توسع متظم بين قرن وقرن، وإنما حدث بوثبات سريعة ممتدة طعة . فالفتوحات العربية بين سنتي ٦٣٠ و ٧٥٠ رفعت العلم الإسلامي على البلاد الممتدة من إسبانيا ومرا كش إلى وسط آسيا وظل داخل هذه الحدود زهاء قرنين ونصف قرن بعد ذلك، وبين ١٠٠٠ و ١١٠٠ م امتد الحكم الإسلامي على مبادي أربع : في غرب إفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمال الهند، وامتدت منه موجة أخرى بعد قرنين ففرع فيما بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ م في شبه جزيرة البلقان وفي مناطق « استيس » روسيا وسيبيريا وباقي الهند وإندونيسيا، وعلى هذا كانت لوحة العالم الإسلامي فيما قبل ١٤٠٠ م عظيمة الشبه بها اليوم عدا زيادات صغيرة حدثت منذ ذلك الحين أهمها في أفريقية . ومن أعظم آثار هذا الاتساع المتوابع أن الإسلام لم يتعرض أثناء تشييد مدينته لثقافات متباينة تتنافس في التأثير فيه، وكانت المدة ما بين ٧٥٠ و ١٠٠٠ م هي دور التكوين الذي طبعت فيه المدينة الإسلامية في تطورها بالطابع المميز لها والذي لما تفقده إلى يومنا هذا .

وهنا لابد أن نقف قليلا لنفحص عن كسب مسألة ذات مساس كبير بالعضلة الإسلامية عامة . جرينا على أن نعد الإسلام ديناً شرقياً وثقافة شرقية حتى لنميل إلى إغفال الخصائص الحقيقية للمدينة الإسلامية وحتى ليفوتنا مكانها الصحيح وخطورتها في تاريخ الجماعة البشرية . لقد عرفنا منذ زمان بعيد أن الرأي القديم القائل بأن الإسلام خرج من بلاد العرب في صورة كاملة ثابتة لا تتغير هو رأي زائف ليس فيه إلا طرف من الحقيقة فقط ، فإن الإسلام ظل طيلة قرنين على الأقل ديناً مرناً بعض المرونة حتى في ميدان العقيدة الدينية . ولا شك في أن أصوله الأساسية تقررت على صورة نهائية ولكنها لم تتم حتى صارت « علم كلام » آخر الأمر . إلا بعد جدل دام طويلاً ، ثم إن الدين الإسلامي في ذاته واحد من مجموعة الأديان التي تشمل إلى جانبه المجوسية واليهودية والمسيحية وهو يقاسمها نفس المبادئ الأساسية (١) ومن ثم فهو من أول

(١) ربما يريد مثلاً فكرة التأليه أو الشعور بالعلاقة بين الإنسان ومدير الكون .

الامر ينتمى لما يمكن أن نسميه مجموعة الأديان الغربية تميزاً لها عن مجموعة الأديان الشرقية الهندية والصينية . أضف إلى ماتقدم أن هذه الصبغة الغربية زادت قوة فيما بعد لأن العالم الخارجى الذى انتشر فيه الاسلام من بلاد العرب . كان هو العالم الاغريقى الذى ورث المدنية اليونانية- الرومانية، وكانت الفتوحات الاسلامية الاولى كلها تقريباً داخل العالم الاغريقى، ولهذا كانت المؤثرات الخارجية التى صاغت المدنية الاسلامية إغريقية وفارسية، وتغلغلت الثقافة اليونانية فى صميم الحياة العقلية للمسلمين، وعلم الكلام نفسه مدين لـأرسطو، (١)، من أجل ذلك كانت اثقافة الاسلام كلها وفى جوهرها من الطراز الغربى . واتصالنا بها أوثق من اتصالنا بثقات الهند أو الشرق الأقصى فتسميتها « شرقية » تسمية خاطئة . هى شرقية لا بالمعنى المطلق بل شرقية فى موطن امتدادها، فحسب، كما هى من المدنية الغربية فرعها الشرقى الذى تشارك فيه فى كل العصور اليهود والمسيحيون الشرقيون تحت كنف المسلمين .

ولم تأت سنة ١٠٠٠ م حتى كمل هذا التطور فى الاسلام من عقيدة محضبة إلى مجتمع متشعب النواحي حتى إذا وثب إلى ما وراء حدوده القديمة بعد ذلك ويمكن لنفسه فى أقاليم ذات ثقافة موروثة أخرى لم يفعل ذلك وهو بمروته الاولى بل انتقل ثقافة متماسكة تامة النضج حملها معه أينما ذهب . من أجل ذلك كان الاسلام فى الهند وإندونيسيا هو الوارث الروحى للاسكندر وحامل لواء المدنية الاغريقية وإن كان قد هضمها وصبغها بصبغته (وربما نجد مثلاً على ذلك أن الاسلام وحده من بين الأديان الغربية رفع الاسكندر إلى ما يقرب من مكان الانبياء) (٢) ورغما عن تكييف المظاهر الدينية بما يلائم العرف .

(١) اتخذ المتكلمون من منطق أرسطو وفلسفته أداة تعينهم على تناول مسائل علم الكلام التى قررها الاسلام .

(٢) لم يذكر فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة القوية اسم « الاسكندر » . ولكن ذكر اسم « ذى القرنين » ، وهذه الشخصية الأخيرة كما يصورها الاسلام .

الأقليمي ولا سيما بين الطبقات الدنيا فإن الإسلام أبى أن يسالم يتيه الجديدة
أو أن يعيد النظر في نزعتة أو أصوله ، بل إنه على النقيض من ذلك رفع لواء
التوحيد عالياً أمام التفكير الهندوسي والوثني وكان من أثر التباين بينه وبينهما
أن صار أصلب مقاومة وأقوى تشبثاً بأهداب ثقافته .

وقد اقترنت بهذا ظاهرة خاصة صحت انتشار الإسلام وكانت السبب
الثاني في وحدة ثقافته تلك هي قوة الثقافة الإسلامية الفتية على إضعاف ذكرى
الثقافات الموروثة ، بل على محوها في بعض الأحيان من نفوس معتقية وإحلال
تاريخ الإسلام وتقاليد السالفة محلها . نسي الناس في كل الاقطار تقريباً ما
كان لهم من ماض قبل الإسلام — نسي المصريون فراغتهم وبطالستهم ونسي
الأتراك خواقينهم وهلم جرا ، ورجعوا إلى بلاد العرب والخلفاء الأولين
يتخذون منهم أسلافاً روحين . ولا يناقض هذا أن عناصر من تلك الثقافات
القديمة أخذت واتصلت بالثقافة الإسلامية المحلية لأن هذه العناصر فقدت عملها
وما كان يحيط بها قديماً من الأفكار الدينية وانتظمت في نسق التقاليد
الإسلامية العامة ، وبمثل هذا الأذعان لسلطان الإسلام زادت قوة دعوته
وكسب وسيلة جديدة لنشر تقاليده وتعاليمه .

ومع هذا كان من المحتمل أنه كلما زاد انتشار الإسلام وزاد تحويره لتقاليد غريبة
الجوهر عن كنهه الصحيح حتى تلائم أغراضه ظاهراً المثل الأعلى للوحدة التي
يسمى لصناعتها عرضة للخطر وصارت رسالته الحقيقية عرضة لأن تضعف أو تضل
السييل ولكن عاملاً ثالثاً أن يرى ليدراً هذا الخطر وهو الاختلاط الدائم الذي ظل

تغاير شخصية الاسكندر التاريخية ولعل الكاتب قد أحسن في التقليل من شأن هذا
المثال لأن ما يقال حول ذي القرنين الوارد ذكره في القرآن ليس من القوة والوضوح
بحيث يكون رفعا من الإسلام لشأن الاسكندر المقدوني على نحو ما يريد الكاتب
أن يلاحظ .

فإنما بين أنحاء العالم الإسلامي ولا سيما بين الأطراف ومركز الإسلام في مصر وآسيا العربية ، وكان الحج أقوى عامل في توثيق عرى هذا الاختلاط لأنه فرض محتم مرة على الأقل في العمر على كل مسلم يستطيع إليه السبيل ، وسنرى أن فرض الحج لا يزال حافظاً مزيته الأولى عاملاً على إحياء الحمية الدينية وتقوية الإيمان بالوحدة الإسلامية ، وبلى الحج مباشرة في العمل على التوحيد الروحي الجهود التي بذلها دعاة الإسلام من أتباع الطرق الصوفية المخلصين الذين يجهدون في كل ناحية في المحافظة على الإيمان وإذكاء لهيبه في قلوب أفراد الناس ، ومهما كان في كثير من فروع الطوائف الصوفية الصغيرة من إسراف ورغما عمل يشوبها من الهنات فإن الطرق الصوفية في جملتها لعبت ولا سيما في البلاد الثائرة الأحدث عهداً بالإسلام دوراً مشمراً في نشر العقائد والعبادات الإسلامية . وينجب أن نخص بالذكر عاملاً من العوامل التي لا تمت إلى الدين بصلة والتي ساعدت أيضاً على تحقيق هذه الغاية ذلك هو الاتصال الذي نشأ من التجارة في العصور الوسطى وظل قائماً في العصور التالية بفضل تقدم وسائل المواصلات التي أوجدتها الجهود الأوروبية ، وعلى هذا فإن تقاليد الإسلام الخالصة وتأثيرات ثقافته كانت تقوى على الدوام في البلاد الأحدث عهداً بالإسلام بفضل الجهود التي تضافر عليها المهاجرون من المركز الأصلي والعلماء المحليون الذين كانوا يرجعون إلى أوطانهم الأصلية بعد سنوات يقضونها طلباً للعلم في مكة أو القاهرة أو غيرها موطنين العزم على تطهير الإسلام في بلادهم من المساوئ والبدع التي لا تتفق وتعاليمه .

كان الأمر الخالص لهذه العوامل أنها أوجدت وصانت في العالم الإسلامي كله ثقافة وتقاليد متينة التماسك إلا تكن قد باغت تمام كمالها فإنها تسترعى النظر بحق إذا ما نظرنا إلى أجزائها المتباينة واختلاف أصول أجناسها ولغاتها . بدت متانة تلك الثقافة في شيوع الكتابة العربية وظهرت بدرجة أقل من ذلك

في الاشتراك في اصطلاحات الثقافة العربية بل في اللغة العربية التي أصبحت أداة شائعة بين العلماء كما تجلت في اتحاد الشعوب الإسلامية في فكرة دار جامعة هي «دار الإسلام» وفي الحرب الروحية والمادية الدائمة مع سائر أهل الأرض (١). وإن المشاركة في دين واحد وشريعة واحدة وثقافة واحدة أوجدت إلى جانب هذا شعوراً بالوحدة الاجتماعية — ولا نفهم أنها (كما يخطئ البعض) بمعنى المساواة الاجتماعية لأن المثل العليا الديمقراطية في الإسلام لم تفلح قط تمام الفلاح في القضاء على التمايز بين الطبقات والطوائف، ولكن ينبغي أن نفهم أنها بمعنى أن المسلمين في مجموعهم كانوا يشعرون بما بينهم من قرى وكانوا يظهرون عملياً في حياتهم الاجتماعية أثر هذا الاعتقاد، فالمسلم من المغرب يحس في الهند أوجاهة كأنما هو في مراکش سواء بسواء إلا في اللغة، وله الحق أن يغدو ويروح ويتزوج ويقيم كما يشاء لأن «دار الإسلام» كلها وطنه الذي لا وطن له سواء، ربما ينصب ميله على مسقط رأسه ولكنه يغدق ولائه وكل تلك العواطف التي تفرها حب الوطن على العالم الإسلامي وثقافته الدينية في جملتها، وقد شدت فارس وحدها ولا سيما منذ القرن السادس عشر، وذلك يرجع غالباً إلى أن الشعور القومي تضاعف بانحراف مذهبي خاص عن جمهور المسلمين.

وعلى ذلك فإن الإسلام الذي هو موضوع بحثنا ليس ديناً بالمعنى المجرد الخاص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية، لأن ظروف نموه — كما

(١) يحسن ألا يفوتنا التنبية على مدى هذا التكلام من إطلاق، فليست ذار الحرب في نظر الإسلام إلا الدار التي يتقطع العلائق بينها وبين الحكومة الإسلامية، ولا تقرر معها هدنة أو معاهدة، لا كل ما عدا دار الإسلام من البلاد، فذكر هذه الحرب الدائمة على هذا الوجه من الإطلاق يحتاج إلى التنبية.

سنرى بعد قليل - أدت من أول الأمر إلى ربط الدين بالسياسة ، بل إلى ربط علم الكلام بالسياسة ، وقد أكد هذه النزعة الأصلية ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامى والتنظيم الاجتماعى ، وكان يمكن لرجلنا فى أوائل القرون الوسطى أن يفهموا هذا جيداً - وقد فهموه فعلاً - ويجب ألا يعزب عن بالنا دائماً أننا ندرس مجتمعاً لا تزال تتردد فى صميمه بكل قوة هذه الفكرة التى كانت شائعة فى العصور الوسطى ، والحق أن نمو هذه الفكرة فى الإسلام فاق كثيراً ما وصلت إليه فى أوروبا وإن طمست العلاقات التى بين مختلف نواحي الحياة بسبب النقص الذى تكاد تمتاز به كل أنظمة الحياة الاجتماعية الإسلامية فيما يبدو من تنظيمها ، فنجد أن النظام الإدارى كان يبدو أحياناً منفصلاً عما يحيط به من الثقافة الإسلامية ، ولكن متانة الصلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتماعية كانت ركناً أساسياً من فكرة المسلمين عن نظام العالم حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة فى الإسلام ، وبالعكس ربما كان النشاط السياسى - وكثيراً ما كان - هو العلامة الظاهرة للعيان على اضطراب تمتد أصوله فى الشعور الدينى أو الحالة الاقتصادية أو أى ناحية أخرى من الحياة الاجتماعية .

وإذا عرفنا سر تكوين المجتمع الإسلامى الذى يشبه تكوين مجتمعات العصور الوسطى نكاد لا نكون بحاجة إلى برهان طويل على أن اقتحام أفكار أو نزعات جديدة على المسلمين فى أى ناحية من نواحي الحياة كان ينجم عنه غالباً - وأحياناً فى فجائية مفرقة - سلسلة كاملة من الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التى تؤثر فى مظهره الفكرى والمادى تأثيراً عميقاً ، وإن ظهور هذه الحركات بسرعة فى السنوات الأخيرة والعنف الذى قاومت به التقاليد والعادات القديمة أحدًا فى العالم الإسلامى كله حالة قلق وخرج نفسى لا نملك أنفسنا إزاءه من تذكر تلك الأزمة التى اجتازتها أوروبا إبان

حركة النهضة والأصلاح الديني وإن كان من الطبيعي أن تكون ذات مميزات خاصة بها . وإن هذا القلق لمو محور معضلة الإسلام الحاضرة ومنشأ السؤال الذي تقصد الفصول التالية أن تجيب عنه بقدر ما يتسع المقام .

ولكى نفهم كنهه الأزمة التي يجتازها العالم الإسلامى الآن ولكى نفهم كل ما للحركات الحديثة من خطورة يجب أن نرجع بالطبع إلى ما قبل ارتباطات الجيل الحاضر . وأول ما نرمى إليه فى الصفحات التالية هو أن نبرز على حدة وفى صورة صغيرة تلك الأسباب العامة التى أدت إلى هذه الأزمة وبهذا نفحص السلاح الذى تهباً للشعوب الإسلامية من طول صلتها بالثقافة الإسلامية والذى ستواجه به هذه المعضلات الجديدة . يجب أن نتبين المثل العليا التى أشربتها والمؤثرات التى صاغت فى ذلك القلب وعناصر القوة أو الضعف التى تستمد منها من ماضى تاريخها وبدون الاستئثار بضوء هذه الحقائق لا يمكن أن نقدر خطورة التطورات المحلية المختلفة حق التقدير وخطورة العوامل التى أثرت فى مجرى الأحوال فى المناطق الأربع الرئيسية فى العالم الإسلامى التى سنتناولها بالبحث فى الفصول التالية .

إن طريقة انتشار الإسلام أسبغت عليه من أول الأمر صفة الدين الغالب فى حين أن الدين ذاته لم ينشر بالسيف وجد الدعوة إليه فى ظل السيادة الإسلامية أكثر الظروف مساعدة لنشاطهم فى تحويل الناس إلى دينهم ولقد اقتنع متبعو الإسلام جميعاً بفكرة أن الإسلام دين قاهر ، وجد المتكلمون ما يؤيدها فى القرآن وجعلها الفقهاء أساساً لشرحهم الشريعة الإسلامية وقبلها الجمهور كأنها حقيقة بديهية ونظر الناس إلى انتشاره على هذا النحو كأنه تدبير من الله وأنه أكبر برهان على أنه من عنده .

ولكن عاق حركة الانتشار هذه على الدوام عقبات كثيرة من أهمها مقاومة الممالك المسيحية الأوربية ولقد حدث قبل فى حياة محمد (عليه الصلاة

والسلام) أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين وظلت كذلك حتى اليوم ولهذا ظل العالم المسيحي الأوروبي لا المسيحية عدواً لسلام الألد رغم العلاقات الودية التي كانت بين المسلمين والمسيحيين أفراداً أو بين الجماعات الإسلامية والمسيحية في ناحية ما . أمامسك المسلمين حيال رعاياهم المسيحيين فقد كان غير ذلك فهؤلاء أدوا خدمات نافعة زارعين ودافعي ضرائب وموظفين في الإدارة ونظراً لضعفهم عوملوا بتسامح غير أن هذا التسامح كان مشوباً بنوع من الافة الأرسقراطية التي أنزلتهم إلى مكانة وضيعة وكانت آخر الأمر أشد إيداء للمسلمين والمسيحيين جميعاً من التعصب الصريح التام . على أن الدولة الإسلامية ظلت بعيدة عن أن تدمج في ذاتها الرعايا غير المسلمين حتى جاء اليوم الذي أرغمت فيه الامبراطورية العثمانية على أن تذوق وبال ضيق فكرة اشتراك المواطنة في الإسلام تلك الفكرة التي ترجع إلى العصور الوسطى وتحرم غير المسلمين من حقوق المشاركة في الوطن .

على أن مثل ذلك التسامح الذي لم يخلص من شوائب السخط ما كان يمتد إلى العالم المسيحي خارج حدود « دارالسلام » وقد كانت الخصومة الكامنة حتى في وقت السلم تربي روحاً من الريبة وسوء الظن لا تقبل المصالحة ويستطيع أي حادث تافه أن يضرم نارها في أي لحظة وربما كانت معارضة الإسلام لأوربا — كما يجادل البعض — ركناً أساسياً فيه وربما كانت أحد الأسباب التاريخية للحركة الإسلامية في آسيا وأفريقية حينما أشار العرب الإشارة التي طال انتظارها لتحرير الشعوب الشرقية التي كانت تحت حكم الامبراطورية الرومانية من ظلم واضطهاد حكومة رجال الدين الأوروبية وإدارتها ومن الطبيعي أن تتوقع أن يكون العداء للعالم المسيحي على أشده في الهلال الواسع الذي يواجه أوروبا . أما على الجناح الآخر من العالم الإسلامي فقد كانت الهندوكية (Hinduism) أكبر عقبة في طريق الإسلام وكانت لذلك ألد

خصومه وحيثما كانت الهندوكية ضعيفة كما في جزر الهند الشرقية سهل اكتساحها سياسياً ولكنها في الجزء الأعظم من الهند ثبتت أمام كل الهجمات وتحينت الفرصة - كالممالك المسيحية الأوروبية - حتى أحست في القرن الثامن عشر بأن لديها القوة الكافية على أن تبدأ في رد الهجوم ومع ذلك يجب ألا نغفل أن الإسلام في المحيط الهندي ظل وثيق الصلة بالمرآكز العنصرية للعالم الإسلامي في آسيا الغربية وأنه تحت تأثيرها سرى فيه شعور ريبة من العالم المسيحي كالذى ساد في الولايات القديمة من الإمبراطورية الرومانية تلك الريبة التي ازدادت - بحق - حينما اتصل الطرف الجنوبي الشرقى من العالم الإسلامي اتصالاً مباشراً بممثلى العالم المسيحي بعد القرن السادس عشر .

إلا أن الشقة كانت أضيّق بين العالمين الإسلامي والمسيحي في القرون الوسطى حتى أنها لا تقاس بما صارت إليه بعد ذلك وكان من أسباب ذلك أن كلا من المجتمعين قام على أسس كثيرة الشبه وأن الأفكار السائدة في كليهما كانت متطابقة تقريباً وأن كلا منهما اشترك بدرجة كبيرة في جعل الدين محور نظره إلى الكون ولقد يكونان عدوين يصر كل منهما على استئصال الآخر ولكن كان كل منهما يفهم صاحبه على الأقل وكانا يتحاربان بأسلحة مادية وروحية واحدة وكان هناك سبب آخر أكبر خطراً هو التأثير الملطّف الذى أحدثته العلاقات التجارية من وراء ستار ففي هذه النقطة التقى المجتمعان لاعلى أنهما متساويان فحسب ولكن على أنهما متعاونان أيضاً وقد بذل كلا الجانبين حتى إبان الصراع الحاد في الحروب الصليبية أقصى جهده لصيانة ما كان بينهما من تجارة . وإن الموقع الجغرافى للعالم الإسلامي قد أغدق عليه فوائد اقتصادية عظيمة بفضل وقوعه على الطرق التجارية للعالم القديم كان يتحكم في المسالك البرية والبحرية جميعاً بين أوروبا وآسيا كما أن امتداده مع طول ساحل المحيط الهندي واضطلاع بحارته ومتاجريه بالأعمال مكنه من احتكار التجارة البحرية

حتى ثبوا مكانه اللائق به في حياة العالم الاقتصادية وأنشأ علاقة تجارية مزدهرة مع البلاد المجاورة يرجع بعضها إلى مبادلة غلاته الخاصة من طبيعية وصناعية ولكن الجزء الأكبر منها يرجع إلى قيامه بنقل وتلقي تجارة المحيط الهندي وكان من أثر ذلك أنه تمتع بما يمكن أن يسمى حياة اقتصادية عادية بل إنه استطاع بفضل اتصاله المنتظم بالشعوب الأخرى وثقافتها أن يظل مسافراً لها بل أن يفوقها من بعض الوجوه في تقدم الوسائل الاقتصادية والفنية وفي المدنية المادية بوجه عام .

ولكن قدر لهذه الحالة الطيبة أن يتبعها تدهور اقتصادي متواصل وقد جاءت أول ضربة للتقدم التجاري في العالم الإسلامي من داخله فقد أصبحت الصناعة ثم التجارة تحت سيطرة الحكام المسلمين شيئاً فشيئاً يبتزون منها الأموال بالوسائل التعسفية الجائرة إلى أن اختفتا بالتدريج بسبب الاحتكار وضرائب التصدير والإيراد الفادحة حتى ليخيل للإنسان أخيراً أنه لولا مطالب أوروبا وحدها لما بقي للحركة التجارية شأن يذكر ثم أن انتشار الصناعة الأوروبية كان قبل قد أغرق الأسواق حتى لم يترك مجالاً لمنتجات المصانع الإسلامية وكانت ثروة مصر في آواخر العصور الوسطى تستمد غالباً من التجارة الهندية التي تمر بها . وأما ثمانية الضربات القاضية فقد أتت من أن أوروبا اهتمت إلى أن العالم الإسلامي يمكن أن تؤخذ عليه السبل طبعياً واقتصادياً في أن واحد إذا فتح الطريق البحري إلى غرب أفريقيا والهند ولم تكن نتيجة هذا قاصرة على نزف أكبر معين للرخاء الاقتصادي ولكنه جعل العالم الإسلامي في عزلة لا يتصل بجيرانه اتصالاً ذا أثر وقضى عليه بالكساد الاقتصادي وبكل ما يصحبه من الآثار في الحياة العقلية والأدبية للامة .

وربما كان عسيراً على العالم الإسلامي لفقره بفساد الحكم الداخلي وبسبب منافسة خصومه المسلحة أن يظل قائماً على قدم المساواة مع خصمه الذي كان

تفوقه المادى يزداد كل عام . غير أن ضعفه ظل مستتراً زماناً طويلاً وراء
القوة الحرية المسيطرة للامبراطورية العثمانية وملوك العجم وحكام المغل
فى الهند تلك القوة التى حالت دون أن يحس المسلمون بما سيتبع مباشرة عن
موقفهم الجديد وإن بقاء هذه الحكومات لم يكن من شأنه إلا جعل الحصار من
الخارج أشد وطأة للعزلة التى فرضوها على أنفسهم . وبعد هذه الامبراطوريات
عن أن يصل إليها تيار الأفكار الجديدة الخصب الذى ربما كان يساعد على
مواجهة صروف ذلك الزمان المتقلبة فانها ظلت تجرى على التقاليد السياسية —
الدينية التى ورثتها عن الاسلام فى العصور الوسطى ودفعتها إلى أقصى نتائجها
وإذا رجعنا إلى البصر من موقفنا الذى نقفه فى التاريخ إلى ذلك النظام كله ألفيناه حالة
تأخر عظيم يخفيه الستار الامبراطورى ووجدنا أنه لن يقوى على المحافظة على
كيانه إلى الأبد فى عالم متقلب .

وفى تلك الاثناء سار العالم المسيحى فى الهجوم الاقتصادى بخطوات سريعة
فالشركات التجارية الأوروبية لم تقف يباغت من المنافسات الدولية عند
احتكار حمل تجارة الدنيا القديمة فحيثما كانت السلطة السياسية المحلية تدعو إلى
التدخل كانوا يحلون حكمهم المباشر عليها وبذلك بدءوا ينشرون سلطانهم
السياسى شيئاً فشيئاً على بلاد إسلامية مختلفة وبدءوا فى نفس الوقت يشقون
بالقوة منفذاً فى العالم الإسلامى لمنتجاتهم الخاصة منافسين مصنوعات البلاد
المحلية . وإن الكفاح الذى انتهى بتوطيد هولنده قدمها فى جزر الهند الشرقية
وانجلترا قدمها فى الهند لا شهر من أن يذكر ولكن الناس لا يدركون دائماً أن هذا
الكفاح جرى غالباً على حساب الدول الإسلامية ولا هم يعنون بوجه عام
عناية كافية بالتغلغل الاقتصادى الذى سار معاً رافداً لهذا النشاط السياسى وانتشر
فى مساحات أبعد مدى من تلك التى كانت هدف المطامع السياسية الأولى .
هذه الناحية من التدخل الأوروبى من الخطورة بحيث يحسن أن أقبس

شاهداً يكشف لنا عن وسيلتين مختلفتين تم بهما ذلك التدخل . لما احتل البرتغاليون هرمز في الخليج الفارسي في القرن السادس عشر قطعوا كل صلة بحرية بين الهند وفارس ليفوزوا باحتكار هذا الطريق ويقص الرحالة شاردين (Chardin) هذه الحكاية أحسن القصص : « حينما كانت تذهب أية فئة من تجار الفرس إلى هرمز طالبين إلى البرتغاليين أن يأذنوا لهم بالسفر كان رئيس البرتغاليين في هرمز يسألهم عما هم ذاهبون من أجله إلى جزر الهند الشرقية وأى نوع من البضائع يريدون أن يشتروا فإذا أجابوا قادهم إلى مخزن المدينة حتى إذا أراهم المتأذير الهائلة من تلك البضائع فال لهم : هنا ماتريدون فاشترؤه اولاً وإن بقى معكم مال أمرنا أن يؤذن لكم بالسفر إلى جزر الهند الشرقية : وبهذه الصرامة كان البرتغاليون يرغمون التجار الأجانب إما على أن يعودوا أصفار الأيدي وإما أن يبتاعوا منهم ما أرادوا من بضائع بأى سعر يرضيهم ، وقد نشأ عن هذا أن الفرس عقدوا معاهدة مع الانجليز على أن يتشاركوا في مهاجمة هرمز على شرط أن يقسموا الغنيمة وأن يسمح للانجليز بحلب بضائع معفاة من الرسوم إلى بندر عباس وأن يكون لهم نصف الضرائب الجمركية على كل البضائع المستوردة . استولوا أخيراً على هرمز عام ١٦٢٣ م . وسمح للبضائع الانجليزية بالدخول معفاة من الرسوم حسب الاتفاق ومع ذلك فقد أدخل بنصوص المعاهدة على الدوام وفي ١٦٧٠ م رفع المفوضون الانجليز إلى الحكومة الفارسية شكوى رسمية لهذا السبب . أخفقت الشكوى في بلوغ غرضها ولكن الامر كما يقول شاردين صدقا ، الحق أن الفرس ملومون في هذه النقطة لان المعاهدات يجب أن تحترم إلى أقصى ما فيها ولكن يجب أن نقر بانهم يشكرون لسماحهم للتجارة الانجليزية بالدخول في جميع أنحاء إمبراطوريتهم معفاة من كل أنواع الضرائب ولدفعهم كل عام خمسين ألف جنيه نظير خدمة كانت تؤدي قبل ذلك بخمسين عاما ويمكن أن يقال إنه دفع

لهم من أجلها حتى في ذلك الحين مبلغ أكثر مما تستحق .

وإن النتيجة النهائية للمنافسة بين الصناعات المحلية المختلة إلى حد ما وبين الجهود المنظمة للاستيلاء على السوق الشرقي لتصريف نتاج المصانع الأوروبية هذه النتيجة لم تكن محلا للريب طويلا وربما كان فتح تجارة النقل إلى أوروبا مباشرة مما بعث نشاطا مؤقتا في بعض الصناعات الوطنية ولكن جلب البضائع إلى الشرق كان لا بد مؤديا آخر الأمر إلى تأخرها أو القضاء عليها . وكان بحسب البلاد الآسيوية هذه الخسارة الاقتصادية العظيمة ولكن الأوروبيين بتشجيعهم لإخراج المواد الخام لمصانعهم الخاصة قيدوا حياة هذه البلاد الاقتصادية بالحياة الاقتصادية في بلادهم وفرضوا عليها من الضعف الاقتصادي وعدم الاستقلال ما لم تستطع التخلص منه بسهولة . لم يفلت المسلمون من الضرر الشامل ومع أنهم لم يبدوا في إدراك كل ورطات موقفهم الاقتصادي إلا منذ عهد قريب جداً فانهم لما عرفوا الحقيقة زادت بالطبع من حنقهم وعدائهم للذين أثارتهما أول الأمر أسباب سياسية واجتماعية -- دينية .

وحتى آخر القرن التاسع عشر كان هذا التدخل السياسي والاقتصادي في البلاد الإسلامية متركزاً في الغالب على الهلال الجنوبي وكان سيره بطيئاً بعض البطء ونكاد لا نرى دليلاً على أن مسلمي آسيا الغربية وتركيا كانوا متأثرين تأثراً جدياً بما يقسم لآخوانهم في الهند وأندونيسيا لأن حياتهم السياسية كانت من التدهور بحيث لا تسمح لهم بأن يهتموا اهتماماً جدياً بالحركات السياسية في أي مكان ومع هذا فإن التدخل الأوروبي بعد أن بدأ بحملة نابليون على مصر زادت خطواته فجأة في القرن التاسع عشر وأخذ يغزو الهلال الشمالي كذلك وسرعان ما تجسّد شبه السلطان المسيحي في شكل عدو المسلمين اعتداء سريعاً يكاد يكون وحشياً : وهل نعجب من أن المسلمين بجميع طبقاتهم قد شعروا بانتهاك أعظم مشاعرهم حيناً رأوا بلادهم تقع واحدة بعد أخرى

فى قبضة أعدائهم الأقدمين وحينما أدركوا أنه لولا ما بين الممالك الأوروبية من أحقاد لاختمت آثار الاستقلال الإسلامى دفعة واحدة ويجب أن نعترف أيضاً أن مسلك الأوروبيين أنفسهم والمكائنة الممتازة التى تمتعوا بها فى ظل الامتيازات وإساءة كثير من أشخاص لاخلاق لهم استعمال هذه الامتيازات كل هذه قلما كان من شأنها أن تسكن روعهم وقد أحس المسلمون — إن حقاً وإن باطلاً — أنهم أنفسهم وأن دينهم وكل عزيز لديهم يعتبر فى عين الأجنى من متعلقات مدنية منحلة مهما كانت هذه الحقيقة مستترة وراء الاختلاط الظاهرى وليس يسرنا أن نضطر إلى إعادة ذكرى هذه الحقائق ويجب علينا أن نقابلها مسرورين بأمثلة مشهورة لثبت العكس ولكن الامانة تقضى علينا أن نسلم بأن قلة الرأفة والعطف من جانب الأوروبيين كان من شأنها أن تجعل الضربة أقسى مما كان يصح .

ولقد كان مسلك العالم الإسلامى فى مجموعه حيال هذا الانقلاب الذى اعترى الأوضاع المقررة مسلماً تمازجه دهشة وحق كظيم . رأى المسلمون الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب وكان سبب ذلك أمامهم سرّاً غامضاً وحدث إلى جانب هذا ميل طبيعى من جانبهم إلى أن يزدادوا انكماشاً فى أنفسهم وأن يولوا الدخلاء أديارهم وأن يسيروا سيرتهم راجين أن تعيد الأيام الامور إلى نصابها أخيراً فكانوا بهذا يؤكدون من جديد صفة تقليدية تميزت بها الحياة السياسية الإسلامية . فنذاً كثر من عشرة قرون كان فقهاء الإسلام يلقنون الناس بمناسبة وبغير مناسبة وجوب طاعة أولى الامر سواء أ كانت حكومتهم شرعية أو مغتصبة وقد عزز القابضون على السلطة أنفسهم هذا المبدأ بطريقة مؤكدة له حتى يخيل إلينا أن الهدوء السياسى فطرى فى الشعوب الإسلامية . وإن تحمل الظلم وفساد الحكم دون شكوى : هذا التحمل الذى ملا الباحثين الأوروبيين دهشة أدى إلى رمى الإسلام بأنه عقيدة

الاستسلام والخضوع ولكن هذا لم يكن البتة أكثر من بعض الحقيقة ذلك أن الاستسلام بهذا المعنى المطلق أقرب لأن يكون نتيجة منه لأن يكون سبباً فإن الغفلة السياسية التي أظهرها جمهور السكان حيال التغيرات السياسية كانت ترجع غالباً إلى أسباب طبيعية أقواها الفقر الاقتصادي .

على أنه إذا كان الاستسلام للأعداء والخنول السياسي من المميزات التي يمتاز بها مسلك جمهور المسلمين فقد كانت في العالم الإسلامي عناصر أخرى سلكت حيال الضغط الأوروبي مسلماً يخالف ذلك مخالفة كبيرة وتأثير بواعث أخرى فقد أشفق الحكام على سلطانهم وعلى المزايا التي أغدقها عليهم وعلى حياة البذخ التي تمتعوا بها على حساب رعاياهم وعلى مالهم من عزة السلطان وخاف زعماء الدين على سلامة العقيدة . كان الخطر بيناً للفريقين وربما كان ينتظر أن يوحى إليهما أن يتحدا ويعملا معا دفاعاً عما ورثوه وكان الزعماء المسلمون السياسيون على الأقل من الحكمة بحيث أدركوا أنهم إن استطاعوا أن يعبثوا من عواطف رعيته الدينية جيشاً ينصرهم قدر واعي أن يواجهوا اعتداءات العالم المسيحي بحصن منيع ويمكن أن ترى أول دلائل هذه النزعة في نص المعاهدة التي أرغمت فيها دولة إسلامية قوية لأول مرة أمام دولة مسيحية على أن تتنازل عن الخطة التقليدية للإسلام حيال المسيحية . فقد تعهد الباب العالي صراحة بمقتضى نصوص معاهدة « كوجك قاينارجه » التي أبرمت بين روسيا وتركيا في ١٧٧٤م « ألا يعوق بأي طريقة من الطرق حرية إقامة الديانة المسيحية وألا يوضع عقبات في سبيل تشييد كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة » . قد تبدو هذه مسألة تافهة ولكن روسيا أحدثت بهذين الشرطين ثلماً في الشريعة الإسلامية التي ينما ضمنت حرية إقامة الدين المسيحي منعت في شدة وصراحة تشييد كنائس جديدة وإصلاح الكنائس

القديمة (١) وفي نفس الوقت اعترفت المعاهدة بحق ، السلطان بحكم ، أنه خليفة الدين الاسلامي صاحب السيادة ، في أن يحمي مصالح المسلمين أينما كانوا وأن يشرع لهم في حدود الطاعة الواجبة عليهم ، للقوانين التي تملها عليهم شريعتهم ، . هذا التأكيد المتكرر لمهام الخلافة وحقوقها السياسية ليتمتع بهاسلاطين آل عثمان قدرله أن يلعب دوراً هاماً فيما تلا ذلك من تاريخ العالم الاسلامي حتى أن زيادة الاسهاب فيه قليلا لاتعد مضيعة للوقت والجهد. وكانت دعوى هذه الحقوق في جوهرها رجوعا إلى دور قديم من أدوار التاريخ الاسلامي ومحاولة لصقل سلاح ونظام يصلحان للعصر الحديث بعد أن نبذا منذ قرون وإن لم يعزبا عن شرح المسلمين للنظرية السياسية وفق ما يمتازون به من محافظة على القديم .

إن الخليفة بحكم منصبه ووظيفته هو الشخص الذي يتمثل فيه السلطان الديني للشرعية الاسلامية. هو الشخص المنوط بحفظ سلطان الشريعة الأعلى من الاعتداء في الخارج والعصاة في الداخل جميعاً ولما كان الخليفة مقيداً بالشرعية فلا يباح له تعديلها أو تأويلها من تلقاء نفسه ولكنه مكلف بمهمة تنفيذ أحكامها فحسب وفي اضطلاعه بهذا العبء خول مطالبة جميع المسلمين بطاعة لاتردد فيها كالتى تجب عليهم للشرعية نفسها فنصبه إذن سياسى في جوهره ولكن الدعائم التى تقوم عليها سلطته دينية قبل كل شىء. ومن ثم كان

(١) ربما كان هذا الكلام في حاجة إلى تفصيل فلقد جاء في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع فقه حنفى ٧ ص ١١٤ مانصه «ولوانهدمت كنيسة فلم أن يبنوها كما كانت وأما في القرى أوفى موضع ليس من أمصار المسلمين فلا يمتنعون من إحداث الكنائس والبيع كما لا يمتنعون من إظهار بيع الخمر والخنازير ، . فالمنع من إحداث كنائس جديدة إنما هو الأمصار .

الزعماء والمعلمون الدينيون هم أجدر من يثق الخليفة بتأييدهم ويركن آمنا غاية الأمان إليهم ونستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه الحقيقة لم تكن عازبة عن أفهام مستشاري السلطان عبد الحميد الأول حينما وضعت نصوص معاهدة «كوجك قاينارجه» .

ولكن عوامل كثيرة حالت دون تحقيق هذه الخطة تحقيقاً كاملاً فإن الأيام العظيمة في القرن السابع والثامن حين كان يحكم العالم الإسلامي بخدافيه خليفة واحد قد تركت أثرها في المثل الأعلى للحكومة الإسلامية ولكن التباين بين المثل الأعلى والواقع صاريزداد شيئاً فشيئاً في القرون التالية فوجوب الطاعة المطلقة المفروضة على الرعية قوى في الأحكام شهوة الحكم «الأوتوقراطية» وجاء وقت انتقلت فيه السلطة «الأوتوقراطية» من قبضة الخلفاء إلى قبضة حكام ليس لهم صفة دينية وكان واجب الخضوع للسلطة القائمة لا يزال مؤسساً من الناحية النظرية على المبدأ الديني القائل بأن الحكم هبة من الله ولكن حل محل الاجلال الديني القديم الأذعان للأمر الواقع إذعانا يشوبه التذمر. واتخذ زعماء الدين بوجه خاص مسلحاً بعيداً بعض البعدين القابضين على السلطة الزمنية ولما سقطت الخلافة العباسية تحت ضربات المغل في ١٢٥٨ م ساد الرأي القائل بأن الخلافة من حيث هي هيئة ذات سلطان قد أفلت شمسها على ذلك لم تكن في العالم الإسلامي خلافة بأي معنى صحيح لهذه الكلمة مدة تزيد على خمسة قرون وانمحي على مر الزمان شعور الولاء والتقديس الذي كانت تبعثه في النفوس .

ولكن التأكيد المتكرر للخلافة (وإن أصبحت شبحاً) لم يكن في ذاته ألبتة حركة فارغة ليس فيها رجاء فإن العقيدة التي قامت عليها الخلافة وهي ضرورة الوحدة في العالم الإسلامي ظلت كما رأينا عنصراً قوياً في الفكر الإسلامي موجداً بين الشعوب الإسلامية صلة من التراحم الذي لم يفلح

الانحلال السياسى فى القضاء عليه والذى يمكن متى تولته الزعامة الصحيحة أن يكون أساساً لاستفزاز جهود عامة للدفاع عن قضية الإسلام وربما كان المأمول من المثابرة على إذاعة الدعوى العثمانية التى كانت تعززها القصة (التى يظهر أنها أذيعت حوالى ذلك الوقت) القائلة بأن آخر ممثل صورى للخلافة العباسية نزل عن حقوقه للسلطان العثمانى فى ١٥١٧ م (١) . أن تبعث ما كان يحيط بمنصب الخلافة قديماً وأن تخلع على السلطنة العثمانية ثوباً من المهابة الدينية التى تحشد تحت لوائها كل قوة الإسلام المعنوية وقوته المادية إن اقتضى الأمر لحماية ميراثه من العالم المسيحى .

ولكن تلك الخطة كانت تعوقها عقبات خطيرة متصلة فى الكيان السياسى للعالم الإسلامى بصرف النظر عن العوامل الخارجية أيا كانت . ولعل القارىء قد لاحظ أننا فى وصفنا للوحدة فى العالم الإسلامى وجهنا عنايتنا للأواصر الدينية والثقافية ولم نذكر شيئاً قط عن الروابط السياسية . ولهذا سببه الوجه ذلك أن التاريخ السياسى للجماعة الإسلامية سار على وتيرة خاصة به لم تتسق قط أوهى اتسقت نادراً مع حياتها الداخلية ولعل تناول هذه النقطة فى هذا المقام يبعد بنا عن موضوعنا وستبدو بعض الأسباب الرئيسية مما قيل فى مكان آخر من هذه الصفحات إنما الذى يعيننا الآن هو النتائج وهذه على الأقل ليست موضعاً للشك وأهم ما يعيننا ليس هو تكرار انحلال الامبراطوريات الإسلامية بل هو انقسام العالم الإسلامى تدريجياً إلى مناطق متميزة اتسعت بينها الشقة السياسية على الدوام وكان هذا الانقسام ينزع قبل سقوط الخلافة إلى فصل منطقة فارسية - تركية (تركية فى القيادة فارسية - إسلامية فى اللغة والثقافة) فى الشمال الشرقى لمنطقة عربية فى الجنوب الغربى مع تحديد الحركات السياسية

(١) يشير الى تنازل الخليفة العباسى للسلطان سليم الأول .

فى كل منها بما يتناسب مع اتساعها . وقد ازداد الانفصال فى القرون التالية حينما ساعد ضغط المغل فى الوسط على اتساع العالم الاسلامى سياسياً بامتداد المنطقة الفارسية - التركية من كلا جانبيها ولذلك كان النزوع متجهاً اذ ذاك بكل قوته الى نقل السلطة من المركز الى الاطراف أكثر مما كان متجهاً الى السعى المخفوق وراء وحدة سياسية جديدة .

وفى فجر القرن السادس عشر نشأ وضع مشؤوم بقيام إمبراطورية فارسية جديدة لم تكثف بقطع صلة الاُتراك العثمانيين بالشرق والهند ولكنها باعتناقها مذهب الشيعة ديناً للدولة حالت دون التنظيم السياسى العام من جديد . وفى نفس الوقت تقريباً ابتلعت الإمبراطورية العثمانية الجزء الاكبر من المنطقة العربية الاولى مع ما تمتاز به من خواص الثقافة العربية الاسلامية ومن ثم سارت الحدود الرئيسية اذ ذاك بين الشمال والجنوب : فى الغرب الإمبراطورية العثمانية (مع بقاء مرا كش مستقلة فى المغرب الاقصى) وفى الوسط فارس الشيعية وفى الشرق إمبراطورية المغل فى الهند وأندونيسيا وقد ظل هذا التقسيم الى أيا مانا هذه . من أجل هذا فان محاولة إيجاد خلافة عثمانية لتكوين وسيلة لايجاد وحدة سياسية أقوى تأثيراً لم يكن يرجى لها النجاح والحالة هذه إلا فى المنطقة الغربية لأن فارس وقفت حائلاً منيعاً دون أى انتشار فيما عدا ذلك

ومن جهة أخرى كان يمكن لخطة الجامعة الاسلامية أن تركز الى استفار الرأى العام مؤيداً لاغراضها وأن تأمل أن قوة الرأى العام ذاته ستنهى الى عمل منظم ولكن التقاليد السياسية للعالم الاسلامى اعترضت الطريق هنا مرة أخرى ذلك أن ألف عام من الاوتوقراطية الحقود التى تعمدت اتباع سياسية القضاء على كل أثر للنشاط السياسى بين رعاياها ، بأعنف الوسائل ، ألف عام من الاستسلام السياسى أمر المسلمون فيها باسم الدين أن يؤدوا الطاعة العمياء

حتى لحاكم فابسد الاخلاق إتقاء ضرر أكبر قد ينشا عن الحرب الأهلية والفوضى، هذه الالف عام أودت بكل الوسائل التي تعين على تنظيم الجهود العامة للدفاع عن مصالح الجميع ومع أنه أنى وقت تهيأت فيه من جديد القدرة على التنظيم السياسى وذلك بتأثير نفس العوامل التي حاولت فكرة الجامعة الاسلامية أن تجتنبها إلا أن ذلك لم يتم إلا حينما كانت فكرة الجامعة الاسلامية العثمانية تلفظ النفس الاخير. وما كانت تستطيع فكرة الجامعة الاسلامية في تلك الاثناء أن تعمل إلا عن طريق الوسائل الادارية القائمة تأتمر إتهاراً آلياً بما يصدر إليها من عل فكانت لذلك فاقدة أهم عنصر فيها وهو السير بقوتها الذاتية . وقد كان أكبر عامل مساعد لحركة الجامعة الاسلامية أن العالم الاسلامى كان في كل مكان واقفا موقف المدافع ومتلهفا على العثور على وسيلة تعينه على أن يستعيد سلطانه على مصائر أموره . وأى شيء أكثر تمشياً مع طبيعة الأشياء من أن ياتمس تلك الوسيلة أولاً في الشعور بالوحدة الدينية الذى كان على كل حال أكبر قوة مشتركة ؟ على أن حاجة المسلمين إلى التعاضد ، تلك الحاجة التي ربما كانت نفسية أكثر مما كانت مادية هي التي وضعت المظهر الدينى في المكان الأول وقد عولت فكرة الجامعة الاسلامية على مثل عليا وعواطف يألفها ويشترك فيها كل المسلمين ماعدا فرقة الشيعة وتعززها التعاليم والتقاليد الاسلامية الأولى ولولوا أن أصحابها سعوا إليها في ثبات ونزاهة في قضية الاسلام لا تشوبها شائبة ، وبخاصة لو أن زعماءها فهموا الواقع حق الفهم وكانوا قادرين على الملامة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التي كانت تحتاج العالم الاسلامى لتبين أنها ناجحة آخر الأمر ولكنها باعادتها للعالم الاسلامى احترامه لنفسه وثقته بها سلباً في رخاء اقتصادى جديد لا في انعاش سياسى مخسب وربما كان يسرى في رسالة البرنس مترنخ ، المشهورة التي بعث بها إلى المصلحين الا تراك الاولين ، روح من التهمك أقل وبعد نظر صادق أكثر مما

نسب لها أحيانا : « أقيموا حكومتكم على أساس احترام أنظمتكم الدينية التي هي دعامة وجردكم دولة قوية ، سايروا الزمان وابحثوا عن مطالبه ، أدخلوا النظام في إدارتكم وأصلحوها ولكن لا تقبلوا أوضاعها بأن تستبدلوا بها الأنظمة التي لا تليق بكم والتي تعرض الحاكم لعار الجهل بقيمة ما يتلف وما يحل محله . . . تنصح للباب العالي ألا يقلد الدول التي يتعارض تشريعها الأساسي مع عقائد الباب العالي وأن يتحاشى في عناية إدخال الإصلاحات التي ليس من شأنها إلا تفكيك عرى الوحدة في البلاد الإسلامية لأنها ستكون في هذه الحالة صفراً من كل قوة منشئة منظمة . »

والواقع أن فكرة الجامعة الإسلامية رغم عدم تواربها عن الأنظار ورغم أن أنصارها سعوا لها الفينة بعد الفينة طول القرن التاسع عشر حتى بلغت ذروتها في حكم السلطان عبد الحميد الثاني قدر لها أن تحطم على صخرتين أولاهما أخلاق الأشخاص الذين ادعوا الخلافة ومطامعهم وفساد إدارتهم ولسنا بحاجة أن نقول في هذا الصدد أكثر من أن داعية الحركة الإسلامية كبرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهو السيد جمال الدين الأفغاني كان صريحاً في فضح الاستبداد والحكم الفاسد اللذين وجدتهما سائدين في الممالك الإسلامية المستقلة ولم يكونا أقل سيادة في الإمبراطورية العثمانية غير أن المثل الأعلى لفكرة الجامعة كان مغرياً جداً وكانت المصالح والعواطف التي أهاب بها من القوة بحيث أن الفكرة أمكنها أن توظف شعوراً يعطف عليها في كل جزء من الأمة الإسلامية. وإنه وإن كانت الفكرة قد قوبلت بأعظم الحماس لدى الذين لم تكن لهم خبرة شخصية بحكومة الإمبراطورية العثمانية ولا سيما لدى مسلمي الهند الذين شعروا بعد سحق أسرة المغل بالحاجة إلى التأيد الخارجي أمام خطر النهضة الهندوكية ، فقد كان من نتائجها إيقاظ الشعور بالوحدة الإسلامية من جديد وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل حتى ذلك الوقت وإن تكوين فرق «الهلل الأحمر»

الطبية للخدمة مع الجيش التركي وإنشاء سكة حديد الحجاز بمال اكتتب به من كافة أجزاء العالم الإسلامي كانا دليلين حسيين كافيين على إثبات نجاح الدعاية العثمانية وقد لانكون مبالغين إن زعمنا أن التأثير النفسى للحركة يكاد يشاهد فى كل ماتلا ذلك من حركات فى المجتمعات الإسلامية حتى حينما كانت أغراض هذه الحركات غير ملتزمة تمام الالتئام مع السياسة الدقيقة لفكرة الجامعة الإسلامية لأن هذه الفكرة من جهة أنها وضعت للعالم الإسلامى برنامجاً محكماً كانت تسعى وراء أغراض رجعية استبدادية وهنا توجد نقطة ضعفها الأساسى فى عصر كانت القوى موزعة فيه كما كانت فى القرن التاسع عشر . ولكن أى حركة فى تلك الناحية الرجعية كانت قد أصبحت مستحيلة ومهما كان المسلمون جاهدين جادين فى إستبعاد الأفكار الجديدة ناشطين فى معارضة إنتشارها فقد كانت غاية سعيهم مقضيا عليها بالفشل وخيبة الرجاء ذلك أن التفوق العقلى والمادى لاوروبا الغربية — إذا صرفنا النظر عن تفوقها الاقتصادى — كان من القوة بحيث لم يكن بدمن أن يشق طريقه فى حياة الأمة الإسلامية رغم كل مقاومة وعلى ذلك قدر لفكرة الجامعة الإسلامية أن يكون مبدؤها السياسى عنصراً مضعفاً وباعثاً على التنافر أكثر من أن يكون عاملاً مقوياً على الاضطلاع بأعادة تنظيم مظهر العالم الإسلامى وتحقيق أمانيه . وقد كانت هذه فى الواقع هى الصخرة الثانية التى تحطمت عليها فكرة الجامعة الإسلامية . ففى نفس الوقت تقريباً إبتدأ تيار من الفكر مضاد لها وأخذ يشق طريقه فى العالم الإسلامى وأخذت فكرة جديدة تلقى قبولا متزايداً بين الزعماء السياسيين فى مصر وتركيا وأولا وفى البلاد الأخرى بعد ذلك وكان أساس تلك الفكرة هذا السؤال : كيف تسنى لاوروبا أن تسبقنا فجأة فى كل ميادين النشاط الانسانى — فى تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية وفى العلم وقوة الاختراع وفى كل العوامل التى تحفظ تماسك الأمة وتقوى

إرادتها وبحثوا فيما حرلهم عن الجراب وحسبوا أنه ربما يكون فى الأنظمة السياسية والحرية للغرب وفى تنظيم التعليم . على أنهم سخطوا من الزعم الشائع بين أهل العلم فى أوروبا وهو أن السبب الأكبر لتقهقر الشرق دين لايساير التقدم واعتقدوا مخلصين أن المسلمين يمكنهم أن يظلوا على إسلامهم ويمكنهم مع ذلك أن يصلحوا أنظمتهم حتى تتلاءم مع تقاليد وحاجات العصر الحديث ، فلم يكن المثل الأعلى الذى وضعه المصلحون نصب أعينهم انقلا بافى المبادئ والأخلاق والأنظمة الاجتماعية بل أن يقتبسوا من المظاهر المادية لحياة أوروبا السياسية وتنظيمها الفنى ما يعيد للدول الإسلامية القوة والرخاء وكان هذا هو الغرض الذى سعى إليه ساسة الترك بحظوظ مختلفة من التوفيق فيما بين ١٨٣٩ ، ١٨٧٨ م وسعى إليه محمد على والحديوى إسماعيل فى ناحيته الحرية والاقتصادية فى مصر ولكن فيما يختص بالتنظيم السياسى والاقتصادى أعنى فى النواحي التى اتجهت إليها الهمم أكثر مما اتجهت لغيرها كانت النتيجة فشلا ذريعا فقد ظهر الاستبداد حينما اعتلى عبد الحميد الثانى عرش تركيا أرسخ قدما منه فى أى عهد سابق ولم تأت سنة ١٨٧٨ حتى كانت الحالة الاقتصادية فى كل من مصر وتركيا أسوأ بدرجة لا تقاس بما كانت عليه قبل ذلك بخمسين سنة . وأول سبب لهذا الفشل أن المصلحين لم ترك لهم الفرصة الملائمة فمن أول الأمر وقف فى طريقهم برنامج الجامعة الإسلامية منافسا وظل السلاطين ورجال الدين يؤيدون الأساس الشرعى الذى تقوم عليه فكرة الجامعة الإسلامية حتى حينما كان المبدأ السياسى لتلك الفكرة يوضع فى المحل الثانى ، ومعنى هذا أن السلطات العليا كانت ترغب عن أى عمل قد يسلبها تأييد جمهور الرأى العام الإسلامى ولسوء الحظ كان الرأى الإسلامى كما يقوده رجال الدين ويترجمون عنه معاديا لأى تدابير يتخذها المصلحون أمر العداء فإن أريد إلغاء الرق قيل إن الشريعة الإسلامية تفره وإن أريد إقامة المساواة فى

المسكاته بين جميع الرعايا قيل إن الشريعة تُصر على تبعية غير المسلمين وإن
أريد إصلاح إدارة القضاء قيل إن الشريعة لا تسمح بأى قانون سواها ، وإن
أريد إنشاء أنظمة نيابية قيل إن الشريعة لا تعرف شيئاً من هذا ولا تسمح
بحق التشريع وهكذا واجه المصلحون فى كل موضوع رفضاً باسم تعاليم
الإسلام المقدسة فكانت الاجراءات التى أدخلوها قهراً عديمة الأثر من أول
الأمر لأن المقاومة التى واجهتها منعتها بالفعل من أن تؤدى عملها ، وعلى الأقل من
أن تؤديه كما أريد بها وبهذا وقف كل حزب فى طريق برنامج صاحبه وحال
دون تحقيق مثله العليا تحقيقاً عملياً ، وعلى بعد تركيا من أن تسترد شيئاً مما
ضاع منها فانها فقدت كلا الناحيتين وإن خيل للناس فى آخر القرن التاسع
عشر أن برنامج الجامعة الإسلامية قد فاز على منافسه .

ولكن النصر حتى فى ميدانه الضيق (لانه أخفق فى بلوغ النتائج
السياسية التى كان ينتظر منه أن يبلغها) قدر له أن يكون قصير الاجل ، فقد
كانت هناك قوة مخربة تأكل قلب المجتمع الإسلامى على حين غفلة من
المسلمين المحافظين ومن حزب الإصلاح السياسى أيضاً رغم أنها
وليدة حركتهم . رأينا أن المصلحين جعلوا التعليم إحدى دعائم برنامجهم
وقد نفذت هذه الخطة ببطء فى مصر أولاً وبعد قليل فى تركيا ، وإن كان نصيب
التعليم الابتدائى (ولو أن ذلك أفاد أيضاً إلى حد ما) أقل من نصيب التعليم العالى
والفنى للصناعات ولتدريب الخبراء الحريين والاقتصاديين وضباط الإدارة . وإن
طبيعة هذه المؤسسات (كمدرسة الطب المشهورة فى القاهرة) تظهر بوضوح تحيز
المصلحين للنواحى العملية والمادية من التعليم الأوروبى ولكنهم وقد تقدموا
الخطوة الأولى لم يكن فى طوقهم وضع حد لما قد ينجم من النتائج فكيف
يمكن تموين هذه المدارس بالأساتذة ؟ بديهى أن تمون بالأساتذة الأوربيين
أو بالمتعلمين فى أوروبا ، ورغبوا بطبيعة الحال فى أن يدربوا أساتذة من عندهم

وبهذا أوسع المجال للمؤثرات التي كانوا يرجون تجنبها وزادوا في قوتها. فليس هناك طالب ذكي يقضى ثلاث أو أربع سنين في عاصمة أوزبكية مختلطا بأهلها كل يوم وقارئاما يكتبون خيردوشره من غير أن يشرب في نفسه شيئا أكثر من قشور المدينة الغربية. ثم عاد الطلبة أفراداً وبعوثاً لابتداسات فنية فحسب ولكن بجرائيم الأفكار الياسية بل بجرائيم العادات الاجتماعية أحيانا — مما كان متضارباً مع تقاليدهم الموروثة. وقد كان الأثر في مجموعة ضعيفاً في الجيل الأول ولكنه تضاعف في الجيل الثاني وظل يتضاعف باطراد. وبما فشلت حركة الإصلاح في أول هجرها على حصن من السلطة المطلقة والتقاليد الإسلامية ولكنها تركت مهمتها عن غير قصد إلى خصم أقوى وأشدّ عداءاً للتقاليد :

وإذا رجعنا البصر من هذه المسافة أمكننا أن نعين بالضبط نقطة ضعف المصلحين الأوائل والسبب الأكبر لفشلهم، ذلك أنهم لم يدركوا أن الأنظمة الغربية التي رغبوا فيها ليست مجرد معالم تنظيم ظاهرية، وفاتهم أنها تعبير عن فلسفة خاصة تقوم على عادات قومية في التفكير نصجت ببطء خلال القرون لتواتي حاجات وغايات نظام اجتماعي متباين النواحي، لم يدركوا أنه بينما كان بناء المجتمع الإسلامي قائماً على آراء العصور الوسطى وبينما كانت نظراته للحياة متأثرة بمنازع تلك العصور كانت أوروبا قد تحررت نهائياً من أغلال العصور الوسطى، ولم يدركوا أن المدينتين اللتين كانتا يومئذ متشابهتين تشابهاً عظيماً رغم الخصومات الدينية قد اتسعت بينهما الشقة تدريجياً حتى أن العناصر والأصول المشتركة أصبحت فيما يظهر تافهة إذا قورنت بالفروق بينهما، ثم نسوا فوق هذا أن الأنظمة لن تؤدي عملها إلا إذا كان اتخاذها مؤيداً برغبة الأمة وأن هذه الإرادة الجماعية ثمرة لتربية وطنية بأوسع معنى لهذين اللفظين ولعلهم قد أضلّتهم الثورة الفرنسية بمفاجأتها الظاهرة وبالغف الذي بدا لهم أنها حطمت به أنظمة قديمة واستبدلت بها مجموعة من الأنظمة

الجديدة وربما ظنوا أن الخمول السياسي الموروث في الأمم الإسلامية سيسمح
بفرض أنظمة جديدة دون شديد مقاومة ومهما يكن السبب فانهم أخطأوا، ذلك
أن أنظمة الغرب السياسية والاقتصادية لا يمكن أن تنقل وتنجح أى نجاح إلا
إذا شعر الناس أنها تفي بحاجة ولا بد أولاً أن يمهدها السيل بنظام في التعليم
يتفق معها ويستطيع أن يخلق الحاجة اليها ويكون في نفس الوقت رأياً عاماً
مستيراً راقياً يمكن أن يوكل اليه استثمار الأنظمة الجديدة ولكي يتفق مثل
ذلك التعليم مع الأنظمة الجديدة لم يكن في طوقه أن يتفادى إدخال نظرة
جديدة في الحياة وفلسفة جديدة تشبهان تينكم اللتين أوجدتا الأنظمة نفسها .
وقد أحدث هذا قطع صلة بالماضى قطعاً أخطر كثيراً مما خطر على بال
المصلحين الاوَّلين ذلك أن المساميين المحدثين يمكن أن يظلوا على دينهم
ولكنهم لا يستطيعون أن يظلوا مشاركين لأخوانهم المحافظين في آرائهم عن
تكوين المجتمع ومكان الدين فيه وفي تلك الأثناء بينما كان الخمول السياسي
قاضياً على ماتعمله الإصلاحات على أى حال فدادمت مقاليد التريية السياسية في
أيدي خصومها الرجعيين لم يكن ممكناً أن تنال أى تأييد من الرأى العام .
وبالاختصار فإن خطأ المصلحين هو أنهم حاولوا البناء من غير وسائل البناء
وظنوا أن الناس يمكن أن يحشدوا للقيام بواجبات الوطنية كما يحشد الجند من
غير مبالاة بعقائدهم وآرائهم ونسوا أن الصورة المادية الظاهرة لا يمكن
انتزاعها عن الباعث الروحى فى الصميم .

ولقد ترك فشلهم الطريق مفتوحاً أمام وسيلة لتناول الأمور تكون
أكثر إيداناً بالنجاح إن الإصلاحات الاجتماعية لا تنجح إذا فرضتها أوامر
السلطة العالية كيفما اتفق ولا يتسنى لأحد أن يأمل فى بلوغ نتائج دائمة إلا إذا
كان إدخال الإصلاح إستجابة لالحاح مستمر من الرأى العام والواقع أن
السير المشوب بشئ من عدم الانتظام فى هذه الناحية صفة يمتاز بها العالم

الاسلامى فى عشرات السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر. رأينا كيف أن
 التعليم الفنى تحت رعاية المصلحين كان يربى بالتدريج فى طبقة متميزة من
 أصحاب المهن الفنيين ميلا إلى الاخذ بوجهة نظر الغرب ولكن هذا فى ذاته
 كان قليل الاثر فلأنهم نشأوا فى ظل نظام التعليم القديم وفى الجو الاجتماعى
 القديم كان ميلهم إلى الأنظمة الغربية ضئيلا . وإن إدخال طرائق جديدة فى
 الفكر كان يتطلب نظاما جديداً فى التربية من عهد الطفولة — فى المدارس
 الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية والفنية . أما إن هذا النظام
 شئ مرغوب فيه فى نهاية الامر فمسألة أخرى لاتعنينا الآن . وعلى أى حال فإن
 إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن فى ذلك الوقت يخطر على بال السلطات
 المدنية الإسلامية ولو أنها أرادت لما استطاعت تنفيذه أمام مقاومة رجال الدين
 وبسبب قلة وجود الأساتذة . ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى فقد
 انتشرت من منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس فى معظم
 البلاد الإسلامية ولا سيما فى تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالبا إلى
 جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة . وربما كان أكثرها عددا المدارس
 الفرنسية : كاثوليكية وعلمانية ثم تليها المدارس الأمريكية والإيطالية واليونانية
 وقد كانت المدارس الانجليزية فى الامبراطورية العثمانية أقل منها فى الهند وكانت
 المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية ومها قيل عما بين هذه
 المدارس من منافسات ورغم ما ترمى به من نزعة حزبية ضيقة وصبغة طائفية
 ورداءة تربيتها فى كثير من الأحيان فإنها أثرت تأثيراً عظيماً فى العالم
 الإسلامى . كان تعليمها أرقى من كل ما يعطى فى غيرها ولهذا كان يدخلها عدد
 عظيم من أبناء الطبقتين العليا والوسطى سواء فى ذلك البنون والبنات . هذه
 المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم والاهم أنها علمتهم اللغات
 الأوروبية التى جعالت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبى

فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فغلها أيام الطفولة . وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بانماء التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزى في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس الانجيزية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التي أعقبت ذلك في البلاد الانجليزية أيدت هذه التهمة ، ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الانظمة الاجتماعية وعلى السياسية إلى حد ما في أوطانهم الأصلية ، وباضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الانجليزية القديمة على التلاميذ أدخلت في بناء المجتمع الاسلامى أداة هادمة وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه .

أما المسلمون المحافظون فانهم ، تمشياً مع وجهة نظرهم ، عارضوا هذه النزعات لا لمجرد أن نشر التعليم الغربى كان معناه إفلات القوة التي استأثروا بها طويلاً من قبضتهم ، فالذين أدركوا منهم أن الاسلام كل لا يتجزأ من الانظمة الاجتماعية والسياسية والدينية لم يملكوا أنفسهم عن أن يظاؤا على أشد العداء للذين ، بتخليهم عن عاداتهم واحدة إثر واحدة ، قد برهنوا على تحررهم من ثقافة العالم الاسلامى الثالثة وظهروا في مظهر من يتهدد كل شىء حتى الاسلام نفسه ، وكثيراً ما كانت معارضتهم تدور فيما يبدو حول مسائل تافهة كما حدث أن أحد أساتذة الدين كان في أواخر القرن التاسع عشر يشرح القرآن لطائفة من شبان المسلمين المثقفين ثقافة انجليزية ، ففسر إحدى الآيات الكثيرة التي تصف كيف سيقذف بالفاسقين في النار فقال : « الفاسقون هم الذين لا يؤمنون بالله ، هم الكذابون والزناة واللصوص والقتلة والذين لا يحفون شواربهم ، وحوالى ذلك الوقت نفسه كان واعظ مسلم متنقل يعظ الناس في مدينة دلهى فاعترض على بعض ما قاله طالب هندي شاب بعد أن أصغى اليه فقاطعه الواعظ قائلاً : « لا يحق لك أن

تتكلم فى هذه المسائل لآنك لست مسلما ، فأجابه الشاب فى شىء من الحماسة
« انى مسلم مثل ما أنت مسلم » فقال الواعظ « لا ، انك لست مسلما فانظر
إلى سراويلك » وكانت منسدلة الى ماتحت الكعبين على خلاف عادة
المسلمين المتطهرين .

ولكن مثل هذه الامة — على كثرتها — ستضلنا أبعد الضلال إن
رمينا هؤلاء الناس من أجلها بالجود المسرف ، فانها لاتدل على عقل عاجز عن
التمييز بين الجوهرى وغير الجوهرى بقدر ماتدل على عقل شديد الاخلاص
لميراث الاسلام مفرط فى الاعتقاد بقداصة أصل أنظمتة حتى أن مخالفة
أقل أمر من أوامره معناها رفض جزء من نعمة الله ، ولنحذر من أن نعد هذا
تعلقا بالسفاسف فان الامام الغزالى وهو أسلم فقهاء الاسلام فى العصور
الوسطى نظراً وأشدهم نفاذاً فى حقائق الامور لم يأنف من توجيه أكبر
العناية لهذه الدقائق فى الناحية العملية ، وقد رأى المحدثون من أنصاره
مخلصين مثله لمبادئهم أن إهمال هذه الاشياء هو الشرارة التى تندلع منها
النيران وإنى أكرر القول أنهم من وجهة نظرهم كانوا على صواب فان
الاخذ بالشك والاجتهاد بالرأى لم يكونا بحاجة إلى أكثر من أن يُشرع
فيهما وأين سينتهى ذلك ؟ إن رفض الامور الصغيرة علامة على ثورة
فكرية ليس من شأنها إلا تحطيم صرح الثقافة الاسلامية التالد من أساسه
تحطيمها شاملا ، بل ربما تؤدي إلى شن الغارة على الدين الاسلامى نفسه
ولنتذكر بعد كل هذا أن كل العواطف التى نقرنها بحب الوطن كانت عند
هؤلاء اناس محكمة الصلة ببناء المجتمع الاسلامى وأنه لم يسعهم إلا أن
يعتبروا محقين إلى حد كبير أن ضعف هذا البناء انتصار حاسم لقوى أوربا .
وقد كان اشتداد هذا التنازع فى المجتمع الاسلامى وزيادة حدته من
أهم ما يميز حياة الشعوب الاسلامية أثناء الجزء الثانى من القرن التاسع

عشر كما رأينا ومع ذلك يصعب أن نضع حدوداً تاريخية لتأثيره : كان من أول النتائج التي نجمت عنه أنه زعزع تلك الفكرة القديمة ، فكرة أن العالم الإسلامي توحده ثقافة واحدة وتسيطر عليه تقاليد واحدة ، حقاً لقد بقيت رابطة العطف والماضي المشترك والعقيدة المشتركة ولكن امتزاج الأفكار المأخوذة من الغرب بدرجات متفاوتة كان قد بدأ ينزع إلى تمييز كل مملكة عن الممالك الأخرى ، فقد صار لهذه الأفكار في بعض البلاد سلطان يمكنها من تعديل الأنظمة القديمة تعديلاً عظيماً وقلب وجهة نظر المفكرين أما في البعض الآخر فلم تكن قد عرفت بعد ولم يأت آخر القرن التاسع عشر حتى كان من المحتمل أن ينجح إقليم أو إقليمان في التغلب على هذا الكفاح ولكن لا تزال هناك بلاد إسلامية لم تبلغ هذه الأفكار فيها درجة من القوة وقد مال الباحثون المعاصرون بطبيعة الحال إلى اعتبار أن تفاوت الثقافة في البلاد الإسلامية والكفاح بين المصلحين وأنصار التقاليد علامة على انحلال يهدد الوحدة الإسلامية وعلى أن الثقافة الإسلامية الثالثة لن تسال أكثر من البقاء في بعض بلاد وصفوها بأنها « متأخرة » ونستطيع أن نرى مقدماً أنهم كانوا متسرعين في استنباط هذا الحكم ولكن كان ولا يزال صحيحاً أن المعضلة المشتركة بين المسلمين جميعاً قد صارت في المحل الثاني إلى حد كبير بسبب نشوء سلسلة من المعضلات المحلية الخاصة واجهت كل إقليم على حدة وبسبب أن حل تلك المعضلة لا بد أن يسير مع حل المعضلات المحلية جنباً لجنب :

وعلى هذا فالتألم نعد قادرين على بحث العالم الإسلامي في جملة بل لا بد أن نوجه عنايتنا للبلاد الإسلامية كل على حدة ولمسلك كل منها على انفراد إزاء تيار الاستغراب . ولقد يكون مستحيلاً في هذا المقام أن نتبع بتفصيل مجرى الحوادث في كل إقليم ولا سيما أنها ليست سواء في ظروفها

بالنظر للمعضلة التي نعالج الآن . ومن هذه الوجهة نستطيع أن نفرق بين البلاد التي كانت تحت الاشراف الأوروبي مباشرة وبين التي كانت مازال مستقلة في كيانها السياسي لأن الأخيرة كانت فيما يظهر أوفر نصيباً من حرية الاختيار ولأن الأولى كانت ترغبها الظروف على أن تقبل المدنية الأوروبية إلى حد ما على الأقل . ولكن هذه التفرقة ليست في الواقع قائمة على أساس جوهري لأن الحيدة التي التزمها الحكومات الأوروبية إزاء الامور الدينية والاجتماعية جعلت كل جماعة إسلامية تواجه المعضلة بطريقتها الخاصة ووسائلها الخاصة ما عدا استعمال القوة بالطبع ، على حين أن الضغط الواقع على البلاد المستقلة من جهة أخرى وهي تحاول صيانة استقلالها (أو استعادته كما في مصر) أرغم الكثير منها على اتخاذ إجراءات إن لم تكن على الدوام قد أحسن فهمها أو تنفيذها فقد أدت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى روح غريبة أكثر تطرفاً مما بدا في البلاد التي تحت الاشراف الأوروبي . إن المعيار الصحيح الذي تقاس به أهمية البلاد الإسلامية بعضها بالنسبة إلى بعض هو مقدار تأثير كل منها في الفكر الإسلامي في مجموعه . فالبلاد النائية المترامية على الجانبين كان نصيبها من هذا ضئيلاً والمغرب - رغم ما يربطه بمصر من أواصر كثيرة - نهج طريقاً خاصاً به كما أن مشا كل أندونيسيا الخاصة بها والتي ستدرس درساً وافياً في موضعها لم تحرك العالم الإسلامي إلا قليلاً ومن جهة أخرى فإن الهند شاركت بنصيب مبتكر ووصف في الفصل الرابع وسنمنه هنا بقدر ما كان مثلاً تحتذيه البلاد الأخرى . وكذلك الأمر مع مسلمي روسيا وآسيا الوسطى فانهم كونوا جماعة قائمة بذاتها لم يصر لها بعض الشأن إلا في السنوات الأخيرة . ولكن قلب الإسلام كان دائماً ولا يزال في الكتلة الوسطى التي تتكون من تركيا ومصر وآسيا الغربية وقد كان من هذه البلاد أكثر من سواها أن انبعثت أهم المثرات الإسلامية الحاضرة ومن ثم

فلها يجب أن نكرس أكبر عناية الآن .

وقد كان أظهر ما يبدو في هذه المنطقة حتى العقد الأول من القرن الحالي تلك الهوة السحيقة التي بين النزعة الغربية العظيمة كما تبدو في مصر وكما تبدو بدرجة أقل في تركيا وبين النزعة المحافظة المقترنة بالتأخر الثقافي في البلاد الأخرى ، فأما داخل سوريا والعراق وفارس والافغان فإنه ظل تكاد لا تمسه موجة الاستغراب ، وأما في جزيرة العرب نفسها فقد طغت النزعة المحافظة حتى نشأت عنها ثورة رجعية مفرطة لم تقتصر على اطراح الأفكار الغربية الجديدة قبل دنوها ولكنها نبذت كل آراء العصور المتوسطة التي دخلت في تراث الاسلام واعتبرتها من سقط المتاع ونشطت في الدعوة إلى الرجوع لآراء المسلمين ومثلهم العالين في الصدر الأول وقهرت الناس على ذلك ، فظهرت الوهاية في مظهر المعارض على خط مستقيم لكل النزعات التي كانت سائرة عندما في البلاد الإسلامية الأخرى وظهرت كأنها منعزلة بحكم ظروف تطورها وتاريخها ، وأنها حركة لا يمكن أن يكون لها مستقبل سوى ما يكون لفرقة دينية في بلاد العرب . حقاً لقد اعتبرت جهداً ضائعاً ولم يستطع أبعد الباحثين نظراً لافى العالم الإسلامى ولا فى خارجه أن يتكهن بالدور الذى كان لها أن تلعبه فى الفكر الإسلامى فى سنوات قليلة .

وبفضل الدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية ظل العالم الإسلامى طويلاً يرى فى تركيا الزعيم الطبيعى للإسلام ، وأصعب من ذلك أن نحدد متى تقدمت مصر إلى مكان الزعامة . إن وراء كل منهما ماضياً طويلاً بعض الطول أخذنا فيه بحضارة الغرب ولكن مع اختلاف فى الخصائص والنتائج فى كلا البلدين فأما فى تركيا فإن الأخذ بحضارة الغرب كان أضيق مجالاً ورغم أنه قد تغلغل فيها بقدر ما تغلغل فى مصر فقد كانت فكرة الجامعة الإسلامية المتنافسة له عقبة دائمة فى سبيله ، وأما مصر فكان الأمر فيها على

العكس ، ذلك أن ميول الجديوى إسماعيل إلى صبغ البلاد بالصبغة الأوروبية عززت النزعة الغرية بعض التعزيز وهذه النزعة بما نالت من حرية أوسع في ظهورها كانت أو فرحظاً في الناحية الأدبية والتعليمية ولم يكن حظها في ميدان الحياة السياسية إلا قليلاً ، أما السواد الأعظم في كلا البلدين فإنه كان لا يزال غارقاً في عاداته القديمة . ولكن في مثل هذه الحركات — وهذه مسألة تحتاج لشيء من التأكيد والتكرير — إنما نعتد بالزعماء . وأكثر ما يدهشنا من معالم النزعات الجديدة إنشاء أدب جديد فيما بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ وأكبر من ذلك إنشاء صحافة تذيع الأخبار ولكن بينا كانت الرقابة شديدة على الصحف التركية وكانت الصحف الهامة ذات صبغة رسمية أو أبوافا مأجورة لفكرة الجامعة الإسلامية كانت الصحافة المصرية مستقلة في الغالب عن الحكومة وكانت آراؤها مجعدة قوية التجديد حتى استطاعت أن تكون عضداً قويا للزعماء الاستغراب في كفاحهم لاستنفار الرأي العام إلى جانبهم .

على أنه بينا كانت الصحافة باستثمارها وإكمالها للتقدم العام في التعليم هي العامل الأكبر في إذاعة الأفكار الغرية في الجمهور كان هناك عامل يفضلها كثيراً في قوته على التأثير في الحياة السياسية للبلاد الإسلامية المستقلة . أشرنا في بحثنا لبرنامج الجامعة الإسلامية إلى أنه مهما قوى ميل فريق من الناس إلى خطة ما فإن هذا الميل لا ينقلب محاولة فعلية يتضافر فيها الجميع إذا كانت قدرة الناس على تحقيق ما يشعرون به بطريقة مثمرة منظمة قد تلاشت من عدم استثمارها ، وقبل أن توتى الحركة التعليمية ثمرأ دائماً كان لابد من معالجة هذا الضعف بتمرين الناس على تنظيم الجهود لتحقيق الغايات السياسية والثقافية ولكن عاملاً واحداً صان دولاب العمل من أن يتطرق إليه الفساد ، ذلك هو الجيش ، وأول ما أدخلت الناحية الفنية من المدنية الغرية كان في الجيش ، في مصر وتركيا وفي فارس بعد ذلك وإن اتخذ أساليب وآلات

الحرب الأوروبية وتدريب الجند على النظام الأوروبي في الأعداد الحربي انتهى بجعل الجيش أكثر عناصر الحياة السياسية تأثراً بالنزعة الأوروبية وبأن جعل لضباط الجيش كلفة راجحة في أى حركة ترمى إلى إصلاح الهيئة السياسية وإذن فلا عجب أن نرى المصلحين الأولين وقد عيل صبرهم من فداحة عبء تنظيم الرأى العام يتطاعون إلى الجيش ليعينهم على تحقيق أغراضهم ولا عجب أن نرى ضباط الجيش أنفسهم يأخذون بحظ عظيم في تأييد الإصلاحات ومن جهة أخرى فصحيح أن إدخال فن الحرب الأوروبي أحدث نتائج هامة تمثلت في تنظيم مؤسسات اجتماعية أخرى على الطراز الأوروبي كالمستشفيات والمدارس الفنية والأعمال الصحية غير أن مثل الإصلاح العاليا التى تملك نفوس رجال الجيش كانت سطحية وكانت أضيق مجالاً من نظائرها عند الطبقات المثقفة ثقافة أوروبية كما أن وسائلهم كانت أكثر عنفاً وأشد تعسفاً .

وعلى هذا ففى كل من تركيا ومصر كانت المحاولات الأولى فى سبيل الإصلاح السياسى تنتهى بثورة يقوم بها رجال الجيش ولكن الغايات الأولى ووسائل العمل والنتائج كانت متباينة فى كلتا الحالتين ففى تركيا ارتد النجاح الذى أحرزوه أول الأمر فشلاً ووقفت حركة التقدم ثلاثين سنة بسبب حيل عبد الحميد الثانى ، ولكن انتصار الاستبداد وما صاحبه من قمع جعل الجيش بؤرة للاضطراب السياسى أكثر منه فى أى عهد سابق حتى أن ضباط الجيش لعبوا الدور الأكبر فى كل التطورات التالية فى تركيا وحتى أن هيئة كالأحزاب المنظمة ذات البرامج السياسية والثقافية الناشئة فى البلاد الإسلامية الأخرى لم تفلح فى توطيد مركزها إلى جانب الحزب الحربى القابض على أعنة الأمور . وكان لهذا أثره فى طبيعة حركة الإصلاح التركى فهو من جهة جعل سيرها عنيفا غير منتظم ومن

جهة أخرى حال دون إنشاء هيئة منظمة تتضافر فيها عوامل الإصلاح القوية على الاتفاف بما ينال من نجاح حتى يكون أساسا لتقدم مطرد وفي هذه الظروف لم تكن الحركة التركية—حتى قبل عصر القومية—إلا مجرد حركة وطنية أو محلية في مداها وهي بينا ضربت مثلا ترتضيه البلاد الإسلامية الأخرى أو تنكره لم يكن عندها ما يعين تلك البلاد على حل معضلاتها الخاصة التي كان محورها الأول علاقات الإسلام بالقوى الجديدة الآتية من الغرب .

وقد نجت مصر نفسها من مثل هذا المصير بكل مشقة فقد أفلحت هنا—مصر— حركة حرية مدة من الزمان في نيل تأييد المصلحين الدستوريين بل في نيل معاضدة المحافظين من زعماء الدين ونجحت في إثارة بركان من الشعور الوطني ضد تركيا أولا وضد التدخل الأوروبي بعد ذلك . ولعل من العيب أن تنكهن بالنتائج النهائية التي كانت تنشأ عن الثورة التي قادها عرابي باشا ولكن لا يتصور العقل أنها كانت تؤدي إلى نتائج مثمرة كالتى جعلت لمصر نفوذها البارز في العالم الإسلامي اليوم ومهما يكن إخماد الثورة وإقامة الإشراف البريطاني وصمة سياسية في ظاهر الأمر فإنهما في الحق جعلتا حركة الاستغراب تتسع وتعمق مجاريها وصارت القاهرة ماتتقى كل القوى الشيطنة في العالم الإسلامي وميدان التنازع للغلبة تحت يد المندوب السامي المصرفة وعينه الساهرة التي لم تكن دائما تفهم حقيقة الأمور وكان لمصر من الأثر وهو المعهد الوحيد للتمكن في الدراسات الإسلامية العالية والذي يجتذب طلابه من جميع أصقاع العالم الإسلامي لسان يعبر بقوة لا تبارى عن آراء أهل السنة وكان الفارون السياسيون من تركيا وغيرها من بلاد الإسلام يجدون في مصر مأوى لهم وينتمون فيها الحرية ويسعون لتحقيق غاياتهم وإن المجتهدين من كتاب سوريا وقد كتمتهم الرقابة الشديدة في بلادهم أتوا إلى مصر زرافات وزادوا الصحافة المصرية قوة

حملت ثمارها وآرامها إلى الآفاق ، وكان نشر التعليم الأولى في الوقت نفسه سبباً في توسيع الدائرة التي أمكن للصحافة أن تؤثر فيها في داخل البلاد ، كما أن ازدياد الاتصال الفكري بأوروبا قوى تأثير الاستغراب بين الطبقات العليا والوسطى ، بل تحول المركز العقلي لفكرة الجامعة الإسلامية عن القسطنطينية إلى القاهرة قبل نهاية القرن التاسع عشر وقد مست الحركة الفكرية كل نواحي الحياة الجديدة والموروثة وكانت تنطوي على حياة قوية شديدة الحركة وإن لم يستطع الباحثون المعاصرون أن يروا إلا ما كان يملوها من زبد . وقد أرغم المعارضون المحافظون على الأذعان شيئاً فشيئاً وعن غير رضا أو شعور وكلما أحرز المصلحون نصراً جديداً حفزهم ذلك إلى عمل جديد ، ولا شك أن ماله معناه أن أولى تبلور حركة الإصلاح الاجتماعي كان في مصر وحدها وأن ذلك كان حول مسألة حرية المرأة ولا شيء يرينا بوضوح أكثر من هذا كيف غارت أصول النزعة الحديثة وكيف كانت تغير آراء قادة الفكر في مصر تغييراً عميقاً وتقلبها قلباً — على أنه إذا كان المسلمون المحافظون قد أخذهم على هذا النحو وهم كارهون تيار الاستغراب الجارف فقد كان من المحتمل أن مجرى الحوادث سيؤدي إلى شقة كبيرة بين أنصار التجديد وبين المدافعين عن ميراث الإسلام ولكن المجددين حتى أكثرهم تطرفاً نفروا لأسباب كثيرة من أن يتخذوا مثل هذه الخطوة ، فالظروف السياسية لا مراً واحداً تطلبت صيانة الوحدة في وجه الدولة المحتلة (وربما كانت هذه أواخر أيام أكبر ثمرات الاشراف البريطانيين في مصر) ولكن الباعث الأول لم يكن الدهاء السياسي الذي ينطوي على انتهاز الفرصة دون مبالاة بالمبدأ ، فان المصلحين المصريين رغم ثقاتهم الغربية وقبولهم للأفكار الغربية كانوا مازالون يشعرون بصلتهم الوثيقة بالإسلام ولم يضعف فيهم شعور العطف على سائر العالم

الإسلامى ، ولم تصادف قبولاً لديهم نزعة لوحظت فى بعض البلاد الإسلامية
 ترمى إلى تكوين أحزاب تنزع منزع التوفيق بين النحل والاديان ، فأما الذى
 رغبوا فيه - وربما لم يكن بعد عندهم فكرة واضحة عنه - فهو أن يروا
 الإسلام فى مجموعه قد دخله الإصلاح بما يتلاءم مع الأفكار الجديدة ، وفى
 أثناء ذلك قبلوا تقاليد وأنظمتها النالدة مع تحفظات أضمروها فى أنفسهم ثم
 واصلوا الكفاح للسير بالدين فى طريق التطور كى يتجدد وينشط مرة أخرى .
 وإذا ذاك نالوا فى كفاحهم تأييداً لم يكن يخطر لهم على بال ، فقد كان حتماً أن تقوم
 عاجلاً أو آجلاً محاولة للتوفيق بين أغراض الحزبين ومثلها العليا ، كان هنا من
 جهة الرقى العلمى الذى لا مراء فيه والذى تم بفضل وسائل البحث العلمية ، ومن
 جهة أخرى كانت هنا أيضاً القوة العظيمة الخلقية والدينية للإسلام ومؤكد أن
 انفصالهما كان قاضياً على كليهما قضاء محتماً وقد أخذ المسلمون المخلصون يتساءلون :
 ألا يكون ما يخافه الدينيون من نتائج ضارة تحدثها الدراسات الحديثة ناشئاً
 عن تأثير لا يتفق مع قواعد الإسلام تحدثه المدارس التى تلقى فيها تلك
 الدراسات وعن عدم وجود قانون خلقى يحفظ من الزلل ؟ وإذا
 استطعنا الجمع بينهما ، إذا استطعنا أن نجعل الدراسة العلمية فى جو إسلامى ،
 فى المعاهد العلمية الإسلامية ألا يستفيد الطرفان ؟ ألا يجنى الطالب ثمرة النظامين ؟
 وكانت فى الهند أول تجربة كبيرة على هذا النمو حين وضع سر سيد أحمد خان
 أساس « الكلية الإسلامية الانجليزية الشرقية » (الجامعة الإسلامية الآن)
 Mohammedan Anglo-Oriental College فى مدينة عليكرة فى الأقاليم المتحدة ،
 ويظهر أن الفضل فى هذه الخطوة الخطيرة كان راجعاً إلى شخصية المؤسس البارزة
 أكثر منه إلى أى حركة طائفية فى الهند ذاتها ولكن ليس عجباً أن تخطى هذه الخطوة
 فى الهند بدلاً من مصر أو تركيا ، ذلك أن الاتصال المباشر بأوروبا لم يكن يسيراً أو كثير
 الوقوع لمسلمى الهند كما كان لأخوانهم فى البحر الأبيض المتوسط ، كانوا ما يزالون

بعيدين بعدا كبيرا عن التأثير بمؤثرات أوروبية أبلغ فعلا كانت تعمل عملها في الشرق الأدنى . على أن الهنود المسلمين قد استهوتهم بقوة خاصة فكرة الجامعة الإسلامية وذلك لأسباب محلية ويرجع لهذه الأسباب ذاتها أن هذه الخطوة الأولى التي خطاها سر سيد أحمد خان ، رغم آثارها البعيدة المدى في الإسلام في الهند ، لم ينسج أحد على منوالها مباشرة في أى مكان . غير أن الأفكار التي تأسست عليها كلية عليكرة أخذت تدب أيضا في نفوس أهل السنة في مصر ولكنها هنا نزعزت نزعة أعظم خطورة وأوسع شمولاً للجماعة الإسلامية في جملتها ، لم تكن هذه النزعة أقل من محاولة تأويل العقائد الإسلامية من جديد وصوغها بما يتلاءم مع الفكر الحديث ولكن الذين قاموا بهذا لم يكونوا من العلمانيين المثقفين ثقافة أوروبية بل قام به جماعة من الفقهاء الاختصاصيين . وإذا أردنا أن نفهم الخطورة التامة لهذه الحركة ولوسائلها يجب أن نلقى نظرة عجيلى على احدى مميزات منهج علم الفقه الإسلامى . لقد رأينا أن الإسلام الأول خرج من جزيرة العرب مرنا بعض المرونة وأنه قضى قرنين أوزهاها عاملا على تكيف نفسه مع البيئات التي حل فيها وعلى وضع تفاصيل علومه الفقهية وقد بلغ هذا الأمر كماله بفضل جهود العلماء والفقهاء الذين أقر لهم الجميع بالقدرة على الاجتهاد أو استنباط أحكام حاسمة في مسائل العقائد والأحكام ومتى صدرت هذه الأحكام اعتبرت غير قابلة للتغيير ، ثم أخذنا باب الاجتهاد يضيق تدريجاً إلى أن انتهى إلى مسائل قليلة الخطر حتى إذا ما بت في أمرها أغلق باب الاجتهاد نهائياً ، ومن ذلك الحين لم يكن لعالم عند أهل السنة مهما ارتفع شأنه أن يدعى لنفسه لقب مجتهد (أما عند الشيعة فإن النابيين من علماء الدين لايزالون يحملونه هذا اللقب حتى اليوم) وظل أهل السنة ما يقرب من عشرة قرون يسرون في حياتهم الدينية بالتقليد ، أعنى بمقتضى أحكام السلف المتقدمين .

كانت هذه العقيدة هى موضوع الجدل بين الأحرار من فقهاء مصر الذين

ذهبوا يؤكدون أن تغير ظروف الحياة وأن النزعات الفكرية الجديدة
يجعلان اطراح مجرد التقليد وفتح باب الاجتهاد من جديد أمراً محتماً ،
ويؤكدون أن تنافر الاسلام مع الفكر الحديث إنما يعزى إلى ما يحيط به
من المذاهب الجدلية البالية للعصور المتوسطة وأن الاسلام - على عكس ذلك -
إذا فهم حق الفهم في صورته الاصلية فانه يكون على تمام الوفاق مع نتائج
البحث العلمى الممحصه ، بل إنه ليكون أكثر توافقاً مع تلك النتائج من أى
نظام دينى آخر . وقد وجدوا زعيماً عظيماً فى شخص الشيخ محمد عبده (المتوفى
سنة ١٩٠٥) الذى يعد من أشهر الشخصيات المحترمة فى تاريخ الاسلام
الحديث والذى جذبت اليه شخصيته ومواهبه طائفة كبيرة من المعجبين به وأكسبت
الحركة أتباعاً كثيرين لا فى مصر فحسب ولكن فى البلاد الإسلامية الأخرى .
على أنه إذا كانت الطبقات ذات الثقافة الأوربية قد شرحت صدرأ بهذا التعزيز
الجديد للاسلام فيجب ألا يدور بخلدنا أنه أدى إلى أى تنقيح تناول صميم
العقيدة الإسلامية . فان كتابات الشيخ محمد عبده تمتاز بشيء من الجدة فى روحها
أكثر مما تمتاز بعصرية فى الفكر والمبدأ ، وربما كانت حيطته دون كل ما عداها
هى التى جعلت لأرائه قيمة لدى الجيل الناشئ من الباحثين . كان لعمله أهمية
مزدوجة : فانه وضع أساساً لتأويل الاسلام من جديد من غير أن يقطع
الصلة بتاريخه الماضى وإنه بحكم رياسته للأزهر شرع فى مهمة إصلاح التعليم
بادخال العلوم الحديثه فى المنهج وبهذا عمل كثيراً على توسيع رأى أهل السنة
وأزال الحاجز الذى كان يقوم بين الاسلام والحياة الحديثة فى مصر وفى كل
بلاد وصل إليها تأثيره ، ثم واصل تلاميذه مابداً من عمل وهم وإن لم
يلغوا مبلغ شخصيته الباسلة فقد حملوا مبادئه بكتاباتهم وجهودهم الشخصية
إلى جميع أجزاء العالم الإسلامى وأثروا تأثيراً كبيراً ولا سيما عن طريق
مجلتهم الشهرية « المنار » .

وقد بقي لسوء الحظ حزب قوى من الرأى الإسلامى ولا سيما فى الهند
مصرأ على الخصام ونظر إلى حركة عليكرة ومدرسة الشيخ محمد عبده بعين
ليست أقل، ارتيا بامنهما بالمفكرين المثقفين ثقافة أوروبية ، وبهذا المسلك عمل هذا
الحزب كثيراً على إضعاف الإسلام وإضعاف نفسه فى نفس الوقت الذى
بدأت تظهر فيه النتائج الخطرة للتعليم الغربى فى العقد الاول من القرن الحاضر.
وربما كان عسيراً أن نقرر متى تبوأَت فكرة القومية الغربية الحديثة مكاناً من
التفكير السياسى عند المسلمين ، ولا شك أن الطريق قدمهدلها منذ زمان طويل فى
تركيا ومصر وأنها بمعنى ما كانت أساس كثير من التطور السياسى فى البلدين
جميعاً طول القرن التاسع عشر ، وإن الثورة المصرية لسنة ١٨٧٩-١٨٨٢ بوجه
خاص كما رأينا كانت ذات صبغة قومية واضحة ومع ذلك فقد كان هناك فرق
عظيم بين هذه الحركات التى ترمى إلى الاستقلال السياسى وبين فكرة القومية
الغربية التى ليس لها صبغة دينية ، فمثلاً نستطيع أن نفهم لماذا أيد شيخ الإسلام
فى الامبراطورية العثمانية وهو أرقى شخصية دينية موقرة انقلاب الحكومة
فى القسطنطينية فى ١٨٧٦ ولماذا انضم الشيخ محمد عبده وزعماء فكرة الجامعة
الإسلامية إلى حركة عرابى باشا ، وتطورت نقطة النزاع إلى شئ -
أبعد مدى مما كان فى ذلك الحين ، لم تكن الحركات السياسية وحدها بل
كانت معها الأفكار التى تقوم عليها الحركات السياسية هى التى بدأت تصب العالم
الإسلامى فى قالب جديد وتهزه بما لم يسبق له مثيل منذ ألف عام ، وفى ظاهر
الأمر جاء الإصلاح السياسى أولاً ومعه الإصلاح الاجتماعى تابلاً ضئيل
الشأن ، أما الدين ومبادئه فقد تركا وحدهما عمداً لغرض مرسوم هو أن زعماء
القومية أبوا محاصرة الشعور الدينى ، ومع ذلك فإن الشباب الذين تصدروا حركة
القومية ينموا طرحوا الخول الذى دام طويلاً وأحلوا محلّه نشاطاً سياسياً قوياً وأحياناً
عنيفاً نبذوا فى نفس الوقت الجزء الأكبر من وجهة نظر الإسلام الأولى

وقبلوا بدلها آراء الغرب السياسية الحديثة وأهم ما فيها مبدأ السيادة القومية واضطروا فوق هذا أن يقبلوا أصول هذه السيادة ولواحقها فيما يختص بتكوين الدولة وماهية القانون ووظيفته وحقوق المشتركين في الوطن وواجباتهم ، ولكن نظراً لتلك الصلة الوثيقة التي توجد - كما رأينا - في الإسلام بين العقائد والناحية العملية والاخلاق الاجتماعية والسياسية فلا بد أن انقلاباً في الآراء السياسية يؤثر بالضرورة في الإسلام من حيث هو نظام في الفكر وفلسفة في الحياة ومن حيث أنه دين .

ونستطيع أن نأخذ قضية مسلمة أن قليلاً من زعماء القومية الأولين كانوا شاعرين بهذه العواقب ذلك أن مطالبهم كانت في أول أطوارها قاصرة على إنشاء دساتير ومجالس نيابية على الطراز الأوروبي تصحب هذه المطالب في مصر حملة مصطفى كامل باشا العنيفة من أجل استقلال الوطن . أما المسألة الخاصة التي محورها علاقة هذه المطالب بالإسلام فانها لم تظهر إلا حينما أخذت الدساتير تعمل عملها ، ولم يكده يتاح لها الوقت الذي يشتد فيه ساعدها حتى انفجرت الحرب الأوروبية الكبرى فقضت عليها . أما في فارس حيث ساعد تجانس الشعب أول الأمر على إخفاء المعضلة فقد تقرر صراحة في الدستور « أن القوانين التي يسنها مجلس النواب يجب ألا تناقض أصول الإسلام وشريعته » وقد اشتمل البرلمان على لجنة من خمسة « مجتهدين » ليكونوا رقباء دينيين على كل ما يعرض من تشريع .

ونكاد لانكون بحاجة إلى القول بأن مثل هذه الضمانات الكتابية مهما بلغت من القوة فلن تظل أبداً قوية على إخفاء مسألة هي أن تنظيم الدولة على أساس علماني لا بد أن يصطدم بحقوق الشريعة الإسلامية (١) إلا أن نمو

(١) يجب ان نقول هنا ان حيوية الاسلام ومروته تمنعان مثل هذا الاصطدام

القومية حتى سنة ١٩١٤ قوة فعالة في العالم الاسلامى كان على العموم بطيئاً ورهين التجربة وقاصراً على بلاد قليلة ، وبالطبع بلغت القومية أقصى حد في تركيا حيث حلت أثناء السنوات القليلة التي قبل الحرب فكرة تريك الشعوب المختلفة في الامبراطورية العثمانية محل خطة الجامعة الاسلامية وأيقظت شعوراً معادياً لها من القومية العربية في سوريا والعراق بل في جزيرة العرب . وقد عملت حوادث الحرب ذاتها على تقوية شعور القومية كما عمل على ذلك إسراف الحلفاء في المناداة بحق « تقرير المصير » ، ولكن قليل من استطاع حتى في ذلك الحين أن يرى الصور الثورية الغنية التي ستمثل فيها الحركات القومية في كل بقعة من العالم الاسلامى تقريباً وكان مصدر الباعث الأول مقاومة مواجهة ضد أوروبا ترجع غالباً إلى الغضب المرير والرعب اللذين آثارهما في شعوب الشرق بتحقيقهم أن معاهدات السلام على بعدها من منحهم حق تقرير المصير أدت فعلاً إلى امتداد الاشراف إلى أوروبا على مساحات واسعة في صميم العالم الاسلامى ، كما ترجع إلى شعور الحق على المظهر الذي بدت فيه « المدنية » الأوروبية في الحرب نفسها وفي مفاوضات السلام .

وأكثر مظاهر هذه المقاومة إثارة للدهشة وفي نفس الوقت أكثرها دلالة على التطور المقبل أنها لم تسرع من فورها بشعوب الشرق إلى أن يزدادوا تقديرًا للتضامن الاسلامى ولكنها على العكس بدت في صورة حركات افليمية كل منها مستقلة عن الاخرى وتكاد لا تجد جماعة وقفت موقف الاصرار على

لو صدقت النية في تلافيه ولو فهم المصلحون الاسلام على حقيقته لاجل تصورهم لهم
الاهواء وهذا موضوع واسع لا يفي به هذا القيام وإنما آثرنا أن نلفت
نظر القارىء فقط . (المترجم) .

المظهر الدولى للإسلام إلا الجماعة الإسلامية فى الهند ، وكان الباعث المحرك حتى فى هذه البلاد متأثراً تأثراً كبيراً بفكرة الدفاع عن الإسلام أمام القومية الهندوكية ، وكانت الفكرة التى قامت عليها حركة الثورة فى كل ناحية أخرى هى نفس الفكرة التى أدت إلى ذلك الخراب الذى حدث فى أوروبا وهى فكرة فصل الدين عن الدولة وأن الدولة تقوم على وحدة الجنس واللغة ، وكان طبيعياً أن يبقى الإسلام ولكنه أصبح عند العقول المتشعبة بفكرة القومية واحداً من ضمن العناصر التى يتكون منها صرح الدولة . وقد يكون الدين الرسمى للدولة ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل إلى مكانة الديانة المسيحية فى الدول الأوروبية ، وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم فحيثما كانت الجماعة الإسلامية واحدة من جماعات دينية أخرى تربطها جميعاً القضية القومية كما فى أندونيسيا فإن المسائل الدينية كانت بالطبع توضع فى المحل الثانى ، أما فى البلاد المتجانسة السكان مثل فارس فقد نزل الإسلام عن عرشه مجرد نزول ، وأما مصر فقد سلكت فى اعتدال يسترعى النظر طريقاً وسطاً ورضيت حتى الآن أن يتم التغير المحتوم تحت ضغط الحوادث البطيء ، وأما تركيا فإن عملية الفسوق عن الدين سارت فيها إلى غايات متطرفة بوسائل عنيفة ولكن انتصار أفكار الغرب هذا الانتصار الحاسم لم يكتسب من غير مقاومة كمينية واحتجاج من المسلمين على انحلال العالم الإسلامى إلى دول قومية تقوم على أساس لا صلة له بالدين وربما كان الأمر على أشده فى البلاد العربية ولا سيما حيث يشعر الناس بالسيادة الأوروبية كالثقل ما تكون ولكنه قوى أيضاً فى الهند وأندونيسيا ، وربما كان أقوى مما يبدو فى الظاهر فى تركيا وفارس ، وإن هذا الكفاح لتحقيق الوحدة الإسلامية هو المحور الذى تدور عليه المعضلة التى تهيح العالم الإسلامى اليوم والتى ستبحث تطوراتها فى أربعة الفصول التالية :

الفصل الثانى

أفريقية (ماعدا مصر)

للأستاذ لويس ماسينيون

مقدمة

قبل أى بحث فى حركات الفكر الإسلامى الحاضرة لابد أن نفهم فى وضوح كيف تفعل تلك الحركات فعلها فى الجماعات الإسلامية وأن نفهم ما يميزها من هذه الناحية . وإن ربط الحوادث المتتالية لتكون سلسلة يظهر فيها التطور وهو المنهج الذى ألفناه أكثر من سواه هو الذى يندر وجوده بين المسلمين . والحركات التى تواجهنا فى الغالب كالبرق الخاطف والهزات التى تكاد لا تستغرق زمنا ، أو الانفجارات العنيفة التى تشتد بمرهة ثم تهدأ . فلا جرم كان منهج المسلمين فى التاريخ ينزع غالباً إلى التجزئة لا إلى ربط الحوادث لتكون سلسلة متصلة الحلقات . والحركات الفكرية فى الإسلام تستعد فى خفاء وصمت وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ، وبعبارة إصطلاحية أكثر دقة نستطيع تحليل ما يقع هكذا : أول الأدوار هو دور « النداء » ، « النداء الباطن » الذى يهيب بالضمير الاجتماعى ويوقظه وإن ظل فى حالة هدوء ظاهرى أو ظل كما يعبر عنه فى عرف طوائف مختلفة فى حالة « قعود » أو « تقيء » أو « كتمان » ، وإذا نضج هذا النداء تبعه الدور الثانى مباشرة وهو دور « الدعوة » ، « دعوة القبائل لامتشاق الحسام أو للنفير العام الذى يجاهد جنوده ليستردوا بالسيف ما تعطل من حقوق الشريعة » هذا هو المفهوم الذى يصدق على كل الحركات والذى يسمى

عند مختلف الجماعات وفي مختلف الاوقات بالظهور ، أو الدفع ، أو الخروج ، أو الشراء ، (شراء الانسان نفسه ابتغاء مرضاة الله) .
يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذ أردنا أن نذكر أى أساس واه تقوم عليه المنشآت الأوروبية في بلاد الاسلام ، فبعد أعوام من السكينة بما تندلع بفتنة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعاً لها ، وقد لا يكون هنا مجال نقد فكرة الجهاد في ذاتها بما يتفق مع وجهة نظر دعاة السلم وإن حاول نفر من دعاة المسلمين اليوم أن يخسوا قدر الجهاد ويوهنوا من قوته ، فلا جرم أن من مقومات العزة في الاسلام أنه يحافظ في الحياة على هذه العقيدة وهي أن هناك أشياء أكبر من أن تكون بين الناس موضع مساومة ، بيع وشراء ، بل هي جدية أن يمتشق للذود عنها الحسام .

— ١ —

لو درسنا الحالة على مصور أفريقية لوجدنا أن التغير الجوهري الذي أحدثته القرن التاسع عشر في حركات الفكر في الاسلام ينجصر في انتقال محورها الرئيسي ، ولقد حافظ المحور القديم الذاهب بين الشرق والغرب على تفوقه حتى ذلك القرن وجرت معه غربا تيارات الفكر والرأى من القاهرة إلى «سوس» ، في أقصى الجنوب الغربي من مراکش ، أما اليوم فقد تغير وضع هذا المحور القديم فسار من «جاو» في الجنوب على نهر النيجر إلى مدينة الجزائر في الشمال ، ولناخذ بعض الأمثلة الإحصائية . كان تيار الهجرة حتى القرن الحاضر يسير من الشرق إلى الغرب والعكس ويرجع استعراب (Arabicization) أفريقية الشمالية في جل أمره إلى هجرة القبائل العربية إليها من مصر ، بينما كان في مصر وفلسطين وسوريا من جهة أخرى جاليات نامية من المغاربة ، ومنذ ١٩١٠ أخذ عدد هذه الجاليات في التقصان وقبل شأنها كثيراً ، ونشاهد هذه الظاهرة نفسها في تضاؤل عدد الحجاج فكانوا في ١٩١٠ يبلغون ١٨٠٠٠ منهم

٣٠٠٠ من أفريقية الغربية الفرنسية وفي ١٩٢٧ هبط عددهم إلى ٢٥٠٠ منهم ٧٥٠ من أفريقية الغربية الفرنسية .

وفي هذه الأثناء استمرت ظاهرة الهجرة بين الشمال والجنوب في الزيادة من غير انقطاع، يبدو هذا من جهة في تدفق المهاجرين كالسيل إلى فرنسا طلباً للعمل اليدوي، وزاد عددهم من ٥٠٠ حمال في ميناء مرسيليا إلى عدد عظيم، ١٥٠٠٠٠ عامل في ١٩٢٧، وفي كل قرية تقريباً من قرى البربرفة عن عاشوا زمناً في فرنسا، وبلغ هذا المبلغ في خطوة الشأن سيل طلبة الجامعات وغيرهم فقد زادوا من عدد ضئيل يبلغ العشرة في ١٩١٠ إلى ١٥٠ في ١٩٢٧ منهم ١٥ من أفريقية الغربية الفرنسية، وذلك من غير معاضدة أو تشجيع من الجهات الرسمية (التي تفضل بالطبع ألا يجاوزوا بلاد الجزائر) .

وإن من ينظر إلى مصور باريس يرى أن المسلمين المهاجرين من المغرب — وهم في الغالب من البربر — يقطنون أحياء متفرقة في مختلف نواحي باريس. ويرى أنهم قد أفلحوا في التسرب إلى كل ناحية وأنهم اندمجوا في الحياة الاجتماعية الفرنسية، ولم ينقطعوا في حي مقفل كالحي الصيني في سان فرنسكو. ثم إن حوالي ٧٠ في المائة منهم يلبثون أكثر من ثلاث سنين و ٢٠ في المائة يظهر أنهم وطموا العزم على استيطان فرنسا، وتجنس عدد كبير منهم بالجنسية الفرنسية (١)

ولكي نحصر البيئة الاجتماعية الإفريقية التي ندرسها في هذا الفصل لا بد أن نذكر باختصار بعض الأرقام. يبلغ مجموع سكان هذه البيئة زهاء ثلاثين مليوناً من المسلمين موزعة هكذا: ١٤ مليوناً في المغرب (تونس والجزائر

(1) See for further details, *Revue des Études Islamiques* [Paris: Guethner], 1930, Cahier 2 pp. 161 — 9, and for the Settlement of Moroccan Berbers in Paris, *ib.*, 1928, chier 5, pp. 477 — 80 .

ومراكش) و ٦ ملايين في أفريقية الغربية الفرنسية و ٨ ملايين في نيجيريا
ومليون في ليبيا ويبلغ عدد العرب ٩ ملايين فقط من هذا المجموع (٧ مليون
في المغرب و ٥٠٠،٠٠٠ في أفريقية الغربية الفرنسية ومليون في نيجيريا
و ٨٠٠٠٠٠ في ليبيا) ، أما الباقون فهم من البربر والقبائل والزنوج .

— ٢ —

وإذا نحن قارنا هذه البيئة الاجتماعية الإسلامية في المغرب بنظيرتها في
المشرق وجدنا فوارق ليست ظاهرة فحسب ولكنها تغلغل في الصميم. وإذا
نظرنا إلى الناحية الفكرية لم نجد في المغرب شخصيات بارزة كثيرة أو مفكرين
نابهن كالذين يكثرون في المشرق، وليست هناك جمعيات تقوم لنشر مبادئ كالرابطة
الشرقية ، في مصر، ذلك أن لمسلمي المغرب عقولا عملية من الطراز الأوروبي ،
فانهم ولا سيما أهل الشمال منهم فرديون يضطلعون بحل مشكلات الحياة المادية
بطريقة عملية وقلما يضيعون وقتهم في الثروة النظرية . أما في عقيدتهم فقد
احتفظوا بصلافة موروثة عن صدر الإسلام حينما نهض البربر الذين دخلوا
في الإسلام وبدافع العداء لسوء حكم الخلفاء اعتنقوا مذهب المتطرفين من
الخوارج ، وقد غذت تلك العقيدة الصلبة اتباعهم مذهب الإمام مالك فيما بعد
(ومن الأمثلة الجديرة بالذكر على انتشار هذا المذهب أنه سائد الآن في السودان
المصري الإنجليزي على حين أن المبريزي يخبرنا أن شرق بحيرة شاد كان في
القرن الخامس عشر لا يزال شافعيًا) . والصفة التي يمتاز بها المغربي في الناحية
العقلية شيء من خلق العزيمة كثيراً ما يعوز عقلية أهل المشرق الذين هم أكثر
ذكاء ، وهو يجمع إلى هذا استعداداً للأخذ بالوسائل المادية في الحياة الفرنسية
ليتخذ منها أداة تعينه على بلوغ الغاية في أغراض الحياة العملية مادامت تلك
الوسائل لا تناقض الإسلام ، ولا بد أن نفرق بوضوح بين هذه الاستعانة
بالمدينة الغربية وبين تقليد الأخلاق الفرنسية تقليداً سطحياً مبهرجاً يجري

في المشرق باسم والتفرنج ، .

ماهي الأفكار السائدة بين مسلمي المغرب ؟ هي أولا ناشئة عن اختلاف الخطط التي يسلكها المسلمون إزاء اقتحام ثلاث دول لاثنية مسيحية قوية ثبت قدمها في البلاد عن طريق الاشراف السياسي أو الاستعمار ، فأما خطة المسلمين إزاء أسبانيا فيغلب عليهم شعور الحنين إلى مجد الاسلام التالد في أندلوسيا دون أن يصحبه عطف على الأسبان إلا منذ عهد قريب جداً ، وقد عملت السياسة الجديدة للحكومة الجمهورية الأسبانية على تقوية هذا الشعور وبعثت الآمال من جديد في الاتفاق بأن أفهمت الناس أنها تفكر في مشروع إنشاء جامعة إسلامية في غرناطة بل في إعادة العبادات الإسلامية في مسجد قرطبة (بعد أن قد دالت دولة الكنيسة) ، ولكن يبقى أن نرى إن كان سيتحقق شيء من هذه المشروعات (١) ، وأما خطتهم حيال إيطاليا فان عقول مسلمي المغرب قد اتجهت اتجاهها آخر ، فبعد العطف الذي بعثه ماسمي بالقانون الأساسي (Statuto) الذي صدر ، منذ اثني عشر عاما بسياسته المبنية على المسالمة حدثت مقاومة شديدة لآساليب الأعدام الوحشية التي تستعملها إيطاليا بقسوة في ليبيا . أما مسلمهم إزاء فرنسا فان تكييفه أكثر صعوبة لأنه أكثر خفاء وتقيداً بسبب تباين منازع الشعور ففي تونس ، وفي مراکش إلى حدما ، شعور ينزع إلى اتخاذ سياسة كراهية الأجانب ويستمد برناجه من الحركة الوطنية في مصر ويستلهم وحيها ومع ذلك ففي الوسط — في الجزائر — تسود

(١) أسست في غرناطة في فبراير ١٩٣٣ مدرسة للدراسات العربية غرضها الأساسي والثقافة العالية في اللغة العربية والمدنية العربية واجتذاب الشباب الاسلامي ، الذي ستعطى له مقررات خاصة في بناء مستقل وسيقام له مسكن إن أمكن . (١٠٥ ر . جب) .

الشعور الاسلامى عاطفة غريبة جداً وليست هى مجرد الامل فى كسب عطف
الفرنسيين بل هى طموح من جانب المسلمين لان يشقوا طريقاً - لا لا تفهم
أفراداً بل للاسلام - فى عقل وروح فرنسا ذاتها ، وهناك طائفة من
كتاب الجزائر المسلمين الذين يجيدون الفرنسية أيما إجادة ويحاولون استخدامها
فى بث الدعاية فى فرنسا نفسها ، ثم انهم لا يقصرون هذه الدعاية على أن
يستردوا للاسلام أولئك المسلمين المقيمين فى فرنسا والذين ربما استهدفوا
لخطر الانفلات من دينهم ولكنهم يشربون إلى أغراض أبعد من ذلك ،
ومما هو جدير بالذكر أن بعض المسلمين البارزين بدسوا يدركون التأثير
الذى تستطيع أن تحدثه الجاليات الاسلامية فى فرنسا ولا يرغبون فى أن يقل
ذلك التأثير بعودة جميع المسلمين إلى بلادهم ، وما يذكرون قليلاً من الفرنسيين
فى نواحي متفرقة قد اعتنقوا الاسلام بتأثير مسلمى المغرب ولكن من اعتنقه
من النساء أقل من ذلك ، ولم يعتنق بعض الفرنسيات الاسلام إلا فى
تونس حيث يظهر أن طابع الاسلام الروحى يبعث فيهن افتتناً خاصاً .
وهناك حقيقة لا يمكن إنكارها وهى أن بين فرنسا والمغرب اتصالاً روحياً
يتمثل فى أذهان بعض المفكرين ضرباً من التجاذب العقلى يشبه ما نشأ بين
انجلترا والهند غير أنه يبدو من جانب الشعب المغلوب على أمره فى مظهر الرغبة
فى التعبير عن الامانى القومية باتخاذ كل نواحي حياة الغالبين حتى لغتهم وأنظمتهم

— ٣ —

نستطيع أن تبين اليوم ثلاثة اتجاهات رئيسية فى حركات الفكرين مسلمى
المغرب ، ويمكننا أن نضرب صفحاً عن حركة الدعاية الاسلامية التى حملها إلى
المغرب وقام بها فيه جماعة من الهند لأن هذه الحركة قاصرة على بعض المدن
السياحية على شاطئ غانة وعلى بعض جهات نيجيريا وسيراليون وليبيريا .

(١) الحركة الإصلاحية التي غايتها فصل الدين عن الدولة محتذية مثل تركيا بعض الشيء ، ويقود هذه الحركة طلبة من المدارس الفرنسية ومعلمون في المدارس الابتدائية وموظفون يحذقون الفرنسية أيما حذق ويجيدون استعمالها وسيلة لتنظيم حركتهم عن طريق الصحف التي ينشرونها بالفرنسية وإن الاجراءات الإدارية التي لم يكن بد للحكومة من اتخاذها حيال هذه الصحف قيدت حرية الرأي فيها طويلا حتى أن من غاياتهم الحصول على قسط أوفر من الحرية في هذه الناحية. وأكبر صحف هذه الفئة هي « La Voix Indigène » في قسنطينة ويديرها ربيع زناقي و La Voix des Humbles في مدينة الجزائر ويديرها عمر جوندوز و La Voix du Tunisien في تونس ويديرها شاذلي خير الله (١) ، هذه الصحف وإن قامت أول الأمر من أجل نزعات متباينة — تبدى عن تقارب يزداد شيئا فشيئا لا تباع سياسة واحدة ، وهناك مثال آخر هام يدل على هذه المحاولة التي ترمي إلى جعل اللغة الفرنسية أداة للفكر الإسلامي لا في الناحية السياسية فقط بل في الناحية الدينية أيضاً ، ذلك هو ترجمة القرآن الى الفرنسية التي قام حديثا « أحمد ليميش » . هذه الترجمة وإن لم تبلغ الذروة في الجودة تمتاز بترجمة للقرآن يحوطها التقديس ويشعور إسلامي صادق ينطقان بالفرنسية .

٢ — حزب السلفيين المتشددين الذي ينزع نزعة نصف وهابية وهو شعبة من الحركة التي تمثلها في القاهرة مجلة « المنار » ، لذلك يحتفظ بصلة وثيقة بالفئة التي تماثلها في مصر ويترسم خطاها ، ورغم أن هذا الحزب لا ينتمي اليه حتى الآن إلا شريحة قليلون في مدن المغرب فقد صار له بعض التأثير بسبب برنامجه المنطوي على الرجوع الى تعاليم القرآن التي لم يتطرق اليها الفساد. وأكبر

(١) يمكن أن تترجم هذه الأسماء على التوالي هكذا : الصوت الوطني ، صوت الشعب ، الصوت التونسي .

لسان معبر عن حال هذا الحزب صحيفة «الشهاب» التي تنشر بالعربية في قسنطينة ويديرها عبد الحميد بن باديس ، ومن أتباع هذا الحزب جرثومة صغيرة ولكنها مترعرة في رباط من أعمال مراکش .

٣ - أما الفرقة الثالثة فإنها تكون من أتباع الطرق الصوفية القديمة التي ترجع إلى ثلاث طوائف متميزة .

(أ) أولها الشعبة العلوية المتجددة عن الطريقة الدرقاوية ويرأسها سيدي أحمد بن عليوة المقيم في مستغانم في غرب الجزائر حيث تصدر صحيفته «البلاغ» ، هذه الجماعة التي أسست أثناء الحرب كسبت فئة عظيمة من الأنصار في جميع أنحاء المغرب منهم بعض البربر النازلين في باريس وهي تحاول إيجاد لسان يناض عن العرب وينطق بالفرنسية ويتلام مع البيئة الجديدة (كالتعليق الخلقى للجهاد مثلا) ويظهر في شكل رسائل .

(ب) شخصية منفردة ، غلام الله ، وهو رئيس إحدى الطوائف الدرقاوية في مدينة تيارت (غرب الجزائر) يدعو الآن إلى سياسة غربية ترمي إلى عقد اتفاق ديني (Concordat) بين الإسلام والحكومة الفرنسية وتقرن دعايته بضرب من الكياسة في التجديد .

(ح) الطريقة التجانية أو على الأقل شعبتها التي في مراکش ، وهي صفوة مستقاة من بين كبار الموظفين وطبقة التجار الأغنياء ، وقد قامت في السنوات الأخيرة بدعاية عظيمة ترامت حتى بلغت ضواحي باريس ، وأقامت مسجداً في « جانفليير » حيث تقام أذكار الطريقة بانتظام ، غير أن هذه الطريقة من حيث هي عامل اجتماعي لا تؤثر تأثيراً عظيماً إلا في أقصى الجنوب ولكن لها مكانة عظيمة في السودان الغربي بل في نيجيريا وباكستان وقامم .

ويلاحظ أننا لم نذكر شيئاً عن السنوسيين الذين كانوا يقومون حتى عهد قريب مكاناً علياً بين مسلمي المغرب ذلك لأن إيطاليا قد أفلحت بقوة السلاح

في تفتيت شملهم في ليبيا وأصبح نفوذهم السياسي الآن قليل الخطر ، أما الطرق الصغرى التي في الجزائر كالرحمانية في « قابليا ، والعمارية في « قالما ، فليس لها سوى أهمية محلية -

— ٤ —

ماهى أهم المسائل التي يدور حولها البحث اليوم في الدوائر الإسلامية في المغرب ؟

١ - مشكلة القومية (Nationalism) (يترجمها المؤلف الشعبية أو العصبية) وقد أثارَت هذه المشكلة ثلاثة تيارات فكرية متمايزة :

١ - فهناك حزب يقتصر في غالب أمره على قليل من المثقفين ثقافة فرنسوية ويرى حل المسألة في اتخاذ الجنسية انفرنسية اتخاذا تاماً بما في ذلك استعمال كل الحقوق المدنية استعمالاً كاملاً ، ولا يكاد عدد المتجنسين بالجنسية الفرنسية يتجاوز اليوم خمسة آلاف مسلم في الجزائر لأن الحكومة لم تساعد قط على هذه الخطة ولأن للمستعمرين أيضاً لا يرمقونها بعين الرعاية ، وفي تونس حوالى ثلاثة آلاف ومن أكبر العوائق في الجزائر إلزام المسلم المتفرنس أن يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الذي تقضى به الشريعة الإسلامية والذي يشمل بالطبع حق تعدد الزوجات ، أما في السنغال حيث لا يشترط هذا الشرط فان مسلمي الأربع « محافظات المتمتعة بالحقوق الكاملة ، (سنت لويس وداكار وجوري وروفسك) قد شاركو منذ ١٨٨٤ في انتخاب المجلس البلدي وفي انتخاب ممثل في مجلس النواب الفرنسى .

٢ - أما الجل الثاني فهو بحث أمة مغربية تقوم على فكرة جنس أصلى هو الجنس البربرى ولا يؤيد هذا الحل الآن في الدوائر الإسلامية إلا شريحة قليلون متفرقون بين البربر . وما سيكون حظ هذه الفكرة من النجاح ؟ إن البربر يكونون ٢٩ في المائة من سكان الجزائر ولكنهم لا يزيدون عن ٥ في المائة في

ليداوعن ١٦٥ في المائة في تونس والبربر الجزائريون يفخرون أشد الفخر بأنهم ليسوا من الجنس العربي ، ونستطيع أن نجد حل المسألة في مرا كش حيث يبلغ البربر ٦٠ في المائة من السكان ولكن السيادة العربية فيهم لا تلوح عليها علامات الضعف ، ولما كان البربر تعوزهم لغة بربرية ثابتة يُرجع إليها فانهم لم يشعروا بعد بمثل أعلى يجمعهم ، غير أن الادارة الفرنسية حاولت أخيراً أن تشد من أزر الروح الجنسية بين بربر مرا كش باستصدار الظهير السلطاني (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) الذي قضى بتنفيذ القانون العرفي البربري وقانون الأحوال الشخصية في تلك الناحية بدل الشريعة الإسلامية ، ولهذا السبب أثار الظهير احتجاجاً صارخاً ووجهت إليه حملات عنيفة في كل بقعة من العالم الإسلامي ، وربما يذيع المثل الأعلى البربري بين مسلمي المغرب بعد ثلاثين عاماً ، وإذا تم ذلك أفىكون من الخير للاستعمار الأوروبي ؟ إننا نشك في هذا كل الشك وإن كان الكتاب الأوروبيون هم الذين يعملون اليوم بما يبذلون من جهود على تمهيد السبيل لذلك المبدأ (واليوم نستطيع أن نرى مقدماً أنه سيأتي وقت يقوى فيه العنصر البربري حتى يسمح ، للفرنسيين أن يتجنسوا بالجنسية البربرية) .

٣ - والحل الثالث هو فكرة « الجامعة العربية » ، التي ترمى إلى تقريب الإواصريين الاقلية العربية في مدن المغرب وبين الشرق العربي الذي أتى منه معظم تلك الاقلية منذ ٩٠٠ عام ، وترتكز دعاية « الجامعة العربية » على إصلاح التعليم وهي تحرص على إعادة تعليم اللغة العربية الفصحى المأثورة في كل المدارس الدينية وغير الدينية . لهذه الحركة كثير من الانصار في تونس وهي آخذة في الانتشار في قسنطينة بل في فاس ، وطبعي أن تكون على عداء لدراسة واستعمال اللهجات العامية كما يدعوا إلى ذلك طائفة من مستشرقى أوروبا وكل زعماء حزب السلفيين المتشددين وكل زعماء الصوفيين يؤيدون برنامج

الجامعة العربية تأييداً قوياً .

(ب) وثاني مواضيع البحث مسألة الاتحاد أو تكوين جبهة متحدة تسعى لتحقيق الغايات السياسية التي يطمح اليها الجميع وقد كان هذا الغرض أساس فكرة خلافة عامة قامت لها دعاية جادة في السنوات الأخيرة . ورغم فشل هذه الفكرة بالغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ فإنها لاتزال قوية على استهواء التونسيين الذين لا يزالون على ولائهم لصاحب الدعوى التركي . ولكن حسن الجدل لم يساعد على اختيار فكرة الخلافة العامة لتكون وسيلة لحياء الشعور بالوحدة ، فان سلطان مرا كش قد ادعى لنفسه منذ قرون كثيرة مكانة شبيهة في ظاهرها بالخلافة ولم يعترف قط بالخلافة العثمانية ولم يدع في الجزائر منذ قرون لحاكم حى في خطبة الجمعة التي جرت العادة أن يدعى فيها للحاكم باسمه ، كما أنه لم يدع لأحد بعينه في السودان الغربي منذ قيام أسرة « أسكيا » في القرن السادس عشر .

وأما فكرة الشيعة عن الإمامة ، تلك الفكرة التي كانت قوية جداً في المغرب فالظاهر أنها اختفت مورثة فكرة المهدي (Mahdism) التي تطوى دائماً رغم كونها على حركة باطنية شديدة والتي تترقب بفارغ الصبر ظهور المهدي الذي سيسترد حقوق الإسلام بحمد السيف .

وإن فكرة عقد مؤتمر إسلامي كل عام أكثر تمشياً مع روح العصر الحديث من حيث النزعة السياسية من فكرة الخلافة القديمة ؛ ولكن فكرة المؤتمرات التي قد ظهرت قيمتها في الهند كعامل على إحياء الروح الإسلامية العامة لم تكن مبتكرة كل الابتكار في العالم الإسلامي ، فالواقع أنها هي الطريقة القديمة التي نهجتها فرق الخوارج المتشددون ولهذا فرمما تستهوى أهل المغرب لما عرف عنهم من ميل إلى مذهب الخوارج ، ومن المهم في هذا الصدد أن نرى أن ممثلي هذا المذهب المحدثين وهم لا يزيدون على أقلية ضئيلة مركزها «مزاب» (جنوب

الجزائر) و« جبل نفوسته (على الحدود بين ليبيا وتونس) قد صار لهم منذ سنتين صحيفة عجيبة تعبر عن آرائهم هي «وادي مزاب» التي ظهرت في الجزائر من ١٩٢٦-١٩٢٨ وكانت تدعو إلى إقامة وحدة إسلامية عمادها طريقة المؤتمرات.

(ج) وثالث مواضيع البحث مسألة إصلاح الشريعة الإسلامية وفي هذا الصدد نجد المغرب محافظاً أشد المحافظة لما ورث من نزعة مالكية قوية ، ولم تفلح السياسية التتلمذية التي تجرى عليها فرنسا إلا في تقوية هذه النزعة حتى في بعض مظاهرها التي يمكن الشك في حکمتها غاية الشك . وقد أخفق مشروع وضع قانون الجزائر في اللغة الفرنسية (وهو المسمى قانون موراند) في أن ينال قبولا بسبب تردد السياسة الإدارية ، وكان يمكنه أن يركن إلى تأييد حزب كبير من الرأي الإسلامي ولا سيما من زعماء الحركة الإصلاحية ، كما أنه على وثام مع فكرة «الاتفاق الديني» التي تأتق في وضعها غلام الله في ١٩٣٠ والتي أشرنا إليها آنفاً .

ومن المسائل الفرعية المتعلقة بالقانون والخطيرة من حيث إثارها مسائل اجتماعية بعيدة المدى والتي تسترعى جانباً عظيماً من الاهتمام مسأله إصلاح مكانة المرأة ومسألة إدارة الأوقاف الدينية (التي تسمى «^{حجوساً}» في المغرب وأوقافاً في المشرق) ولا يزال المغرب يتلکاً وراء البلاد الإسلامية الأخرى لا بالنظر إلى الحركة النسائية في جملتها فقط بل بالنظر إلى مكانة النساء العادية، وأكبر ما يذكّر عن الأولى كتاب حديث ينزع نزعة الإصلاح أصدره طاهر حداد في تونس وعن الثانية مرسوم الجزائر الصادر في ١٩ مايو ١٩٣١ الذي يسعى لإزالة بعض المظالم البينة التي يفرضها على نساء البربر قانونهم العرفي (لأن البربر لم يستبدلوا الشريعة الإسلامية بمالهم من عرف قديم في هذه الناحية) . ومسألة ^{الحجوس} الهيئات الجبوس مبعث للمشاكل ، وبعد أن ألغيت نهائياً في الجزائر منذ ١٨٤٤ كانت إدارة الحكومة واستثمارها لها مبعثاً لاضطرابات ، في كل من تونس ومراكش .

(د) وأما النقطة الرابعة من نقط البحث فهي مسألة التعليم بما في ذلك كل من التعليم بمعناه الضيق أى إصلاح فن التربية ونشر ما يسهل طلب العلم ثم إصلاح طريقة الدفاع عن الإسلام، ونجد المسلمين المشبعين بفكرة الجامعة العربية يحصرون اليوم جهودهم في هذه المسألة ، فقد أصلحت المدارس الدينية في تونس والآن تفتح المدارس العربية الخاصة في نواح مختلفة من الجزائر ولكن يعرقل هذه المدارس في كفاها مع اللغة الفرنسية مثالب حروف الهجاء العربية وقواعد النحو التي تجعل كلا من الكتابة وتبادل الفكر الحديث بالعربية أكثر مشقة منها بالفرنسية وقد أثرت هذه الأخيرة أيضاً في عقول البربر تأثيراً عميقاً بما أعانها من إنشاء عدد من المدارس الابتدائية العامة منذ نحو أربعين سنة . وقد كان التعليم الابتدائي هو الأداة الفعالة التي كانت تعوز إيطاليا لترك لها أثراً في عقلية المغاربة ولكنها لم تستطع أن تصوغ تلك الأداة ، وقد ظلت المدارس الابتدائية حتى الآن قاصرة على البنين ، والمغرب متأخر جداً في تعليم البنات إذا قيس بمصر ولكن النساء يبدن رغبة متزايدة في التخلق بالآخلاق والعادات الاجتماعية الأوروبية : ولقد أشرنا في القسم الثالث فوق هذا الكلام إلى تقدم الصحافة العربية ولا نزيد على ما تقدم إلا أن عدداً من الصحف تصدرها في مراكش كل من الحمايتين الفرنسية والإسبانية في طنجة ، وإن روح المحافظة بها لها من صلابة ومن سلطان مطلق يسيطر على الفكر الإسلامي في المغرب تجعل أحداً لا يفكر في مسألة استعمال الحروف اللاتينية على حين أن هذه المسألة تعتبر في المشرق بل في الشرق العربي مسألة فيها نظر .

أما في الناحية الاقتصادية فهناك نزاعات واضحة ترمي إلى اتخاذ وسائل فرنسية وأنظمتها ، فقد دخل الإصلاح في نقابات العمال واتحاداتهم الصناعية القديمة حتى صارت نقابات واتحادات مختلطة تضم العمال المسلمين والأجانب

وتلعب دوراً جديراً بالذكر كل الجدارة في دفع سكان المدن إلى اتخاذ وسائل الصناعة الفرنسية ، ومن المؤكد أن يكون للتعليم الزراعي الفنى فى الجهات الزراعية أثر كالأثر السابق .

وإن المثل الذى ضربه بنك مصر قد وجد من يحتذيه فى تونس حيث تأسست بنوك مالية على نفس نظام بنك مصر كما أن التنظيم الرأسمالى للصناعة بدأ ينفذ أيضاً إلى الدوائر الإسلامية فى الجزائر حيث نشأت منذ الحرب طبقة جديدة من أصحاب رؤوس الأموال المسلمين ولاسيما فى صناعة السجاد فى « تلمسان » . أما فى مراکش فلا تزال الكفة الراجحة فى الصناعة فى قبضة أسر اليهود الذين اعتنقوا الإسلام فى « فاس » ، والذين يسمون « المهاجرين » :

خاتمة

ولا يزال المشرق يؤثر فى مسلمى المغرب تأثيراً لا ينكر ولا سيما فى ناحية الجامعة العربية كما يروج لها السوريون أمثال الأمير شكيب أرسلان أو المصريون كالاستاذ فريد وجدى بك ولكن تيار التطور يزداد انحرافاً نحو باريس وإليها لا إلى المشرق نجد جمهور أهل المغرب يولون وجوههم . ومن الجلى أنه يستحيل حل المسألة الدقيقة ، مسألة إنشاء أنظمة نيابية وتمثيل المسلمين تمثيلاً قائماً على الانتخاب ، بإنشاء مجلس نيابى فى مدينة الجزائر فسيقوم على الفور صدام بين الوطنيين والمستعمرين الذين يقلون عنهم كثيراً فى العدد وليس من الممكن إنشاء مملكة مستقلة (dominion) فى المغرب ولكن فكرة إنشائها تلقى عناية متزايدة فى باريس عن طريق تمثيل المسلمين فيها . ولوقارنا أفريقية الشمالية الفرنسية وأفريقية الجنوبية البريطانية تبين لنا أن بين الأقليمين اختلافاً جوهرياً رغم شبه ظاهرى ، فى المغرب ٨٠٠٠٠٠ من النزلاء الأوربيين (١٨ فى المئة من مجموع السكان) أمام ٥٠٠٠٠٠٠ من الوطنيين الذين يعيش ٣٠٠٠٠٠ منهم عن الطريقة الأوروبية و ١٥٠٠٠٠ منهم عاشوا

في فرنسا ومن بين هؤلاء ٢٠ في المائة قضوا فيها أكثر من سنتين . أما في جنوب افريقية فهناك ١٧٠٠٠٠٠٠ أوروبى (٢١ في المائة من مجموع السكان) أمام ٥٣٠٠٠٠٠ من الوطنيين ولكن هؤلاء من الجنس الاسود وكثيراً ما تكون عقيلتهم منحلة جداً ولم يتأثروا بالروح الانجليزية إلا تأثراً ظاهرياً جزئياً ثم هو يؤدى بسرعة إلى حركة كراهية د اتبوية ، وبحول دون إمكان تزواج جنسى كالذى استقر فى الاذهان نهائياً فى المغرب .

الفصل الثالث

مصر وآسيا الغربية (١)

بقلم الأستاذ الدكتور ج . كامبفاير

لقد بدأت تشيع أخيراً فى العالم الاسلامى حركات لم يسبق لنا بها عهد حتى السنوات الاخيرة ، فقد تنبعت قوى دينية وخلقية عظيمة لا بد أن نعرفها حق المعرفة ، وكلما حللنا جوهر هذه القوى ، بعد الدراسة المفصلة للوقائع ، كنا أكثر قدرة على البت فيما يحتمل أن تبلغه من نمو وفيما يمكن أن تحدثه من تأثير ، وإذا قمنا ببحث علمى كهذا فربما تكون له قيمة عملية أيضاً .

والبلاد التى سأتناولها بالبحث هى : مصر وجزيرة العرب والعراق وفلسطين وسوريا وتركيا وفارس والافغان . ولكل واحدة من الثلاثة

(١) قد روى حذف بعض التفاصيل المعروفة لدى جمهور القراء وليرجع القارىء للقانون الاساسى لجمعية الشبان ولجلتها فى السنين الاولى . ولم يعن المترجم فى هذا الفصل إلا بنقل المعنى وفى أجمال أحيانا .

المذكورة أخيراً مميزاتها الخاصة ، هي تختلف بعضها عن بعض وعن سائر البلاد التي قبلها ، ولغة كل منها قلما تعرف في الأخرى وفي سائر العالم الإسلامي ، وليس فيها حركات إسلامية تبعث أى اهتمام في البلاد الأخرى أو في أى جهة من بلاد الإسلام . أما في مصر والجزيرة العربية والعراق وفلسطين وسوريا فالأمر مختلف جداً عما سبق ، هذه البلاد تشترك في صفة هامة : فالعربية لغة لجميعاً ولغة المغرب ولغة جاليات عربية كثيرة متفرقة في العالم كله ، وإلى جانب هذا فإن العربية ، وهي لسان الإسلام غير مدافع ، تدرس وتعرف حق المعرفة في العالم الإسلامي كله من المحيط الأطلسي إلى الهند وجاوة وبذلك تسهل إنتشار الحركات الروحية إنتشاراً يتجاوز بكثير حدود البلاد التي تنشأ فيها ، ويعين على إنتشارها عوامل أخرى أكبرها الصحافة العربية التي بلغت مبلغاً عظيماً من الرقي ، ولا سيما صحافة القاهرة التي هي المركز الفكري للعالم الإسلامي ، ويلعب الحج دوره أيضاً في المزج الروحي بين مختلف شعوب الإسلام ، وإن تجاوز البلاد في الشرق الأدنى الناطق بالضاد ، وبوجه أدق في المساحة التي تشغلها مصر وجزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين ، ورقى وسائل المواصلات إلى جانب نشاط الصحافة تعمل بوجه خاص على إنماء العواطف والأمانى الإسلامية العامة ، فإذا قامت حركات إسلامية ذات شأن في إحدى هذه البلاد استطعنا أن نتصور جيداً ما يمكن أن تحدثه من تأثير وما يمكن أن يكون لها من خطر .

وأحب أولاً أن أنبه القارئ إلى حركة انبثقت في مصر فكانت أكبر دلالة على الحالة العقلية الحاضرة لا في مصر فحسب بل في كثير من البلاد الناطقة بالضاد ، وقد رأيت أن أقصر الجزء الأكبر من مقالتي على وصف الجمعية الشبان المسلمين مختصر شامل قدر الطاقة ، ورأيت أن هذا يستحق مأساً بذله من وقت وجهد لما يؤتينا من قدرة على الحكم في المسألة التي ندرسها . يشبه

إسم هذه الجمعية إسم « جمعية الشبان المسيحيين » ، كثير الشبه وإن كان للأولى
بميزاتها الخاصة .

وضع القانون الاساسى للجمعية فى القاهرة فى سنة ١٩٢٧ وهو خمس
وعشرون مادة تنص الاخيرة على أن فى هذا القانون ثلاث مواد لا يصح
تغيرها بحال وهى الاولى والثالثة والسادسة ، تقرر الاولى إسم الجمعية
وتأليفها والثانية ما يشترط توفره فى العضو العامل وهو أن يكون مسلماً حسن
السيرة طيب السمعة غير معروف بنزعة تخالف أصل العقيدة الإسلامية ،
والمادة السادسة أهمها وهى تقرر أغراض الجمعية (١) بث الآداب والأخلاق
الإسلامية (٢) السعى لآنارة الأفكار على طريقة تناسب روح العصر
(٣) العمل على إزالة الاختلاف أو الجفاء بين الطوائف والفرق الإسلامية
(٤) الأخذ من حضارتى الشرق والغرب بمحاسنهما جميعاً وترك ما فىهما من
مساوىء ، وينص القانون الاساسى على أن الجمعية لا تعرض لشئون السياسة
بجال وعلى تأسيس ناد لالقاء المحاضرات العلمية والاجتماعية ، وتنوى الجمعية
إذاعة نشرات بأى لغة تدعو الحاجة إلى إستعمالها .

ولنلفت ذهن القارىء إلى نقطتين الأولى نص المادة ٢٣ : « للجمعية أن
تنشئ فروعاً فى القطر المصرى وشعباً فى الأقطار الأخرى وتسكفل اللائحة
الداخلية بتحديد الصلة بين المركز وهذه الشعب والفروع ، وسنرى أن هذه
المادة أتبع إلى حد كبير فيما بعد .

أما النقطة الثانية فهى مسألة رئاسة الجمعية ، يتكون مجلس الإدارة من إثني عشر
عضواً منتخباً منهم رئيس ووكيل وأمين للصندوق وكاتم سر عام والباقيون
أعضاء وللأعضاء الذين اتخبوا سنة ١٩٢٧ شأن خاص فالرئيس هو الدكتور
عبدالحمد سعيد بك والوكيل (المرحوم) الشيخ عبدالعزيز جاويش مراقب
التعليم الأولى بوزارة المعارف المصرية والمشهور باهتمامه وكتابته فى الشئون

الإسلامية وأمين الصندوق (المرحوم) أحمد باشا تيمور وهو من أبرز رجال الحياة العلمية الحديثة في مصر وكاتم السرايا العام الأستاذ محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلتي «الزهراء» و«الفتح» والأولى تحوى مواضيع فى الثقافة العامة كالهلال والمقطف ولكن على قواعد إسلامية والثانية صحيفة يقدرها المسلمون حق قدرها وتبحث فى السياسة والأخلاق والمسائل الدينية الإسلامية، أما الأعضاء الآخرون فهم الأساتذة محمد الخضر حسين بقسم التخصص بالأزهر وأحمد إبراهيم بكية الحقوق ومحمد أحمد الغمراوى بكية الطب وخريج جامعة لندن والدكتور يحيى أحمد الدرديرى خريج جامعة جنيف والدكتور على مظهر خريج جامعة فينا والأستاذ محمود على فضلى بمدرسة المعلمين العليا ومحمد أفندى المهياوى الصحافى المصرى وعلى بك شوقى سكرتير وكيل وزارة المعارف المصرية .

ومن المهم أن نلاحظ سمو مستوى هذا المجلس ، فالأعضاء الثمانية شبان فى عنفوان الشباب ويمثلون نواحى هامة من الحياة المصرية ففهم الموظفين والصحفى وفهم أساتذة فى الأزهر والمدارس العليا أعرف ثلاثة شبان منهم تلقوا دراسات متينة فى جامعات لندن وجنيف وفينا وبهذا نجد الثقافة الانجليزية والفرنسية والألمانية ممثلة كلها إلى جانب الثقافة المصرية الوطنية . وقد نال هؤلاء الشبان تأييد شخصية فذة جداً كالمرحوم أحمد باشا تيمور وتأييد غيره من زعماء المسلمين ثم إن الرئيس ، الدكتور عبدالحيد سعيد ، معروف جيداً عند كل المشتغلين بالسياسة المصرية وهو من أنشط الوطنيين المصريين وأكثرهم حماسة ومن أعضاء البرلمان المصرى ، وقد اختار شبان الجمعية هذا الرجل رئيساً لهم بل منحوه الرئاسة مدى الحياة مادام متمسكاً بأغراض الجمعية ، وإذا كان قد رفض هذه المنحة ورضى أن يكون رئيساً لمدة أربع سنين أسوة

بأعضاء مجلس الإدارة فإن من المهم أنهم منحوه الرياسة مدى الحياة على الشرط المتقدم . ونستطيع أن نضع هذه الحقيقة بازاء حقيقة أخرى وهى أنه حينما نوقش انقانون الأساسى اقترح البعض تسمية الجمعية « جمعية الشبان المصريين » بدلا من « جمعية الشبان المسلمين » ثم تقرر الاسم الثانى وكان القرار خطيراً بقدر ما كان الاقتراح .

ولا شك فى أن نفوس هؤلاء الشبان تنطوى على روح وطنية قوية جداً ولكن فيها الأسلام إلى جانب الوطنية وبتسميتهم جمعيتهم قرروا أن يكونوا شباناً مسلمين ، وإن الشرط الذى فرضوه على رئيسهم كان دليلاً على إلزامه بالمحافظة على غايات الجمعية الدينية والخلقية ، وليس الأمر قاصراً على الجمع بين الروح الوطنية وبين الأسلام ، إذ يتضح من الوقائع التى أشرت إليها ومن وقائع أخرى سأتناولها فيما بعد ومن حقائق خبرتها بنفسى أن مبدأ مؤسسى الجمعية هو خدمة بلادهم وخدمة الشرق ، والأسلام فى البلاد الإسلامية عنصر من الماضى القومى ومن الفردية الحديثة لشعوب الشرق ، ومن يرغب فى التمسك بالقومية ينزع إلى التمسك بالأسلام أيضاً . ولكن زعماء الجمعية تحركهم فكرة أخرى فهم لا يزالون مقتنعين أن إنماء القومية الصحيحة القوية وصياغتها مستحيلان فى الشرق إذا انصرف الناس عن الدين والاخلاق ، الأمر الذى يسهل وقوعه من الاتصال بالمدينة الغربية حتى ليذهب البعض إلى أنه يجب أن يكبح جماح الشبان فى مصر والشرق عن أن يفعلوا ذلك ، يجب أن يعتصموا بالدين ويتمسكوا بالاخلاق الفاضلة لكي يخدموا بلادهم وفى هذه البلاد يجب أن يكون الأسلام أساس الحياة القومية .

ولكى نفهم كل نواحي الجمعية يجب أن نضع نصب أعيننا هذا المبدأ الذين يدين به أعضاؤها ، وعلى هذا الأساس نمت الجمعية منذ نشأتها إلى اليوم نمواً لم يؤلف من قبل ، وأستطيع القول إنها الحركة الفذة العظيمة فى البلاد العربية ،

في أيامنا هذه ، ولا نبالغ مهما قلنا عما لها اليوم وفي المستقبل من خطر وتأثير ،
ويظهر أن شبان القاهرة قالوا كلمتهم في الوقت المناسب وأن العقول قد تهيأت
حتى أن ما كان كامنا ظهر بغتة إلى حيز الفعل .

أما عن الشعب التي أنشئت خارج مصر فقد أسس الكثير منها في فلسطين
وسوريا والعراق ، فمنذ إبريل ١٩٢٨ نوقش في مؤتمر الجمعيات الإسلامية
المنعقد في يافا القانون الأساسي لجمعيات الشبان المسلمين المزمع إنشاؤها في
فلسطين واتفق عليه وهذه الجمعيات تشبه في جوهرها جمعيات القاهرة وقد أصدر
المؤتمر قرارات أخرى نذكر اثنين منها لا نتنا سنواجه موضوعيهما فيما بعد ،
وكان الأول خاصا بإذاعة بيان يحض المسلمين على زيادة عدد المدارس الوطنية
ويحذرهم من مدارس التبشير وكان الثاني خاصاً بتقوية حركة الكشافة المسلمين
وبمناسبة هذا المؤتمر تحولت جمعية إسلامية كانت في يافا إلى « جمعية شبان مسلمين » ،
وسرعان ما تأسست بعد ذلك جمعيات أخرى كثيرة في القدس وعكا وحيفا ،
ونالت جمعية حيفا خاصة تأييد رجال نضجت عقولهم بل حنكتهم السنوات حتى
أن صحيفة الكرمل العربية أفصحت عن عدم رضاها عن ذلك قائلة إن شبان
فلسطين خاضع كثيراً لسلطان الشيوخ والمأمول أن يتحرروا من هذا السلطان
وأن يطالبوا بحرية تامة في الفكر ولا يهتدوا إلا بسنا الأوامر الخلقية والاجتماعية
التي جاء بها نبيهم .

أما في العراق فقد أظهرت جمعيات بغداد والبصرة نشاطاً عظيماً ، فأذاعت
جمعية البصرة نشرات وجهتها إلى الشبان المسلمين وأكدت فيها ما فرض عليهم
من واجبات خلقية شديدة الإلحاح وأبانت ما ينتج عن الإخفاق في هذه الواجبات
من وبال ، ويضيق المقام عن تعداد كل ما جاء في تلك النشرات الممتعة ، فمنها ما يحض
المسلمين على اجتناب الخمر وعدم قرب الزنا واجتناب الميسر والأعراض عن
المسارح والمقاهي وادخار المال لوقت الشدة وحب الوطن وإيثار متجاته ومصنوعاته

ثم تنتهى بلفت الأذهان إلى جمعية الشبان التى أنشئت لتضطلع بنشر الأخلاق والثقافة الإسلامية ومحاربة الرذائل والقائم المحاضرات الدينية والخلقية والاجتماعية المتنوعة وتحض الناس على سماع هذه المحاضرات وعلى الانضمام للجمعية ومنحها المعونة المادية والأدبية ، ومن تلك المنشرات ما يزهده فى أوراق اليانصيب ويدعو إلى تشجيع المدارس الوطنية والجمعيات الخيرية والعناية بتربية الأبناء ووقايتهم قرناء السوء وغرس حب الفضيلة فى قلوبهم وتلفت نظر الناس إلى أنهم مسئولون عن أبنائهم أمام الله وتحذرهم من المدارس الأجنبية إلا بعد إعدادهم بقوة العقيدة الإسلامية وبالاخلاص للوطن وتبغض الرذائل للناس وتقرر أن من أصول الإسلام الأساسية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكل الجمعيات التى فى خارج القطر المصرى والفروع التى فى داخله مستقلة بذاتها ، وليس هناك — فيما أعلم — قيادة مركزية ، غير أن الشعب والفروع متصلة بالجمعية المركزية التى فى القاهرة أوثق اتصال ، كما أن اللامحة الداخلية لهذه الجمعية تقضى بوجود مؤتمر يسمى « مؤتمر مجالس الإدارة » ، وقد عقد مؤتمر من هذا القبيل فى القاهرة يومى ١٤ ، ١٥ صفر ١٣٤٩ (١٠ ، ١١ يولييه سنة ١٩٣٠) حضره ممثلون من جمعيات فلسطين ومن جمعيات مصر ، على أن التمثيل لم يكن شاملاً . ونوقشت فى هذا المؤتمر مسائل واتخذت فيه قرارات . وجمعية القاهرة أكبر جمعيات الشبان المسلمين خطراً وأقواها تأثيراً فأرى لذلك أن أصور بقدر الامكان مدى نموها . لهذه الجمعية ناد أمام دار البرلمان المصرى (١) إذادخلته رأيت شباناً يمارسون مختلف الألعاب وشباناً يتناولون المنعشات الخفيفة التى لاخر فيها أو يلعبون الشطرنج أو ما يماثله . وإذا زرتة مساء

(١) وضع الحجر الأساسى لدار جديدة للجمعية بالقاهرة فى ربيع الأول سنة ١٣٥٣ (يونيه سنة ١٩٣٤)

فربما شهدت حفلة موسيقية ذات ألحان شرقية وغربية وأدهشتك حماسة وحذق هؤلاء الموسيقيين الناشئين ، ترى مكتبة حافلة بكثير من الكتب الثمينة من عربية وغير عربية ، والمحاضرات تلقى بانتظام ويمتلىء اننادى بالزوار فى كل ساعة من النهار تقريباً ، ولا ترى هناك قبعة إلا إذا كانت لزائر أوروبى أو لمحمود عزمى الأديب المصرى الوحيد الذى يلبس القبعة ، ترى الطربوش إلى جانب العمامة والشبان والكهول وأساتذة من الجامعتين الأزهرية والمصرية وأدباء ومعلمين ورجالا من كل طبقات المجتمع وقد تلقى — كما لقيت — أمير الشعراء (المرحوم) شوقى بك وغيره من رجالات مصر وكثيراً ما تلقى الأجنبى ومشاهير المسلمين من بلاد العالم الإسلامى وقد تصغى إلى أحاديثهم وتسمع محاضراتهم .

وإن أعظم منبع نستقى منه معلوماتنا عن نشاط الجمعية هو المجلة التى تنشرها ، وتدل المقالة الافتتاحية من العدد الأول (اكتوبر سنة ١٩٢٩) على حركة الجمعية دلالة تامة فعنوانها : حاجتنا إلى الإصلاح ، مبدؤنا وخطتنا ، يقول كاتب المقال وهو رئيس تحرير المجلة الدكتور يحيى الدرديرى : إن ما أصاب الأمم الإسلامية من الانحلال والضعف يدعو كل مفكر إلى تعرف الأسباب والبحث عن أنجع الوسائل للعلاج ، ويرى أن الفوضى الخلقية التى أصابت المجتمع الإسلامى ترجع إلى أسباب كثيرة أهمها الجهل المنتشر ، وتقليد المسلمين لسيئات المدنية الغربية ، وإهمال المتعلمين واجباتهم نحو محاربة البدع والضلالات التى سرت فى جسم الأمة سريان الحى فى جسم المريض ، ويقول إن للمسلمين دواءً واحداً ، هو الرجوع إلى القرآن وأخذ الأخلاق من أوامر الله ، وينادى بأن يكون القرآن أساساً ونبراساً ومصدراً للنهضة الخلقية بين المسلمين ، هذه النهضة التى لا تصلح بدونها نهضة اجتماعية أو اقتصادية أخرى ، وإنه ليحسن أن نلاحظ أن الذى يرسم هذا البرنامج ليس شيخاً من قدماء المحافظين بل هو دكتور فى

القوانين وحامل للسانس في العلوم السياسية من جامعة جنيف. يبين عن أسباب دفاعه عن القرآن بقوله ، إن أدب القرآن مؤسس على الدعوة إلى الإصلاح والعمل لخير المجتمع ، وعلى حرية العلم والفكر وهما أساس النهضة الصحيحة ، وإنه يدعو إلى التسامح وإلى تضامن النوع الانساني ، واستشهد على آرائه باقتباس نصوص كاملة من آيات القرآن وبشرحها : وفي مقال آخر عنوانه « داؤنا ودواؤنا » (مايو ١٩٣١) يصف الكاتب نفسه الفوضى الخلقية السائدة بين المسلمين اليوم ويرثي لها رثاء صادقا فيرى أن الناس أصبحوا لا وجهة لهم في حياتهم ولا قاعدة يسرون عليها ، فيجب عليهم أن يجعلوا الله وجهتهم وأن يروضوا أنفسهم على اتباع أوامره واجتباب نواهيه ، ومن جعل الله غايته فقد فعل الخير وصار حب الانسانية والعمل على خيرها قاعدته الخلقية ، ويرى أن الناس اليوم استسلموا شهواتهم وأطماعهم ، فيجب على الأفراد والجماعات أن يحاربوا هذه المساوىء أشد المحاربة ، ويستشهد من التاريخ على أن مثل هذه الحركات الإصلاحية لا بد أن تواجه عقبات ومصاعب كثيرة ، فيجب أن يتذرع زعمائها بالشجاعة ورباطة الجأش وأن يوجهوا عقول مجبي الإصلاح وكل من يقصرون جهودهم لخدمة البلاد ويعملون على بلوغ الحياة الصحيحة .

من هذا نستطيع أن نرى ما يبرر وجود مقالة عنوانها . « الدين فوق كل شيء » (عدد ٨ - ١٠) ومقالات أخرى في مواضيع دينية مثل النبي (صلى الله عليه وسلم) وسيرته ، والقرآن الذي هو أولى دعائم الإسلام ، والحديث دعائمه الثانية ، ومناقشة الشبهات التي تساور الشبان في أمر الخلاف بين الدين والعلم . ولا نرى في المجلة شيئا من ضيق العقل أو حرج الصدر ولكن فيها فهم صحيح لما تحتاجه العصور الحديثة من مطالب الدين كالتمسك بالجوهريات وتأكيدها بقوة وترك ما هو عرضي المرتبة . وإذا كنا نحتاج

إلى الدين لتأثيره فى الإخلاق فطبيعى أن نجد فى المجلة مقالات كثيرة فى مسائل خلقية ونفسية بحتة كتقوية الإرادة وفى ردائل كالبخل والانتحار وفى فضائل كالكرم والأيثار، ونرى الحكم والأمثال مشورة فى ثابا المجلة .

إن الغاية التى تشدها جمعية الشبان المسلمين لاصلاح الحالة الدينية والخلقية هى تربية جيل من الرجال جديد قادر على الاضطلاع بأعظم الأعمال خدمة للبلاد فى كل فرع من فروع الحياة الحديثة ، فى العلاقات الاجتماعية ، فى التعليم ، فى الحياة العامة ، فى العلم والفن ، وأى شىء أبلغ أثراً فى عزيمه الشباب من قدوة عظماء الرجال ؛ لذلك نرى فى المجلة مقالات عن مشاهير رجال الإسلام وتاريخ الشرق : كآبى بكر ، أول الخلفاء الراشدين ومثال التفانى فى القيام بالواجب ، وعمر ، ثانى الخلفاء ومثال الحاكم الديمقراطى العادل ، ومحمد على المؤسس الأكبر لمصر الحديثة ورأس الأسرة المصرية المالكة ، وجمال الدين الأفغانى المصلح الشهير والسياسى المسلم ، ومصطفى كامل بطل الوطنية المصرية الحديثة . وهناك من جهة أخرى سير رجال مثل بنيامين فرانكلين وأبراهام لنكولن وإديسون وغيرهم ، بل هناك سير رجال على قلة شهرتهم معروفون بما أظهروا من صفات ممتازة فى حياتهم العملية . وفوق هذه المقالات التى تمس الدين والإخلاق والمثل العليا للنشاط الإنسانى نرى مقالات فى مواضيع علمية عيممة الفائدة أو ذات صلة بالأفكار الفلسفية العامة ، ولكن معظم المقالات تتناول الحاجات الأولى للحياة الوطنية فى مصر وفى بلاد الإسلام كمسائل التعليم وحالة المرأة والمسائل الاجتماعية والطب والفنون والصناعة من غزل ونسج والأموال الاقتصادية ، كما تبحث مقالات أخرى فى الألعاب الرياضية وفى الكشافة ، فيذكر مثلاً إن البرنس عمر باشا طوسون أنزل كشافة فرع الاسكندرية وغيرهم ضيوفاً عنده ، وتعلق الجمعية أهمية كبرى على تقوية الجسم .

والجمعية عناية خاصة بالمسائل الاجتماعية . وأذكر تقريراً لـ ألفرد نيلسن
الذى تتبع الصحافة العربية في دمشق بين سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٨ وأذاع بياناً عن
نتيجة بحثه . فأما عن المسائل الاجتماعية فهو ينبئنا أن في صحف سوريا وفي
حياتها اليومية نفتقد عنصراً يعنى به عناية عظيمة في الغرب ، هو التعاون
والتضامن للعناية بالحياة العامة ، ثم يقول : « إن المسألة الكبرى هي : هل
يمكن أن يجتمع كل هذا وروح الإسلام ؟ سيرينا المستقبل إن كان في مقدور
الإسلام أن يبعث في نفوس معتقيه حبة الجار وأن يحافظ عليها ، تلك المحبة
التي هي أساس كل المشروعات الاجتماعية . أما في مجلة جمعية الشبان
فالأمر مختلف كل الاختلاف عما وجدته المستر نيلسن . إذ نجد هنا إصراراً
على التعاون وتضامناً للعناية بالحياة العامة ونجد التواصى بالمشروعات الاجتماعية
قوياً ، فالدكتور الدرديري ألف كتاباً في التعاون وتناول التعاون فيما لا يقل
عن إثني عشر مقالاً في المجلة ، فكتب عن التعاون في فرنسا ودينمارك ، وعن
إعانات المرضى ودفن الموتى والتعاون في حالات البطالة ومصارف الاقتراض
وهو يصر خاصة على حاجة مصر إلى التعاون الزراعى ، وخصص مقالاً
مستقلاً للمصلح الاجتماعى د روبرت أوين ، (٢ - ١)

من هذه التفاصيل التى ذكرت للآن تبين الصفات الجوهرية للجمعية
وكيف عمل أعضاؤها بنصوص قانونهم ، ولكي أتم كلمتى لا بد أن أبحث
ناحية هامة من نشاط الجمعية تبدو في المجلة وكأنها مناقضة للمادة الثانية من
القانون الأساسى الذى يقول : « لا تعرض هذه الجمعية للسياسة
بأى حال ، .

الواقع أن المجلة لا تعرض لداخليات الحياة السياسية في مصر ولالصلة
مصر بالدول الأخرى كمسألة الامتيازات أو مركز إنجلترا في مصر وليس
فيها دعابة للآمانى السياسية التى توحى للناس فكرة اتحاد البلاد الشرقية

كالوحدة العربية ، وليس فيها دعاية للجامعة الإسلامية أو لما يشبه خطط عبد الحميد الثاني أو جمال الدين الأفغانى فى الناحية السياسية ، هؤلاء الشبان إنما هم شبان مسلمون ومسلمون مخلصون والمسلمون إخوة وليس شعور الإخوة هذا محصوراً فى بلاد واحدة ولكن الشعور الإسلامى ، على الخلاف من ذلك ، شعور دولى بالضرورة ، فإدام هؤلاء الشبان مسلمين مخلصين ومجاهدين لأعلاء كلمة الإسلام فانهم يعنون أكبر عناية بكل ما يتصل بالإسلام من أحداث ، ويتأثرون بأبلغ التأثير إذا مس الإسلام أو الجماعات الإسلامية أى إعتدائه أو إذا خيل لهم أن هناك مثل هذا الاعتداء فى مصر أو فى خارجها ، عند ذلك ينهضون للأمر بقوة ، وإذا أتى ذلك الاعتداء الحقيقى أو المتوهم من ناحية سلطات سياسية فإن احتجاجات الجمعية وأعمالها تبدو ذات لون سياسى .

وأهم الأحداث التى حركت شعور الجمعية الإسلامى فى السنين الخمس الأخيرة . هى : (١) الانتقاد الموجه للإسلام فى مصر فى المحاضرات العامة والرسائل ولا سيما من جانب المبشرين المسيحيين ، (٢) حوادث فلسطين المتعلقة بجدار المبكى بالقدس فى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، (٣) سياسة فرنسا حيال بربر مرا كش فى ١٩٣٠ ، (٤) وسائل الاستعمار الإيطالى القاسية فى طرابلس والفضائع التى نسبت لهم فى ١٩٣٠ ، (٥) إعدام الإيطاليين أخيراً للزعيم الطرابلسى المرحوم عمر المختار .

(١) أما عن الانتقاد الموجه للإسلام فقد أصدر فرع الإسكندرية قرار احتجاج (مايو ١٩٣٠) كما فعل مثل ذلك مؤتمر مجالس الإدارة المعقود فى القاهرة (يوليه ١٩٣٠) ، وكان من أثر المحاضرة التى ألقاها الدكتور فرج ميخائيل فى الجامعة الأمريكية أن حفزت الجمعية إلى إرسال خطاب لوزير الداخلية بمصر وآخر لشيخ الأزهر ، وتقول المجلة ، فى مقال عنوانه : « واجب الحكومة

إزاء أعمال المبشرين ، ، إن القانون المصرى يسمح للمبشرين أن يبينوا محاسن دينهم ولكنه يمنع مهاجمة دين الاغلبية الساحقة بالطعن والنقد منعاً باتاً ، وإن مثل هذه الاعمال تخلق الاضطرابات وأنواع الشقاق الممقوت بين الطائفتين من أهل مصر ، وجاء فى الخطاب المرسل لوزير الداخلية أن حركة الاصلاح والتجديد يعترها الاضطراب من جراء مهاجمة أصول الاسلام التى وهب السواد الأعظم لها نفسه والتى سيضحي من أجلها أكبر التضحية .

(٢) أما فلسطين فمعروف جيداً أن مسألة إنشاء وطن قومى لليهود فيها أدت إلى مصاعب خطيرة فلا يزال عرب فلسطين - فى جملتهم - من مسلمين ومسيحيين يعدون الاستعمار اليهودى متفصلاً لحقوقهم ، مهدداً لمستقبلهم ، وقد فهم المسلمون منهم خاصة أن فى أعمال وبيانات خاصة للصهيونيين انتهاكاً لحرمة حقوقهم المقدسة فى أرض الحرم الشريف الذى يعد جدار المبكى جزءاً منه ، والحرم الشريف القائم على مكان كان فيه المعبد اليهودى المنهدم سنة ٧٠ م ، مازال بمسجديه المكرمين منذ القرن السابع الميلادى أقدس بقعة فى العالم الاسلامى بعد مكة والمدينة . وقد نشأت عن الحوادث المتعلقة بالمبكى اضطرابات خطيرة فى أغسطس ١٩٢٩ قتل فيها أكثر من مائة يهودى وما يساوى ذلك تقريباً من العرب ، وبعد وقوع الاضطرابات مباشرة أرسلت جمعية الشبان تلغرافات لجمعية الامم ولوزارة الخارجية البريطانية وللبندوب السامى فى القدس وللجنة التى عينت للفحص فى الاضطرابات وللجنة الدولية التى عينتها الحكومة لتقرير حقوق المسلمين واليهود ودعائهم فيما يختص بجدار المبكى فى القدس (يوليه ١٩٣٠) وجاء فى أول هذه البيانات أن مسلمى فلسطين كانوا ملتزمين الهدوء حتى تحداهم اليهود ، وأن موقع البراق عند المبكى الذى يدعيه اليهود لأنفسهم بقعة يقدسها المسلمون وهم فى كل بقاع الارض يمدون أنفسهم جنداً يقفون فى صف مسلمى فلسطين ليدافعوا عن أمانة أو تمنوا عليها ، وأنهم لن يسمحوا للصهيونيين أن

يتخذوا مكاناً يقدسونه مركزاً لدعايتهم الوطنية ما بقي على ظهر الأرض مسلم واحد وما دام يجرى في عروقه دم الحياة . وبعد هذه التكلفة العظيمة جمعت الجمعية إعانات لتساعد بها الأُسْر الفلسطينية التي أصابها نتائج الاضطرابات . (٣) وأما مرا كش فإن للسياسة الفرنسية إزاءها نزعة عامة يعرفها العالم الإسلامي حق المعرفة ويسخطها سخطاً شديداً ، وقد أثارت بعض الأجراءات الفرنسية غضباً شمل العالم الإسلامي كله وبلغ في شدته وشموله ما لم يبلغه أى غضب أصاب المسلمين في السنوات الأخيرة ، تسود السياسة الفرنسية نزعة ترمى إلى أن تفصل أهل مرا كش عن العالم الإسلامي ماوسعها ذلك ، ويقال إن الصحف العربية لا يسمح لها بدخول مرا كش ماعدا صحيفة من صحف القاهرة معروفة بعلاقتها بالمصالح الفرنسية ، وأشد من ذلك أن الفرنسيين لا يحبون نهضة اللغة العربية في مرا كش ولا سيما بين البربر . هؤلاء البربر الذين يخافون العرب جنساً ولغة ويكونون كتلة قوية من السكان تبلغ سبعة ملايين يسكنون الأقاليم الجبلية من البلاد ، وهم مسلمون بالطبع بل قد لعبوا دوراً هاماً في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى ، ولكنهم إلى جانب لغتهم البربرية احتفظوا بقوانين عرفية خاصة بهم ، وقد حاولت فرنسا في ١٩٣٠ ، تذرعا بهذه القوانين ، أن تدخل بين البربر قوانين جديدة تشمل كل المسائل المدنية والتجارية وتشمل خاصة كل المسائل الاجتماعية القانونية في الأحوال الشخصية وفي حقوق الميراث ، فلم يكن بد من إلغاء الشريعة الإسلامية وصار رئيس القبيلة هو الذي يمارس السلطة القضائية بدلا من القاضي ، وجعل تنظيم القضاء من حق السلطات السياسية أى من حق فرنسا ، هذا المشروع الذي وضع في صورة «ظهير» في ١٦ مايو ١٩٣٠ هو الذي أثار سخطاً عم بلاد الإسلام كلها لأنه فضح ما تنويه فرنسا من فصل بربر مرا كش ، وهم جماعة إسلامية لها خطرها ، عن العالم الإسلامي وما زاد السخط وروذ أنباء الوسائل التي اتخذت

في نفس الوقت لتصوير البربر .

اشتركت جمعية الشبان بحماسة خاصة في إظهار السخط العام فوجهت نداء جاداً حازماً مهوراً بامضاءات كثيرة إلى كل ملوك الإسلام وشعوبه، وأرسلته إلى علماء مكة والمدينة والأزهر وإلى الهيئات الدينية في مصر وتونس وفاس والهند والعراق وأندونيسيا (ولا سيما سومطرة وجاوة) وإلى نهضة العلماء في سوريا وإلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس وبيروت والجمعية العلماء في كابل وجمعية تقدم الإسلام ، في الصين و لكل الصحف الشرقية من غير تمييز بين لغاتها ولهجاتها ، وفوق ذلك أرسلت وفداً لرئيس الديوان الملكي وطلبوا إليه أن يلفت نظر جلالة الملك إلى النداء سالف الذكر، وفوق هذا النداء جاء في المجلة مقالات تفند اثنتان منها المحاولات التي عملت لتبرير الاجرامات الفرنسية ، وقد نشرت الصحيفة العربية التي أشرنا إليها مقالا دافعت فيه عن فرنسا، ونشر وزير فرنسا المفوض في القاهرة بياناً، ونشر في المجلة النص الكامل للاحتجاج الذي وجهه باسم مسلمي فلسطين رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس وسلمه لقنصل فرنسا العام في القدس ، وكان صدى هذا النداء في جاوة باعثاً للمفوضية الفرنسية هناك على أن تنشر على جانبه بيانات رسمية تلتطف الوقائع ، ونشرت مجلة « الرابطة العلوية » دحضاً لها ختمه الكاتب بقوله : أما نحن فنرى شيئاً واحداً وهو أن فرنسا تتجاهل المسلمين إلى حد اعتبارهم مخلوقات لا عقل لها ولا تمييز .

ولا نريد التعرض هنا للحوادث التي وقعت أو يقال إنها وقعت في طرابلس وبرقة ، وعلى كل من يهتم بها وبالأثر القوي الذي أحدثته في العالم الإسلامي أن يرجع إلى المجلة التي يصدرها في جنيف الأمير شكيب أرسلان باسم (La Nation Arabe) (الأمة العربية ، أعداد ديسمبر ١٩٣٠ وأعداد مختلفة من ١٩٣١) أما جمعية الشبان فقد دعت إلى عقد اجتماع خاص قرر إرسال بيان

إلى جمعية الأمم ونشره في العالم الإسلامي (المجلة يونيه ١٩٣١) وتقرر أيضاً إرسال وفد إلى طرابلس وبرقة ليتأكد من صحة الوقائع ، وتنفيذاً لهذا القرار أرسل مجلس إدارة الجمعية لوزير إيطاليا المفوض في القاهرة يطلب تحديد موعد لزيارة وفد من أعضاء الجمعية للبحث في الطريقة التي يمكن بها إرسال الوفد إلى طرابلس ويقترح أيضاً أن يكون أحد العلماء الإيطاليين المقيمين بالقاهرة عضواً في ذلك الوفد . لم يتلق مجلس الإدارة رداً كما هو مبين في المجلة ، الأمر الذي زاد كثيراً في سخط الجمعية — وقد جمعت الجمعية إعانات لطرابلس في يولييه ١٩٣١ . ويظهر في كثير من المقالات الأخرى ذلك الاهتمام الذي توجهه الجمعية للعالم الإسلامي ويكفي أن أشير إلى احتجاجها على إغلاق المساجد في تركيا وعلى مهاجمة روسيا السوفيتية للإسلام بإغلاق المساجد والاستيلاء على أوقاف الجاليات الإسلامية (يولييه وأغسطس — سبتمبر ١٩٣٠)

وواضح أن نشاطاً كهذا تقوم به الجمعية إلى هذا الحد وبمثل هذه المهمة والحصافة لابد أن يثير التفات العالم الإسلامي ويجتذب أحسن العقول وأقوى العزائم ويقود إلى دار الجمعية زواراً من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ويزيد في ذلك أن القاهرة مركز الإسلام العقلي بل مركزه الجغرافي أيضاً ، فلا ندesh — إذن — أن نجد بين ضيوف الجمعية ومحاضريها رجالاً مثل الزعيم الهندي العظيم شوكت علي والاستاذ الثعالبي الزعيم التونسي الذي ألقى محاضرات كثيرة والدكتور « سنكيفتش » مفتي بولنده ، وقد زار شوكت علي الجمعية كثيراً وجعل ناديها مقاماً يقابل فيه زائريه وتقام الحفلات تكريماً له ، ونجد في المجلة مقالات هامة لكتاب غير مصريين وأخص بالذكر اثنتين بعنوان « الحركة الفكرية في مراکش » ، لكتاب لم يذكر إلا الحروف الأولى من اسمه ولكنه عضو في الجمعية . وواضح أنه من أهل مراکش ، في هاتين المقالتين تتجلى الدقة والاحاطة وهما تشفان عن علم تام بشئون مراکش وتمداننا بمعلومات

عن الحركات الفكرية والدينية في تلك البلاد تكاد لا توجد في كل ما ينشر في أوروبا، نعرف من هاتين المقاتلتين نعرف أن في مرا كش حركة إصلاح دينية قومية تنقداً ساليب الاستعمار الأوروبية ، هذه الحركة التي يظهر أنها سائرة بحزم وحكمة تعتمد بالطبع على همم الشباب وتغذى بآراء الشرق العربي ، ولكنهم لم تنل تأييد الأشراف من سلالة النبي ولا تأييد رجال الطرق ، وما يدعو إلى الدهشة أن هذه الفئات التي تمثل القديم تؤيد النظام الجديد ، أعني الاستعمار الفرنسي حتى آيات من القرآن وبأحاديث نبوية وهم كما يقال : كآلات الصماء التي يحركها الإنسان - متى شاء - لما اصطنعها له .

نرى مما سبق أن ليس هناك في الواقع جامعة إسلامية بالمعنى السياسي ولكن هناك ارتباطاً فعلياً بين الجماعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم الإسلامي وشعوراً قوياً بالوحدة ، نما هذا الشعور من تلقاء نفسه - ونما فيما يظهر - إلى جانب مختلف الأحداث التي أصابت العالم الإسلامي ، وسنرى بعد قليل أن توثيق الرابطة الإسلامية إحدى نقط جدول الأعمال في مؤتمر مجالس الإدارة المنعقد في القاهرة في يولييه ١٩٣٠ وقد طال فيه النقاش وأصدرت قرارات كثيرة بالخطوط المختلفة التي يجب تحقيقها ، وإن اجراءات مؤتمر مجالس الإدارة لما شأن خاص لانتها تعطينا فكرة عن الحياة الداخلية للجمعية وعن آراء ونزعات هؤلاء الشباب وتبين الأفكار السائدة الحية في الجمعية ، وقد بحث المؤتمر في مواضيع مختلفة أهمها : وسائل توثيق الرابطة الإسلامية بين الأقطار المختلفة ، وسائل تخريج نشء مثقف تثقيفاً إسلامياً صحيحاً ، وسائل مقاومة حركات التبشير والاتحاد ، وقد ناقش المؤتمر مقترحات كثيرة وأصدر قرارات بهذه المسائل .

أما عن أولى النقاط التي بحث فيها المؤتمر وهي وسائل توثيق الرابطة الإسلامية فقد قدمت اقتراحات ونوقشت نذكر منها : (١) عقد مؤتمر مجالس إدارة جمعيات الشباب المسلمين في بلاد إسلامية مختلفة (٢) تعرف أحوال المسلمين

في الاقطار المختلفة باعداد ملفات في كل جمعية تتضمن أخبار البلاد ويستوثق من صحة المعلومات بكل الطرق (٣) أن يكون للجمعية ميثاق سيدكر نصه فيما يلي (٤) يعهد إلى لجنة من الاختصاصيين دراسة مشروع إنشاء مصرف إسلامي وشركات تعاونية إسلامية وتقديم تقرير عن ذلك للمركز العام للعمل على تنفيذه (٥) عهد إلى لجنة دراسة مشروع إنشاء صحيفة إسلامية يومية وتقديم تقرير عن ذلك . وأصدر قرارات في مسائل أخرى واعتبر بعضها دأمان ورغبات ، يسعى إلى تحقيقها جهد الطاقة منها : تعميم اللغة العربية في الاقطار الإسلامية ، واستخلاص خط الحديد الحجازي للمسلمين ، وحث المسلمين على العمل لاعادة الخلافة (وسنزيد الكلام عن هذا الموضوع) ، وتكوين عصبة أمم إسلامية للفصل في المنازعات الإسلامية .

أما عن التعليم فإن الجمعية تعلق عليه أهمية كبيرة وقد أصدر قراران تنفذهما الجمعية نفسها وهما تأسيس مكتب لتحفيظ القرآن في كل جمعية وإيجاد فرق كشافة إسلامية بالجمعيات ، وأصدر قرار يوصي بأن تكون الاحاديث النبوية المتفق على صحتها موضوعا للوعظ والارشاد ، وهناك مسائل أخرى يتوقف البت فيها على الحكومة وقد قرر المؤتمر السعي لدى الحكومة في (١) تعميم التعليم الديني ودراسة التاريخ الإسلامي في المدارس وجعلهما من المواد الأساسية (٢) تنقية المحاضرات والبحوث في الجامعة من الاحاد وما يتصل به (٣) ترقية الوعظ الديني (٤) العمل بالتشريع الإسلامي لمنع البغاء والخمر والميسر (٥) منع التبرج ومنع أحداث الفتيان والفتيات من غشيان المحال المخلة بالآداب والمحافظة على الآداب في المصطافات (٦) تأليف روايات في موضوعات إسلامية وقصص تبث في الاطفال الروح الإسلامية ، وقد أعرب المؤتمر فيما يتعلق بالتعليم عن دأمان ورغبات ، كما فعل في مسألة الرابطة الإسلامية : هذه الرغبات هي : تأسيس مدارس إسلامية ، وضع تفسير للقرآن تشترك

فى تاليفه لجنة من أهل الفضل ، أن يكون للمسلمين دائرة معارف كبرى .
أما عن مقاومة الإلحاد والتبشير فقد تقرر : إنشاء لجنة علمية لمحاربة
الإلحاد وتنوير الناس فى الدين ، إرسال مندوبين عن كل جمعية للرد على
المبشرين فى اجتماعاتهم ، السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية لتعديل قوانين
العقوبات فى المواد الخاصة بجرية الرأى والبحث بحيث يكون هناك فارق واضح
بين هذا وبين الطعن فى الدين ، السعى لدى جهات الاختصاص لتأليف جماعات
من العلماء للتبشير بالإسلام ونشر الدين على حقيقته .

وللجمعية شارة وعلم أقر المؤتمر شكلهما ولها نشيد ألفه الأديب الشاعر
المعروف مصطفى صادق الرافعى وقد كان تلحينه موضع منافسة بين الموسيقيين
وميثاق الجمعية هو :

« على عهد الله وميثاقه لا قوم بقدر طاقتى : »

١ - بأحياء هداية الإسلام فى عقائده وآدابه وأوامره ونواهيه ولغته
ومقاومة تيار الإلحاد والاباحية المهديين لهذه الهداية .

٢ - أن أكون عاملاً مجاهداً فى سبيل إحياء مجد الإسلام باعادة تشريعه
وإمامته الكبرى .

٣ - أن أبذل جهدى فى توثيق رابطة الاخاء بين جميع المسلمين وإزالة
الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم (٤) أن أسعى لتقوية الامم الإسلامية
بالمعارف التى ترفع مستواها العلمى والاقتصادى والاجتماعى والتى تزيد المسلم
تمسكاً بعتائمه الاسلام وفضائله (٥) أن أعمل على تحقيق أغراض جمعية الشبان
المسلمين وتوسيع نطاق عملها وتكثير سواد أعضائها وتأهيل من أعرفهم من
شبان المسلمين للتخلق بالإسلام الخلاق التى تدعو اليها الجمعية - على عهد الله وميثاقه
أن أقوم بذلك بقدر طاقتى غير مدخر فى ذلك وسعاً والله على ما أقول شهيد ،
ولقد رأينا أننا أن أحد المقترحات التى عرضت على المؤتمر كان خاصاً بالعمل

على إعادة الخلافة الإسلامية وقد رأى المؤتمر أن هذه المسألة من المسائل التي يتعذر عمل شيء فيها الآن، ولكن الأعضاء اتفقوا على إعلان أن إعادة الخلافة الإسلامية يجب أن تكون أمنية كل عضو من أعضاء جمعيات الشبان يعمل على تحقيقها متى سنحت الفرصة ، وفوق ذلك قبل الأعضاء اقتراح الأستاذ محب الدين الخطيب إدخال العبارة الخاصة بالخلافة في ميثاق الجمعية والواقع أن المادة الثانية من هذا الميثاق تتكلم بشكل عام عن الإمامة العظمى في الإسلام ، وهي التي يجب على المسلمين توجيه الجهود لإحيائها ، وإن الموقف الذي اتخذته الجمعية في مسألة الخلافة المشهورة يدل على حالة الرأي العام الآن في الشرق الأدنى الناطق بالضاد في هذه المسألة التي هزت الشرق هزة عنيفة بسبب إلغاء الترك للخلافة العثمانية، ويحسن أن نلخص وقائع هذه الحادثة .

في أول نوفمبر ١٩٢٢ وافقت الجمعية الوطنية الكبرى لجمهورية أنقرة على مشروع إلغاء السلطنة ، ولما هرب السلطان محمد الخامس إلى مالطة في ١٧ نوفمبر عزل في اليوم التالي ونصب ولي العهد السلطان عبد المجيد في نفس اليوم خليفة غير ذي سلطة زمنية ، ورغم أن الشريعة تقضى أن تكون السلطة الزمنية أحد شروط منصب الخلافة فإن عبد المجيد قبل الخلافة على هذه الصورة الجديدة ولم يكده يمضي أكثر من عام حتى قررت الجمعية الوطنية الكبرى إلغاء الخلافة العثمانية نهائياً ، وأخرج عبد المجيد في اليوم التالي وذهب إلى د تيرت ، في سويسرة حيث يعيش فيها وفي بلد د نيس ، إلى اليوم .

وأضحى العالم الإسلامي الذي أزعجه اتزاع السلطة الزمنية من الخليفة في ١٩٢٢ في غاية الاضطراب في ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة نهائياً . وسرعان ما بذلت الجهود للمناداة بخليفة جديد ، فبينما كان الملك حسين شريف مكة يزور شرق الأردن في مارس ١٩٢٤ قبل في «الشوثة» بيعة الخلافة التي أخذها بعض

أهل شرق الأردن وفلسطين وسوريا ولكنه لم يمتع بوقت يكفى لكي يعترف
الجميع بتنصيبه خليفة شرعياً للمسلمين ، فلما هزمه ابن السعود ضاعت مكة
من يده فى أكتوبر ١٩٢٤ وذهب الى جده ثم الى قبرص فى يونيه ١٩٢٥ حيث
بقى فيها الى قبيل موته فى عمان (شرق الأردن) فى ٦ يونيه ١٩٣١ .

وفى تلك الاثناء بينما كانت الجهود الفعلية تبذل لتصيب الملك حسين
خليفة جديداً ، فكر علماء الأزهري في دعوة مؤتمر إسلامي عام ليفحص مسألة
الخلافة ويصدر قراره فيها وفق تعاليم الشريعة ومع مراعاة الظروف الحاضرة ،
وبعد تأجيل إثر تأجيل انعقد المؤتمر أخيراً فى القاهرة من ١٣ إلى ١٩ مايو
١٩٢٦ . لم يكن المؤتمر علماً كما كان ينتظر فالهند مثلاً لم توفد ممثلاً لها ،
وأصدر المؤتمر الذى كان يرأسه المرحوم الشيخ أبو الفضل الجيزاوى شيخ
الأزهري إنداك قراراً أعلن فيه إمكان تنصيب خليفة حسب نصوص الشريعة
ولكنه أعلن أن تعيين الخليفة يترك للمؤتمر تمثل فيه كل الشعوب الإسلامية ، ولما
كان المؤتمر ينقصه هذا الشرط فانه أوصى جميع المسلمين ألا يهملوا مسألة الخلافة
فى المستقبل وأن يعملوا لاعادة ذلك المنصب الذى هو روح الإسلام ومظهره .
أكتب هذه السطور والمؤتمر الإسلامى العام الجديد يتأهب للانفقاد فى
القدس فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وقد نشرت الصحف العربية والإنجليزية
والصهيونية وغيرها أن مولانا شوكت على عزم على أن يقترح على هذا المؤتمر
انتخاب عبد المجيد خليفة ذا سلطة روحية فقط ، وقد كذب شوكت على
هذه الاشاعة كما كذبها رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى القدس ، ولا
يعلم علم اليقين منشأ هذه الاشاعة كما لا يعلم إن كان لها أساس من الصحة ،
وتختلف وجهة النظر الهندية فى مسألة الخلافة عنها فى الشرق الأدنى ولعل
الرأى هنا ما نشرته صحيفة عربية فى دمشق (٢٣ - ١٠ - ١٩٣١) فى ختام
افتتاحية عنوانها : الخلافة الإسلامية : هل آن وقت البحث فى إحيائها ؟

والاجابة بالسلب : يجب ألا توفظ الخلافة من سبائها ولا يستطيع الآن .
شوكت على ولا أحد غيره أن ينصب خليفة ويجب أن ترقب تطورات جديدة .
لأن الجو غير صالح لإثارة مسألة تركت سنين طويلة لاتمس حتى نسيها
الناس وشغلتهم عنها شئون أخرى :

ومن المهم أن نلاحظ أن مجلة نور الاسلام التي يصدرها الأزهر
نشرت في تلك الآونة في عددها السادس من المجلد الثاني (جمادى الثانية -
١٣٥٠ - أكتوبر ونوفبر ١٩٣١) بياناً مضاداً لفكرة البحث في مسألة الخلافة -
في مؤتمر القدس ، يقول هذا البيان إن حادثاً كحادث الملك حسين في ١٩٢٤
لا يصح أن يتكرر ، وبعد أن أشار إلى قرارات مؤتمر القاهرة في ١٩٢٦ انتهى بقوله -
إن الوقت لم يحن للدخول في هذه المسألة ، والمسلمون في الشرق الأدنى العربي
يعتقدون أن إثارة مسألة الخلافة ستبعث الشقاق بين المسلمين في حين أنهم
ينزعون جميعاً في هذه البلاد إلى إزالة أسباب الشقاق .

نرى مما تقدم أن «مسألة الخلافة» تكاد لا توجد في الشرق الأدنى .
على الرغم من أن فكرة الخلافة بمفهومها التاريخي والشرعي أبعد من أن تمتد
إليها أيدي الفناء ولقد أبان الأزهر عن رأيه في القضية المشهورة الخاصة
بالاستاذ علي عبد الرازق . كان هذا الكاتب المبرز أحد علماء الأزهر وقاضياً
في المحاكم الشرعية وحرر بعد ذلك في مجلة الرابطة الشرقية التي تقصر جهودها
على اتحاد الشرق من غير اعتبار للدين أو القومية ، وفي ١٩٢٥ أظهر الاستاذ
علي عبد الرازق كتاباً عنوانه «الاسلام وأصول الحكم» أعلن فيه أن نظام
الحكم في الاسلام ليس نظاماً ، ثيوقراطياً (١) . وقال إن محمداً
(صلى الله عليه وسلم) لم يكن ينوي إنشاء نظام خلافة كما يتمثل في أذهان
العلماء . نعم لقد كان هو النبي ولكنه حينما مارس السياسة أو القيادة الحربية

(١) هو النظام الذي يقضى بأن تكون الهيئة السياسية الحاكمة من رجال الدين .

لم يفعل ذلك كني . وليس الدين أكثر من إرشاد للناس في سلوكهم
ولا شأن له بالحكومة ويجب على المسلمين اليوم أن ينافسوا الأمم
الأخرى في علوم السياسة والاجتماع وأن يذبذوا الخلافة القديمة ويتخذوا
أساس حكومتهم من الثمرات الحديثة للعقل البشرى والتجارب الصحيحة التي
وصلت إليها الأمم فيما يختص بأحسن أصول الحكم .

أثار الكتاب مناقشات كثيرة في الصحف وأثار غضب علماء الأزهر .
ويقضى قانون رقم ١٠ (١٣ مايو ١٩١١) بأن من واجب الأزهر تويخ أى
عالم فى مصر لأمى مسلك لا يلىق بكرامة العلماء وبعد إجراءات تأديبية سحبت
من على عبد الرازق شهادة العالمية وفصل من منصب القضاء وكان هذه القضية
نتائج أبعد مدى ، فإن وزير الحقانية طرد من منصبه لأنه لم يبادر إلى فصل على
عبد الرازق من منصب القضاء كما كان يجب عليه .

ولست هنا بصدد البحث فى آراء الهنود فى الخلافة ، ولا ذكر كتابا لعالم
هندي مسلم معروف فى إنجلترا ، هو الاستاذ محمد بركة الله (مولوى) (١) من
بهوبال ، نشره فى ١٩٢٤ بلغات مختلفة ، وعنوان النسخة الانجليزية « الخلافة »
The Khilafet (Lusac & Co., London) وعلى غلافه هذه الخلاصة « حينما ضلت
الخلافة سواء السبيل فسد الإسلام والمسلمون ، وإذا أصلحت الخلافة صلح
الإسلام وفاز المؤمنون ، ويصر المؤلف على أن يكون للمسلمين خليفة ذو
سلطة روحية ومجرد من السلطة الزمنية ، ويرى أن التنظيم الروحي عالم بذاته
ويحتاج إلى طائفة تقف حياتها للقيام بشئونه ، وفى هذه الأيام دون كل ماعداها
يجب أن يكون الدين فى متناول كل فرد من المجتمع ، يجب إصلاح التنظيم
الدينى حتى يصير كاملا من الوجهة الفنية ، ويجب أن يتقف كل طفل ثقافة
خلاقية ودينية حتى تيسر حماية المجتمع من الفساد ، وعلى هذا الأساس يرسم
(١) كلمة هندية تستعمل فى معنى «صاحب الفضيلة» فى العربية .

بركة الله مشروعاً للتنظيم الدينى على رأسه خليفة يجب أن يضم مجلسه وزارة للدين ووزارة لبيت المال وأخرى للمعارف والبحوث وإدارة للدعوة الإسلامية وتنظيم التبشير . أما عن تعيين هذا الخليفة الروحى فى الظروف الحاضرة فلا يستطيع المؤلف أن يقرر هذا الأمر الخطير الشأن ، ويمكن أن يكون مقر الخلافة فى القسطنطينية أو المدينة أو القاهرة .

ولنقارن برنامج هذا الاستاذ الهندى ببرنامج جمعية الشبان المسلمين لأن فى هذه المقارنة شيئاً من الطرافة . هما يشتركان فى الإصرار على الدين والأخلاق دعائمين بالحياة الاجتماعية ولكن بينهما فيما عدا هذا فرقاً عظيماً ، فنظرية الاستاذ الهندى واسعة النطاق وتنفيذها بعيد عن حدود الطاقة لأن إقامة سلطة مركزية واحدة كما هو مرسوم فى البرنامج الهندى تعتمد على عوامل كثيرة يصعب تضافرها بطريقة عملية ، وإذا أقيمت هذه السلطة فهل تقدر على الإشراف على اختصاصها الواسع بطريقة فعالة ؟ أما عند جمعية الشبان فنرى عملاً سريعاً يفتى بحاجات أولية وفى دائرة تشرف عليها الجمعية بقوتها الفردية . هذا العمل ينمو كما تنمو البذور الصالحة فى الأرض الخصبة ولو أنشئت أنظمة كثيرة من هذا القبيل وكان لها جوهره وشروطه وتضافرت فى العمل لقامت بسرعة حركة إصلاح عظيمة من تلقاء نفسها ولظهر تجديد صحيح لا يتسنى لذلك التنظيم الخيالى القائم على فكرة الخلافة الروحية .

وإذا أردنا أن نعرف حق المعرفة شأن جمعية الشبان فى العالم الإسلامى اليوم لا بد أن نبحث فيما لها من قوة وفى الظروف والعقبات التى تواجهها فى اصطلاحها ، بواجبها ، هل هناك قوى تؤيدها ؟ وهل هناك قوى أخرى تعترض طريقها ؟ ، يجب أولاً أن ننظر إلى زعماء الجمعية ، هم رجال ذوو ثقافة عالية شرقية وأوروبية معاً ، شبان فى عنفوان الشباب فيهم إرادة قوية تستمد قوتها من معين الأخلاق التى هى حب الله وحب الوطن ، والغاية التى يطمحون إليها

غاية خلقية أيضا هي أن يخدموا بلادهم ويخدموا الشرق بأن يضعوا الدعائم التي عليها وحدها تقوم النهضة والتجديد الصحيح وأن يكونوا عقيدة خالصة وأخلاقا صحيحة وثقافة كاملة تواتى حاجات بلادهم وحاجات الشرق ، فيهم قوة خلقية عظيمة تستطيع التغلب على أعظم المصاعب وإن شرف الغاية التي يطمحون اليها والقوة الخلقية التي يعتدون بها يؤثران في الآخرين تأثيراً قوياً بمجرد احتكاكهم بالجمعية إذا كان عندهم استعداد للرقى الصحيح وبلبيهي أن في مصر مثل هذا الاستعداد . والجمعية كثيرة الأعضاء متعددة الفروع تؤيدها كل طبقات المجتمع المصرى ويؤيدها كثير من أعظم الرجال مكانة ، فقرع الاسكندرية تحت رعاية سمو الأمير عمر باشا طوسون أحد أمراء بيت المالك ولكن الحكومة لا تؤيد الجمعية رسميا وذلك فيما يظهر مراعاة للمسيحيين الذين قد تضار مصالحهم بسبب دعاية إسلامية قوية . ومهما يكن من شئ فإن في مصر عوامل كثيرة قوية تتضافر مع جمعية الشبان بحيث نستطيع الكلام دون معارضة عن اتجاه عام للفكر الإسلامى فى مصر . نجد الاسلام فى مصر يتبوأ أرفع مكان فى مظاهر الحياة العامة ، فى الدستور والحياة النيابية ، فى التشريع والتعليم العام وفى كل مظهر للآراء الاجتماعية ، وتمتاز حركة التقدم بتضافر عاملين أولهما نزوع إلى ماهو جوهرى فى الاسلام والثانى سعة الرأى التى تقبل ضروريات الحياة الحديثة وتدل بهذا على استعداد للتجديد الذى يتمشى مع الحكمة . وتنص المادة ١٤٩ من الدستور المصرى لسنة ١٩٢٣ على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام وقد تغير الدستور فى ١٩٣٠ ولكن تلك المادة بقيت كما هى بخلاف المادة المقابلة لها فى الدستور التركى :

وقد بحث نواب البرلمان المصرى فى تعديل بعض تفاريع الشريعة فيما يختص بالآؤفاف والقضاء وسن الزواج (١) ولكن المحاكم الشرعية لا تزال

(١) رفع سن البنت إلى ١٦ والرجل إلى ١٨ عاماً وفى القضاء ضيق اختصاص القاضى الجزئى .

قائمة مثلها مثل الدين الذى يرجع أصله إلى الدين ، ويظهر النواب فى مناقشتهم لقوانين الشريعة احتراماً عظيماً لمبادئ الإسلام ، وقام من بينهم من يدافعون بحماسة شديدة عن تلك المبادئ كلها سنحت الفرصة .

أما عن التعليم فقد أدهشنى ماشهدته من رقيه حينما كنت فى مصر عام ١٩٢٨ ، وأدهشنى توفر الحكومة والاساتذة والطلاب عليه وما بلغه من نتائج ، حقاً لقد كانت دراسة الدين الإسلامى وحب الوطن أساس هذا التعليم الذى يعنى أيضاً عناية كبرى بالألعاب الرياضية لينشئ جيلاً قوياً ، والحكومة تنشر التعليم الإلزامى تدريجياً فى كل أنحاء البلاد ولا شك أن البلاد ستبلغ حظاً عظيماً من الرقى بتقدم هذا التعليم الذى شهدته فى ١٩٢٨ وباستثمار تلك المواهب الخلقية والعقلية التى لا سبيل إلى إنكار أن الطبيعة جبت بها المصريين . وقد حاول وزير تولى وزارة المعارف فى ١٩٣٠ أن يغير هذا النظام فلقى معارضة وكانت وزارته قصيرة الأجل ، ولا أظن - والحالة كما وصفت - أن وزيراً يستطيع أن يطرح المبادئ الصحيحة التى تقوم عليها مناهج التعليم فى مصر .

وتسير حركة تعليم المرأة وإعطائها حقوقها بحزم عظيم ونظر ثاقب ، تصدر هذه الحركة سيدات ذات شخصية بارزة هى السيدة هدى هانم شعراوى ، ويحسن أن نشير إلى المدرسة الفخمة التى ترأسها حرم الدكتور منصور فهمى أستاذ الفلسفة المشهور بالجامعة المصرية ، ولا ينكر أحد ما لتعليم المرأة من أثر فى الأسرة ولكن هناك معارضة فى فتح باب المنافسة بين الجنسين وفى حرية اختلاطهما وذلك محافظة على الآداب ، وسمح للطالبات بدخول الجامعة المصرية ولكن الجنسين لا يسمح لهما بالتعلم معاً ولا بالاختلاط لا فى الجامعة ولا فى المدارس العليا الأخرى .

ونرى العناصر الصالحة فى الأمة تدفع التعليم العام وتهيب به أن يضع الدين والأخلاق وسلامة البدن نصب عينه ، ونرى كذلك اتساعاً تدريجياً فى نطاق

المعاهد الدينية وفي آرائها ، فهناك إصلاح في الأزهر وهناك المجلة التي أنشئت منذ ستين نور الإسلام لتدرس تعاليم الإسلام وما يتصل بها من مسائل علمية وخلقية وتاريخية وفلسفية دراسجديا ولتصل فيها الى رأى صحيح ، ولهذا الغرض أنشئ قسم جديد يتبع تقدم العلم والفن ويترجم في الملة عن الانجليزية والفرنسية والألمانية وبذلك ستأخذ المجلة من آراء العالم غير الإسلامى ولو نظرنا إلى الأدب العربى الحديث فى مصر لوجدنا أحسن الأدباء بوجه عام يتحاشون الهزل والمجون فى كتاباتهم ، فالعقول مفتوحة أمام ثقافة الغرب ولكن يغلب عليها شعور دينى وإحساس عميق بالحاجات الخلقية والاجتماعية . نلاحظ فى هذا الأدب شعوراً متزايداً بالشخصية المصرية والشرقية المستقلة ، ونستطيع ذكر شواهد طريقة على هذه الحقائق من المرحوم الأستاذ المنفلوطى الذى يقف فى مبدأ حركة الأدب الجديدة فى مصر والذى يعد من أكبر ممثليها فوزاً بالتقدير إلى المجددين المعاصرين ، ويقول الأستاذ كراتشكوفسكى (Kratchkovsky) إن المنفلوطى يرينا أى مبلغ من الرقى يستطيع أن يبلغه المسلم الذى يتمسك بمبادئ الدين الأولى . يقرر المنفلوطى فى «نظراته» بعبارة تلهب حرارة وحاسة أنه مسلم قبل كل شىء ، ولناخذ أحد المجددين وهو الأستاذ على عبدالرازق الذى قدمه الأزهر للمحاكمة بسبب كتابه «الاسلام وأصول الحكم» فهو يعتقد أن محمداً رسول الله الأعظم وهو يقول فى خطبة ألقاها فى «الرابطة الشرقية» فى نوفمبر ١٩٢٧ : « أشعر قبل كل شىء بأنى مصرى ، عربى ، شرقى - وبعد استئذان ساداتنا الدينيين الأجلاء - مسلم أيضاً . وفى هذا برهان رائع على التطور فى مصر فالمنفلوطى مسلم قبل كل شىء وعلى عبد الرازق مصرى مسلم قبل كل شىء . أيضاً . والدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير صحيفة « السياسة » ، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين ، مثال آخر كامل على التطور الفكرى الحديث فى مصر وقد وصفه كتاب «زعما

الأدب العربي المعاصر، الذى نشره فى لندن طاهر خير وكاتب هذه السطور بقوله «إن أعظم رأى يمتاز به، وهو الرأى الذى يردده كثيراً، هو مايسميه «بعث الشرق من جديد» وهو يعتقد أن المثلث الوحيد للمدنية هو يقظة روحية أو «نور جديد»، وأن هذا النور لا بد أن يطلع من الشرق، وله فى الدين آراء محكمة، يذهب إلى أن العلم وحده لا يفي بحاجة الروح الانسانية. وإلى أن الدين غذاء روحى لا غنية لنا عنه، (١).

وليس الشعور الاجتماعى الذى هو من أكبر مميزات جمعية الشبان قاصراً عليها، بل هو شائع يعم مصر والشرق العربى، فلما جمعت الأموال بعد وفاة الملك حسين لىقيم تمثال فى عمان عاصمة شرق الأردن لذلك الزعيم الراحل، زعيم استقلال العرب، نشر أحد محررى صحف القاهرة وهو مسلم يلهب حماسه وبطل عاقل من أبطال قضية استقلال العرب، جزءاً من كتاب وصله من عمان قائلاً: ولكن أيها الاخوان هل تفرعون شيخ قريش فى رسمه باقامة التمثال بينما يوجد بين الأمة العربية قوم يسرون حفاة ولا يستطيعون من فقرهم المدقع لحاقاً بمدرسة، وبينما يؤم آلاف العرب مستشفيات المبشرين. ليتداووا فيها؟ فلماذا لا يكون تذكار فقيدنا العظيم مستشفى فى عمان أو مدرسة فى حرم القدس ينتفع بها الناس؟ وكثيراً ما نرى اليوم مثل هذه الأفكار فى الصحافة العربية. هناك مجلات كثيرة وجمعيات خيرية تأخذ بنصيب فى هذه الحركة الدينية الخلقية. هناك مجلنا الفتح والزهرى ومجلة المنار التى يرأس تحريرها محمد رشيد رضا أحد تلاميذ محمد عبده. ومن الجمعيات المعروفة جمعية الهداية الإسلامية وجماعة الفيضيين التى يرأسها أبو الفيض وتقوم هذه الأخيرة بالوعظ فى داخل البلاد.

(1) Leaders in Contemporary Arabic Literature (London Kegan Paul & Co., Ltd.)

وتبذل الجهود القوية لاثماء الصناعات والمشروعات الوطنية التي يعدنبك
مصر من أروع أمثلتها ويبدى طلعت باشا حرب ، وهو مصرى صميم ، نشاطا
عظيما في هذه الناحية .

كان المصريون أثناء العشرين سنة الماضية عرضة لأن يفقدوا بسبب
اتصالهم بمدنية الغرب ، مالههم من شخصية ويقطعوا الصلة بما لهم من ماض
ودين وأخلاق ويسلبوا أنفسهم مساوى تلك المدينة دون أن يأخذوا ما فيها
من محاسن . والظاهر أنهم تغلبوا على هذا الخطر الذى كان يتهدهم ، فتم الشعور
القومى وازدادت تغلغلا وأوشك أن يكون شاملا ، وزاد معه فهمهم للحاجات
الحقيقية فى بلادهم وفى الشرق ، والحق أن بينهم شعورا عاما يظهر قويا منظما
فى نشاط جمعية الشبان المسلمين .

تتفق حالة البلاد العربية الاخرى : جزيرة العرب وفلسطين وسوريا
والعراق مع جوهر الحالة فى مصر وهناك حقيقتان لكل شأنها ودلالاتها : نرى
من جهة جلالة الملك ابن السعود - وهو مصالح دينى مدنى معا - يعود بالاسلام
إلى نقائه السالف وبساطته ، ويفتح جزيرة العرب أمام مظاهر الرقى الاوروبى فى
العلم والفن ، ويروطن الرحل وينمى موارد مملكته ويعد الاعمال الصحية ويقر
الامن والنظام فى نصابهما : ونرى من جهة اخرى فى فلسطين وسوريا والعراق
جيلا ناهضا من الشبان يتخذون بن سعود مثلا خلقيا أعلى ويجمع إلى شعور وطنى
حقوى العمل على إنهاء الاسلام . تكلمت عن جمعية الشبان المسلمين فى هذا
البلاد ، ولكن أستطيع أن أؤكد من اتصال وثيق بشباب العرب فى هذه البلاد
سنوات كثيرة أن فيها حركة قوية تجمع خيرة رجال الامة وأوفرهم حظا
من الثقافة وتنزع منزع جمعية الشبان ، ويظهر أن السيادة ستصير إليهم بفضل
ماهم عليه من قوة الاخلاق ، وفى سوريا حيث تلتقى مؤثرات كثيرة نرى
الحركة مستترة ولكنها موجودة ونامية نموا قويا وراء هذا الستار وتبدو

اتجاهات التطور المقبل في هذه البلاد في الحركات الآتية : —

١ — سرعة نمو الكشافة العربية الإسلامية في المدارس وجمعيات الشبان وغيرها .

٢ — ازدياد ترقية الصناعات الوطنية واستعمال منتجات البلاد ومصنوعاتها ، وكانت خطب الزعيم الهندي شوكت على أثناء زيارته سوريا وفلسطين حافزاً عظيماً لهذه الحركة ، وهناك اليوم لجان وجمعيات أنشئت لتنظيم الجهود في هذه الناحية ، وإن الوسائل الاستعمارية الأوروبية في أي صقع من أصقاع المشرق والمغرب تعمل بآثارها الشعور الإسلامي على صرف المسلمين عن شراء البضائع الأوروبية وتنشط الصناعات الوطنية ، ومن الطريف ما يندل في سوريا وفلسطين من محاولات لابتكار لباس وطني ولا سيما للرأس .

٣ — العناية الخاصة بالتعليم الوطني الإسلامي ومن أنشط المدارس مدرسة النجاح في نابلس وأهم من كل ذلك : جمعية الثقافة العربية ، في بغداد .

٤ — الاهتمام المتزايد بتأسيس وترقية المؤسسات الدينية والخيرية .

وليس هنا مجال البحث في التطورات السياسية في سوريا وفلسطين والعراق ولا بيان كيف كان نظام الانتداب بتعطيمه آمال العرب وعرقلة أمانهم عاملاً كبيراً على إخماد الشعور القومي وتعميقه ، ورأينا هذا الشعور يمتزج بين المسلمين بشعور إسلامي ، فالتقسيم السياسي لسوريا (سوريا التي قبل الحرب) والعراق إلى ثلاث إدارات ابتدائية مختلفة فرنسية وإنجليزية ، ثم تقسيم سوريا (سوريا التي بعد الحرب) إلى ولايات مختلفة زاد الرغبة في الاتحاد إذ فهم السوريون أن هذا التقسيم يجرى على السياسة المشهورة : فرق تسد . وفي الحياة السياسية الداخلية والخارجية كلما قوى نشاط الأحزاب ، وهو أمر طبيعي في الظروف الحالية الشاذة ، زادت الرغبة في الاتحاد . والصعوبات التي تواجهها الحكومات المنتدبة عظيمة ، وقد ضربت إنجلترا بتمهيدها لالغاء الانتداب في العراق

وقبولها إياها عضواً في جمعية الأمم مثلاً في الحكمة السياسية ربما تحتذيه فرنسا في سوريا وإذا تم هذا التغير صار من الممكن فيما يظهر أن تتحد سوريا والعراق .

أما فلسطين فإن ظروفها وأحداثاً خاصة تتضافر على أن تجعل من هذه البلاد مركزاً جديداً لنهضة الإسلام ، والصعوبات المتعلقة بنظام الانتداب هنا معقدة بسبب فكرة الوطن اليهودي المفروضة على العرب وبسبب المزايم الصهيونية الأخرى ، ومعروف جيداً كم أثارت المسألة اليهودية من معارضة قوية من جانب العرب ، وكانت للقدس في هذا الشأن صولة هامة ، وشعر المسلمون أن مؤتمر المبشرين الذي عقد على جبل الزيتون هجوم عام على دينهم كما أثارت مسألة المبكي العالم الإسلامي كله منذ قريب لأنه رأى، صواباً أو خطأ، في مطالب الصهيونية اعتداء على بقعة من أقدس بقاع الإسلام ، وكان من أثر تلك المطالب أن قوت عزم المسلمين على أن يجعلوا من ذلك المكان عينه الذي اعتبروه مركز الاعتداء على الإسلام حصناً تحشد فيه القوى للذود عنه ، وكان دفن المغفور لهما محمد على الزعيم الهندي العظيم والملك حسين في الحرم الشريف والمشروع الذي يسعى له شوكت على بنوع خاص وهو تأسيس جامعة إسلامية عامة في القدس ثم المؤتمر الإسلامي الذي استدعاه رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالقدس للاجتماع في هذه المدينة في ديسمبر سنة ١٩٣١ ، كل هذه علامات على تطور لا يمكن -- فيما يبدو لي -- أن يقف تياره بسهولة لقوة العوامل المعنوية المتضافرة فيه .

ولنسأل الآن : أين وجهة الإسلام ؟ مرمى هذا السؤال هو أن نعرف هل سيقدر الإسلام على الاحتفاظ بالوحدة بين شعوبه رغم هذا الانحلال السياسي وأمام غارة تشنها الأفكار الحديثة والعلم الأوروبي ؟ أترأه سيكون خصيماً لها أم حليفاً ؟ أهو آخذ في الانحلال إلى قوميات صغيرة تتأثر كل منها

على حدثها بالآثرات الأوروبية وتنهج طريقاً خاصاً بها ؟ إني وإن كنت لا أستطيع البت في الجزئيات فانه يخيل لي أن بعض المناهج العامة التي سيسير معها التطور المقبل يمكن أن تبين مما سبق ، وأستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولا سيما مركزها العظيم الذي يتكون من الكتلة المتماسكة التي قوامها مصر وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دوراً غاية في الأهمية وربما كان دوراً حاسماً ، فثقافة هذه البلاد راقية جداً وسيزداد نزوعها إلى تكوين وحدة فكرية أساسها وحدة اللغة الأدبية وسهولة المواصلات بينها ، ونهضة الإسلام في هذه البلاد أمر واقع لا سبيل إلى رده ، ولن يحدث في البلاد العربية شيء يشبه ما حدث في تركيا فلن يقطع العرب الصلة بتاريخهم الإسلامي والأدبي المجيد ، بل إن ذكرى هذا الماضي من عوامل النهضة الوطنية والدينية ، ولن تستبدل هذه الشعوب الكتابة اللاتينية بالكتابة العربية ، ولن تحول بين الناس وبين أن يردوا المناهل الفياضة لأدهم القديم ولن يبنذوا هذه الوسيلة المدهشة التي تمكنهم من الاتصال بالعالم الإسلامي كله ، ولن يقوى أحد على إيقاف حركة النهضة الإسلامية في هذه البلاد لأنها الأساس الذي يحتاج إليه الناس لتقوم عليه نهضتهم الوطنية التي لن تقف ولن يرد سيرها إذا كان في هذه الشعوب صفات خلقية عالية تريد الوثوب في طريق الرقي . هذه الصفات متوفرة فيها وعلى ذلك لا بد أن تسير النهضة الإسلامية في هذه الكتلة العربية في الطريق الذي وصفناه من قبل وستصير كل من القاهرة والقدس بالتدريج مركزاً عظيماً للحياة الإسلامية بعد مكة وسيفد طلبة العلم (كما حدث فعلاً) من البلاد الناطقة بالضاد في المغرب شطر مصر وفلسطين وسيزداد انتجاعهم لها ليكملوا تعليمهم ثم سيعودون إلى بلادهم ليزيدوا نهضة الشرق شيئاً فشيئاً ، وسيحدث مثل هذا الأمر في الأصقاع الأخرى من العالم الإسلامي ، وإن الصحافة العربية التي بلغت مبلغاً عظيماً من الرقي في هذه البلاد

ستعمل كثيراً على تقوية تأثيرها في العالم الإسلامي كله، ولن يقوى الانحلال السياسي على تغيير شيء من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة، وتري سيكون العالم الإسلامي الحديث خصيصاً أم حليفاً؟ يتوقف هذا على أوروبا، ويجب أن نقرر في صراحة وتأكد أن الكتلة العربية التي نحن بصدددها الآن لا تكن عداء لأوروبا أو الأوروبيين ولا للمسيحية أو المسيحيين، وفي الشرق العربي يتضافر المسلمون والاقباط في ميدان السياسة ويمكن أن تدلل على هذا بأمثلة رائعة، لكن هناك شيئين يسخطهما الجميع أشد السخط، هما الاستعمار الأوروبي والسيادة الإمبراطورية الاستغلالية المفروضة على الشرق من جهة واعتداء المبشرين على الإسلام من جهة أخرى، والشرق ولا سيما الشرق العربي لا يطيق صبراً على هاتين الطغمتين في صميم حياته ولكنه لا يعادى أحداً، فالشرق والحالة هذه يقف موقف المدافع لا المعتدى فتى ارتفع عنه الضغط وقفت مقاومته أيضاً، والعالم الإسلامي يريد أن يعيش على ودمع الغرب ولكن على قدم المساواة، ويحسن أن نذكر شعار ذلك الوطني المصري العظيم المرحوم مصطفى كامل: «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا»، وهذا هو الحل الوحيد الذي يمكن أن تحل به المصاعب الحاضرة في الشرق العربي الأدنى بما في ذلك أصعب المعضلات قاطبة وهي مسألة الوطن اليهودي، وسيفضى الضغط والقوة للذان يستعملان مع العرب إلى نكبات جسيمة، وأصبحت الوعود قليلة الغناء والعرب لا يثقون في الكلام، لن تجدى الدعاية نفعاً ولا «ميثاق السلام» (Brith Shalom) بين العرب واليهود، ولن يحسم النزاع إلا اتفاق حريينهم تمضيه حكومة وطنية (من النوع الذي اقترحه «فلي» في جريدة «النيويورك تيمس»، ٢٤ نوفمبر ١٩٢٩).

ومن المعضلات التي يصعب حلها عدوان المبشرين في الشرق العربي وقد رأينا أنه يثير الشعور الإسلامي. ويحسن أن نبين في وضوح الموقف الذي

يواجهه هذا العدوان في الكتلة العربية دون سواها ، ولا شك في أن الأمر مختلف باختلاف أنحاء العالم الإسلامي ولكن يجب ألا ننسى الوحدة الإسلامية التي توثق الصلة بين هذه البلاد ، وهناك حقائق كثيرة لا يمكن إنكارها أو إغفالها : أولاها أن المسلمين كما تقدم القول لا يكرهون المبشرين ، وأشير هنا إلى مقالة زعيم مسلم عظيم النفوذ هو الأمير شكيب أرسلان كتبها في الفتح يثنى فيها على حماسهم وتضحياتهم (أنظر مجلة The Moslem World أكتوبر ١٩٢٣ ص ٤١٠) والثانية هي تعاون الشرقيين من مسلمين ومسيحيين تعاوناً ودياً قوياً على إحياء حضارة الشرق ولا سيما في مصر والعراق ، ويحسن أن أشير إلى الدور الذي لعبه الكتاب المسيحيون في الصحافة والأدب في مصر ، ومن أروع الأمثلة على ذلك مجلّتا الهلال والمقتطف . أما في العراق فإن جناب الألب أنستاس الكرملي بمجلته « لغة العرب » أشهر من أن يذكر ، والمسلمون والمسيحيون يقدرون ما بذله هذا الكرملي النرقي لانهاض لغة العرب وثقافتهم أعظم تقدير ، وبذلك يؤثر كل من الشعور الإسلامي والمسيحي في تطور الآخر تأثيراً خفياً ولكنه تأثير قوي وقد نالت هذه الحالة تقديراً من جناب الاب ف . ت . بنارت (البندكتي) الذي خصص مقالاً طريفاً لجهود الألب « انستاس » في مجلة تبشير المانية (Die Katolischen Missionen) إبريل ١٩٣٠) بمناسبة العيد الخمسيني لحياته الأدبية الذي احتفل به المسلمون والمسيحيون احتفالاً عظيماً في ١٦ يولييه ١٩٢٨ برئاسة الشاعر المسلم جميل صدقي الزهاوي . أما عن العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين فإن الألب « بنارت » يثبتنا أن المسلمين اليوم في العراق يحذرون حذو المصريين ويؤسسون برياسة بعض العلماء الغيورين مؤسسات إسلامية خيرية تقص الصحف أمرها في حماسة من غير أن تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة ، ويرى الألب « بنارت » أن المسيحية الأوروبية يجب أن ترجع بنهضة

إسلامية كهذه النهضة الناشئة اليوم لأن المسيحية من العوامل التي تشكل حضارة الشعوب الإسلامية الناهضة ويقول إن فكرة المسلمين عن الله نقية إلى حد ما (١) وإذا كان تنصير الشعوب الإسلامية غير منتظر في هذا القرن فإنه يمضى قاتلاً ، وبقاء الإسلام محفوظاً على الأقل بإيمانه بالله إيماناً خالصاً من الثواب أمر غاية في الأهمية ، وإذا لم يعتصم المسلمون بالإيمان بالله استهدفت المسيحية الأوروبية لخطر جديد ، ويمكن أن تشاهد نتائج انقطاع آخر صلة [بالأخلاق في تركيا الحديثة الحرة .

والحقيقة الثالثة هي أن في الشرق العربي الأدنى على وجه التأكيد نهضة إسلامية قوية خلقية ، ودينية واجتماعية ، ستكون أساس الحياة القومية الجديدة وإذا عرفنا هذا تجلت حقيقة رابعة هي أن تنصير المسلمين مستحيل الآن ، ويمكن أن تنشأ ثلاثة أسئلة فيما يختص بهذه الحقائق : (١) هل سيقنع المبشرون بتعاون المسلمين والمسيحيين على أنهاض حضارة الشرق وبما ينشأ عن ذلك من نتائج نافعة ؟ (٢) هل سيعارضون النهضة الإسلامية على النحو الذي وصفناه وهل سيعارضون في جعل الدين — ولو كان الإسلام — أساساً للحياة القومية الصحيحة ؟ وإذا كان تنصير المسلمين في الظروف الحاضرة مستحيلاً فلم يبق أمام هذه الشعوب الإسلامية إلا أحد أمرين : إما النهضة الإسلامية وإما المادية والفساد الخلقي ، وأى الأمرين خير للمبشرين ؟ وأيها خير للشعوب الإسلامية أنتى لاشك في أن المسيحيين المخلصين يحبون لها الخير ؟ (٣) ماذا سيستنبط المبشرون من هذا ؟ أقول مع التأكد إن أحداً من المسلمين لا يعارض في بيان محاسن الدين المسيحي ، وفي إظهار الحياة والأعمال المسيحية الصحيحة ، وربما كان (١) هذه كلمة غير عادلة ، فالحق أن الفكرة نقية إلى أكبر حد فقد جعلت لله في ذاته وصفاته وأفعاله ما يليق بالسكّال الإلهي وفرقت تماماً بين الخالق والمخلوق بخلاف البيانات التي تمزج بينهما .

هذا مؤديا إلى نتائج نافعة ، أما الاعتداء على الإسلام فلا ترجى منه فائدة وأقرر مع الأسف أن مثل هذا الاعتداء حدث في جهات كثيرة، وفي المسلمين اليوم من يقرؤون كل ما يكتب ويسمعون كل ما يقال بأي لغة ولن يرذم الاعتداء عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقويها، هذا الاعتداء ليس من شأنه إلا تكدير الجو وخلق المتاعب في العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في الشرق وتوسيع الهوة بين الشرق والغرب مما يتعارض مع مصلحة المبشرين ومع ما نرغب فيه من إقرار العلاقات بين الشرق والغرب إقراراً شاملاً .

ثم لاقل كلمات قليلة عن جهات من آسيا الغربية لاتكلم العربية وهي تركيا وفارس والافغان، ولما كانت تعوزني الخبرة الشخصية بهذه البلاد فاني أستقي ما أكتب عنها من مصادر وثيقة وممن خبروها بأنفسهم ، ولا سيما تركيا فاني أكتب عنها مستعيناً بما نشره الدكتور د جشكا، (Jaeschke) من بحوث قيمة وبرسائله التي بعث بها إلى . لا توجد في تركيا حركة إسلامية ، ذلك أن الحرب الكبرى والنظام الجديد في الحياة العامة بعده لم تسمح باستمرار آراء إصلاحية كالتى نادى بها سعيد حليم باشا ولم يصر شأن للآراء التى تشبهها والتى قيل بظهورها سنة ١٩٢٨ حتى أن تركيا لم يبق فيها اليوم أساس للنهضة الدينية . كان الدستور التركى ٢٠ إبريل سنة ١٩٢٤ يعلن أنه دين الدولة الإسلام (مادة ٢) وكان اليمين شرطاً على النواب وعلى رئيس الجمهورية (مادة ١٦ ، ٣٨) ، ثم إن مادة أخرى كانت تسمح في ظاهرها بإمكان العمل بقوانين الشريعة الإسلامية وكأما كان هذا كله مجرد تساهل مؤقت عدل عنه بعد أربع سنين ، والواقع أن هذه المواد ألغيت بقانون ١٢٢٢ (١٠ إبريل ١٩٢٨) وصارت تركيا دولة غير إسلامية ، فليس في مدارسها ثقافة إسلامية ، وهناك ضرب من الثقافة الخلقية في كلية المعلمين وفي بعض سنى المدارس الابتدائية ولا شئ منه في المدارس الثانوية . أما اللغة

العربية والفارسية فلا يسمح بتعليمهما ولو على سبيل الاختيار ، وفي جامعة
استامبول معلم واحد يسمح له بأعطاء دروس في هاتين اللغتين ولكن لثلاثة
طلاب فحسب ويعتبر مدرسة ما كان أكثر من ذلك ولا بد لها من التصريح
من جانب الحكومة وهذه لا توافق على ذلك . ثم إن إستعمال الحروف اللاتينية
بدل العربية يجعل من المستحيل قراءة القرآن أو غيره من الكتب الدينية بأى
لغة إسلامية ، وقد أغلقت تكايا الطرق الصوفية وأضرحة الأولياء ومنعت
مجالس الذكر حتى في المنازل ولا يسمح بغير الصلوات الخمس التي فرضها
الإسلام ولكن المساجد لا تغلق إلا في حالات قليلة . والحكومة التركية
راغبة عن الإسلام وقد أنقصت عدد الموظفين الدينيين وهي التي تعينهم
وتراقبهم أشد مراقبة في خطبهم وأعمالهم وتعزلهم من مناصبهم إن أظهروا
أقل ميل إلى عمل لا يتلاءم مع رغبتها ، وكيف يتسنى في ظروف كهذه أن تتقدم
أى حركة دينية في تركيا ؟ هذه البلاد المفتوحة على مصراعها أمام مدينة
أوروبا بما تحمل من شر . ولكن من المؤكد أن الإسلام لم يمت في تركيا فقد أخبرني
بعض الأصدقاء أن المساجد أكثر إزدحاما اليوم منها قبل الحرب ، ولكن
يجب أن نحتاط في تعاليل هذه الظاهرة ، فلعل فيها كثيراً من معاندة الحكومة ،
هل هي نهضة إسلامية ؟ أشارت صحيفة (L' Orient) (الشرق) البيروتية
في عدد ١٢٧ (فبراير ١٩٣١) إلى هذه الظاهرة في مقال عنوانه :
Coran et Laïcité (القرآن والمدنية العلمانية) واستخلصت منها نتائج
لا تستند إلى أساس متين . وربما لا تدوم السياسه الحاضرة في تركيا ، وإذا
تغيرت فلا يستطيع أحد أن يتكهن بما سيحدث في المستقبل .

أما فارس فلا نستطيع الكلام عن حركة إسلامية حديثة فيها ، ومؤكد
أن الحكومة الفارسية لم تنزع الإسلام عن الحياة العامة كما فعلت تركيا ،
والدستور الفارسي لسنة ١٩٠٦ - ١٩٠٧ والمعدل في ١٩٠٩ ، ١٩٢٥ ذو صبغة

قومية دينية بل هو محافظ فيما يختص بالمسائل الدينية وقد عدلت الشريعة الإسلامية فيما يختص بالزواج (قوانين ١٥ أغسطس ١٩٣١) ولكن بطريقة صحيحة حازمة كما ادخلت الحكومة بعض الإصلاحات في الحياة العامة وأدخلت العلوم الأوروبية في المدارس غير أن شبان الفرس ليسوا - فيما يظهر - على أهبة للانتفاع بهذه العلوم انتفاعاً كبيراً ، وفي فارس حالة عقلية وسط ، ليس فيها حماسة شديدة في التمسك بتقاليد الإسلام وليس فيها معارضة شديدة في نظام جديد ، ويظهر أن البهائية راكمة ، وربما كانت الحالة متوقفة في هذه البلاد على عوامل جنسية وتاريخية ، ويصعب على أي حال أن تنهك بسير التطور المقبل مادامت الأحوال كما هي الآن .

أما الأفغان فكانت آخر دولة إسلامية مستقلة تتمسك بمذهب أهل السنة ، وربما كان يحس ملكها أمان الله بتوفر شرط جوهرية يهيئه لأن ينتخب خليفة . حاول أمان الله بدستور ١٩٢٣ - ١٩٢٤ وبقانون العقوبات الذي أذيع في ذلك الوقت إدخال إصلاحات لم تكن بلاده مستعدة لها ففقد عرشه بعد خمس سنين من الاضطراب وعدم الاستقرار . والأحوال الآن أكثر هدوءاً في ظل جلالة نادر شاه (١) ولكن الظروف لم تساعد بعد على نمو النهضة الروحية نمواً منظماً . وما يدهشنا أن يأتي من هذه البلاد ذلك المصلح الذائع الصيت ، جمال الدين الأفغاني الذي قصد إلى الغرب ثم إلى مصر فأثر فيها تأثيراً كبيراً وغرس هو وتلميذه الشيخ محمد عبده في مصر بذوراً أثبتت في الأرض أصولها وتوتى الآن أكلها وتنتشر بذورها فيما حولها شيئاً فشيئاً على حين يسود الجذب في البلاد التي أتى منها المصلح ، ولكن البلاد الإسلامية الأخرى تقاسم مصر فيما أنتجت من ثمر ، وهل سيأتي وقت تنال فيه بلاد الأفغان ، التي كانت

(١) أغتيل المرحوم جلالة الملك نادر شاه بأيدٍ تحرّكها الدسائس في نوفمبر ١٩٣٣

وتخلّفه وليّ عهده الملك الشاب محمد ظاهر خان واستتب له الأمر .

منبت البذور ، نصيبها في الثمر وتغرس في أرجائها بعض بذوره ؟ إذا لكانت عروفا أكثر ثباتاً فقد برهنت تلك البذور على ما فيها من قوة حيوية .

الفصل الرابع

الهند

بقلم اللقنانت كولونل م . ل . فرار

إن أى دراسة لآحوال المسلمين الماضية والحاضرة في الهند لابد أن تستند إلى إنعام النظر في عاملين كبيرين أثرا أبلغ تأثير في تطورهم وفيما يمتازون به منذ أوائل عهد الاسلام : أولهما انقطاعهم وراء حوائل طبيعية ، وثانيهما يمتثلهم الهندوكية ، والهند الاسلامية منذ ١٥٠ سنة وليدة هذين العاملين ، ولكن يجب أن نضيف إليهما عاملين آخرين هما مجيء الحكم البريطانى ، والاتصال بالغرب وما أحدث من تأثير ، هذا العامل الاخير هو الآن أجدر العوامل بالاعتبار للرقى العظيم في جميع وسائل السفر والمواصلات ، ولكن لابد أن ينتظر دوره من بحثنا ، وسنبدا بالعاملين الاولين .

تقدم التوزيع العام للمسلمين في الفصل الاول من هذا الكتاب ، فقد أرانا كاتبه كتلة متماسكة من البلاد الاسلامية مركزها الشرق الأوسط ويمتد منها ذراعان قويان أحدهما غرباً إلى مراكش والثاني شرقاً إلى منغوليا ، ويشترك الحد الجنوبي الشرقى لهذه الكتلة مع الحد الشمالى الغربى للهند من الوجهة السياسية ولكن هناك مع طول هذا الحد -- كما سيتبين بعد قليل -- شعباً مسلماً متشابهاً تشابهاً يكفى لكى يمتد حد الكتلة المتماسكة إلى نهر السند . وتكاد شعوب الكتلة الوسطى تكون كلها من المسلمين ، وإذا استثنينا أجزاء من شمال أفريقية

شمها الحكم المسيحي وأجزاء من آسيا أدبجت حديثاً في اتحاد الجمهوريات الشيوعية السوفيتية رأينا أن هذه الكتلة ظلت طيلة ١٢٠٠ سنة تظلم السيادة الإسلامية وتمتع بالانظمة الإسلامية وتمسك بتقاليد الثقافة الإسلامية التي لم تقطعها إلا نكبة المغل العظيمة . أما الظروف التي عاش فيها مسلمو الهند فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فالمحيط ، رغم مايقذف من رعب في الشعوب الهندية الإيرانية ، كان ولا يزال أقصر طريق وآمنه أمام الحجاج ، ولم تكن العقبة في الحدود البرية أقل خطورة منها في البحرية ، فكانت صحارى بلوخرستان وسلاسل جبال هندكوش وسليمان العظيمة وما فيها من قبائل نهاية قوية على الدوام حاجزا لا يقتحمه إلا قائد مظفر يمسكه مفتوحا مادام هو أو أبنائه قادرين على الاحتفاظ بسلطانهم . ورغم قرون كثيرة من التغلب الحربي الذي اقترن بالوسائل الفهرية لا دخال الناس في الإسلام بقدر عالم يقترن ، ورغم سبعة قرون من الحكم الإسلامي الا وتوقراطى في الهندستان وأجزاء أخرى من الهند الشمالية ، ورغم نجاح دعاة الدين المسلمين - وإن كانت دعوتهم متقطعة - هؤلاء الذين أغفل مؤرخو الملوك أكبر نصيب من انتصاراتهم ولم تنل تقديرا يليق بها لأول مرة إلا من رجل غير مسلم هو « سرتوماس أرنولد » ، ورغم تسامح الإسلام الأخوى الذي لا يعرف نظام الطوائف بل يعد الناس كلهم إخوانا حتى اجتذب الملايين من فقراء المنبوذين والآنحاس وطواهم في زمرته ، رغم هذا كله نرى اليوم حكومة الهند حكومة غير إسلامية ، بل إن أكثر من ثلاثة أرباع أهلها ليسوا مسلمين ، فالحكومة بريطانية وسواد السكان هند وكيون .

ولم يكن الهندوك المشركون (Polytheists) في نظر الغزاة المسلمين الاولين « أهل كتاب » ، أعنى أتباع ديانة موحة ، بل كانوا كافرين ، ذراهم « دار الحرب » ودمائهم مهذرة لا يعصمون إلا باعتناق الإسلام . ومهما قال

كتاب الاسلام المحدثون فن الجلى أن جهوداً منظمة بذلت أول الامر لفتح الناس على الاسلام ، ولكن أولى المصاعب التي واجهها الغزاة كانت في حواجز البلاد الطبيعية التي حصرت عددهم وعرضت مواصلاتهم للخطر كما تقدم القول ، وكان عسيرا عليهم أمام هذه العوائق أن يدخلوا أى شعب في دينهم بالقوة فكيف بالأغراء ولكن الهندوك كانوا شعباً كالعشيرة ، فنظام الطوائف بينهم والعقوبات التي كان يفرضها على من ينحرف عنه ثم نظرتهم للحياة ، كل ذلك جعل من العسير دخول أحد من كبراء الهندوك في الاسلام ، كما أن إقتسامهم إلى ولايات صغيرة جعل سرعة الفتح الناشئة عن هزيمة حاكم رئيسي واحداً أمراً مستحيلاً . ورغم جهود بذلها بعض الفاتحين المتعصبين خلال قرون كثيرة لأرغام المغلوبين على الاسلام فقد عرف أولئك من أول الامر أن المسلمين يجب أن يقنعوا في غالب الامر بأن يكونوا حكاماً وبأن يمنحوا رعاياهم الهندوك حقوق « الدمين » ، التي ما كانوا يستطيعونها لو قد طبقت الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً . أما الطبقة الدنيا من نظام الطوائف الهندوكي وأما المنبوذون فعلاً فكان لهم شأن آخر ، إذ اعتنقت الاسلام فئات كبيرة منهم ، يرجع بعض ذلك إلى ما كان للحكام الجدد من جاه وبعضه إلى رغبة تلك الطوائف في تحسين مركزها في ظل ما يسمح به الاسلام من ظروف . هي أكثر سخاء وأكثر مراعاة لحقوق الأخاء الانساني وبعضه الآخر إلى استجابتها لنداء دعاة الاسلام . ولكن الهند ما تزال بلاداً هندوكية .

وإذا استثنينا وادي السند وبلوخرستان لم يبق غير مقاطعة واحدة يسود فيها المسلمون في الهند هي البنغال الشرقية ، وحتى « دلهي » ، التي ظلت عاصمة الامبراطورية الإسلامية قروناً كثيرة لا يبلغ عدد المسلمين فيها الثلث ، كما أن « لكنو » ، ولها مالدلهي من ميراث السيادة الإسلامية ، لا يبلغ المسلمون فيها ٤٠ في المائة ، وكان في « حيدرآباد » ، وهي الولاية الكبيرة الوحيدة التي يحكمها

المسلمون ١٠ في المائة فقط من المسلمين يقطن أغلبهم العاصمة ، والمسلمون في الهند الجنوبية ٥ في المائة فقط من مجموع السكان ، ونلاحظ عادة أن المسلمين يقطنون المدن إذا كانوا أقلية بالنسبة للمجموع كما في ، الدكن ، وأنهم يعيشون بالزراعة إذا كانت نسبتهم كبيرة كما في البنغال الشرقية والبنجاب ، وتعلو نسبتهم مع طول السند وفيما وراه حتى تربي على ٩٠ في المائة وهم من وجوه كثيرة شعب مسلم حقاً .

ولنذكر هنا بعض المعلومات عن الجماعات الكبرى لمسلمي الهند . إن الكتلة الكبرى التي لا يدانيها غيرها هي في شرق البنغال حيث نجد الزراع كلهم تقريباً مسلمين منذ قرون كثيرة . والدين عندهم أمر عظيم الشأن ، ودلائل النشاط الديني بينهم وافرة ، فالمساجد من الظواهر البارزة في الريف ، وثقيف الأطفال تثقيفاً دينياً أمر شائع بينهم ، وتناوبت بينهم نهضات دينية واسعة النطاق بين حين وآخر في القرن الماضي ، كانت كلها من الطراز السلفي المتشدد ومحت كثير آمن الصبغة الهندوكية التي كانت من قبل ، ويلتف حول الوعاظ المتقلبن جموع كبيرة ، وتأدية فريضة الحج مطمح كل رجل يحترم نفسه ، هم لا يتهاقنوا على المدن لأنهم يؤثرون الحياة في منازلهم المتفرقة وحرث قطع الأرض الصغيرة التي يزرعونها أرزاً ويخص كل زارع منها مامتوسطه فدانان ونصف ، ثم إن عدم قيام القرى وصعوبة المواصلات وندرة طبقة غنية في طول تلك البلاد وعرضها وأهم من ذلك تأخر اتعايم تأخراً عظيماً كل هذه تحول دون نمو الأنظمة التعاونية والمسؤولية الاجتماعية ، لذلك بينما تعد البنغال حسب إحصاء ١٩٢١ حصن الإسلام الحصين نرى أهلها المسلمين لا يأخذون في تقدم مسلمي الهند عامة بحظ يتناسب مع عددهم ، وكان في مقاطعة البنغال في إحصاء ١٩٢١ ٢٥ مليوناً من المسلمين من مجموع يبلغ ٤٧ مليوناً ونسبة السكان المسلمين آخذة في الازدياد المستمر ، وتأني البنجاب بعد البنغال في القوة العددية ، فيها ١١٥

مليوناً مسلماً من ٢٠٠٧ مليوناً ، ويكاد يكون شمال المقاطعة وشمالها الغربي
 كتلة مسلمة لاشذوذ فيها ، وفي الأقاليم العليا من المسلمين ٦ مليون ونصف أو ١٥ في
 المائة ولا تخلو هذه النسبة المثوية الضئيلة من طرافة لان هذه الأقاليم كلها كانت
 تظلمها السيادة الإسلامية منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وفي السند نحو ٧٣ في المائة
 وفي بلوختان ومقاطعة الحدود أكثر من ٩٠ في المائة من المسلمين ، وإنما
 في البنجاب أي في دلهي وداجرا ودأوده ، يجب أن ترقب ظهور الرجال
 والجمعيات التي لا بد منها لكي تهيم مسلمي الهند ما يحتاجونه من قيادة ويندر أن
 يجد المسلم العادي من أهل المدن بيئة إسلامية تحيط به وأقصى ما يحظى به أن يقطن
 حياً إسلامياً أو شارعاً إسلامياً ولكنه لا يكاد يجاوز باب بيته حتى يجد
 نصف من يلقي أناساً تجرى كل فكرة لهم على خلاف أفكاره ، ويختلف
 لباسهم عن لباسه ويختلف تشذيب شعرهم ويختلف مثلهم العليا وعاداتهم
 وأساليبهم حتى تميزه عنهم أدق تمييز . أما القروي المسلم فهو أحسن حالا إلى
 حد ما لأن المجتمع القروي في الشمال على الأقل متشابه عادة ، ولتسامل الآن إلى
 أي حد يشعر الرجل العادي من مسلمي الهند الذين لا يرحون منازلهم بفقدانه
 للبيئة الإسلامية الكاملة ؟ إن أول الآثار التي انطبعت في نفسى في الحدود
 الشمالية الغربية للهند منذ أربع وثلاثين سنة لا تزال حية أقوى ما تكون الحياة ،
 وقد قضيت أول سنى خدمتي في الهند في مدينة دباريلي ، في الأقاليم المتحدة
 حيث يبلغ المسلمون الخمس ونظراً لأنني كنت أعمل بين أورطة من مسلمي
 الهنود في تلك الناحية فقد درست اللغات الإسلامية وقرأت كتباً عن السفر
 في البلاد الإسلامية ، ثم انتقلت الأورطة بغتة مجاوزة السند إلى دكوهات ،
 حيث وجدتني مأزولاً في الهند البريطانية ولكن كما انتقلت إلى بلاد إسلامية
 أخرى بعث طابعها الإسلامي الكامل في نفسى نشوة من السرور وهزة في
 الشعور لما أنسهما ، وإذا كان هذا هو ما يشعر به مسيحي استبطعنا أن ندرك

مالا بد أن شعر به المسلمون من أعضاء أورطى ومقدار ما أدركوا أنهم كانوا يعانونه من خسارة لأنهم ولدوا وتربوا في البلاد الهندوكية . ولكن بعض الباحثين ينكرون أن انقطاع مسلمي الهند في بلاد وثنية يضرهم بل هم يعتقدون أنه كان مفيداً لهم وأنهم بسببه صاروا أكثر تمسكاً بأصول الإسلام وأحسن إسلاماً من إخوانهم في البلاد الإسلامية المحضة ، غير أن قليلاً من الهنود المسلمين أو من غيرهم سيقبلون هذا الزعم .

ثم لتكلم عن عدد مسلمي الهند ، أنهم يكونون أقلية متفرقة في بلاد شاسعة بحيث أن مجموعهم حسب إحصاء ١٩٣١ يبلغ ٧٧ مليوناً ، منهم ربع مسلمي العالم . ولكي نعرف تكوينهم يجب أن نرجع إلى تفاصيل إحصاء منذ عشر سنين حين كان مجموعهم ٦٨ مليوناً ، من هؤلاء أجنب كانوا يقدرون بما يقرب من خمسة ملايين وهم من سلاسل مهاجري العرب والفرس والترك والافغان . وكان الباقون هنوداً أو سلاسلهم ممن خلعوا الهندوكية وما يتبعها من التحل واعتقوا الإسلام ، ولكن ما يربى على نصف هؤلاء من أصل وضع ، ولكن لا بد أن كثيراً منهم كان من الطبقات العليا ، ففي ١٩٢١ كان مالا يقل عن ٧٠ من المائة من طائفة «راجبوت» مسلمين و ٤٧ في المائة من «الجات» مسلمين أيضاً . وبما له معناه أن تزيد قوة المسلمين في عشر السنين الأخيرة بنسبة لا تقل عن ١٣ في المائة وأنهم آخذون في الازدياد بنسبة أكبر من الهندوك ويقول سمو الأمير أغاخان : «كان المسلمون منذ خمسين سنة خمس سكان الهند ، وهم الآن ربعة ، وقبل أن يكتمل أبنائنا سيكونون ثلثه ، ويجب أن نضع إزاء هذا التقدير مسألة أخرى هي أن الهندوك ازدادوا بنسبة ١٠ في المائة ، ولكن نسبة زيادة المسلمين رغم هذا تلو باستمرار ، وربما كان لهذا الازدياد السريع في الهند نظير في الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي التي يحكمها الأجانب أو يشرفون عليها مما يختلف اختلافاً تاماً عن حالة الركون في البلاد الإسلامية المستقلة ..

وهناك أمر شائع لا يذنب عن أنظارنا هو اختلاف المسلك الذى تتوقعه من الأمم الإسلامية المستقلة وغير المستقلة ألامؤثرات الغربية، فالأخيرة أوثق صلة بالغرب ولكن الأفراد فيها يتمتعون بقسط أكبر من الحرية والراعى المسلمون أحرار فى التمسك بأرائهم ونظمهم أوفى تعديلها . أما فى الأولى فهناك أوتوقراط يقرر للناس إما أن يظلوا على وجهة من النظر ضيقة كما فى بلاد العرب وإما أن يندفعوا إلى الطرف الآخر كما فى تركيا نابذين الدين جانباً . ولتعد إلى الهند . إن ضخامة عدد المسلمين وسرعة إزديادهم واتصال الفئة المثقفة فيهم اتصالاً وثيقاً بالمدينة الأوروبية والمؤثرات الأوروبية يجعل لهم دون غيرهم شأننا خاصاً فى العالم الإسلامى بوجه عام ، هذا الشأن الذى لم ينل ما هو خلاق به من تقدير إلا فى ١٩٣١ فى كتاب جامع للدكتور يتوس (Titus) يسمى Indian Islam (المسلمون فى الهند) هذا الكتاب ومقالة الدكتور كريم Kraemer الحديثة ، Islam in India (الإسلام فى الهند) التى ظهرت فى ١٩٣١ فى مجلة The Moslem World (العالم الإسلامى) يزيدان زيادة قيمة فى دراسة موضوعها، ويظهر أن وصف الدكتور كريم لنفسية الهنود المسلم له قيمة خاصة .

يعيش ثلث مسلمى الهند فى البنغال الشرقية فى حالة عزلة عظيمة ، لغتهم هى البنغالية وقل من يعرف منهم غيرها، أما الباقون فمعظمهم يتكلمون الأوردية لغة أصلية أو مشتركة ولكن فى « السند » و « جوجارات » و « ملبار » وغيرها جماعات تشبه البنغاليين فى العزلة اللغوية . واللغة الأوردية بين مسلمى الهند تلى الدين مباشرة فى العمل على الوحدة العامة ويتكلمها جميع مسلمى الشمال فى حياتهم اليومية وبسبب ما لهؤلاء الشماليين من عرافة فى الحكم ولتتمتعهم بأوفر حظ من النشاط العقلى والجسمى وأوفى قسط من التضامن فانهم يصعدون غيرهم فى كل تقدم دينى وتعليمى واجتماعى فى هذه الأيام وإن مزعهم حيال التأثيرات

الأوروبية هو المنزع الذي يحتمل أن يحثه دون سواه سائر مسلمي الهند ،
ولذلك فإن الحكمة تقضى علينا أن ندرس اتجاه الفكر وأنواع النشاط التي
تبدىها هذه الفئة في الهندستان وغيرها من جهات الشمال إن أردنا أن نعرف
المناهج التي يحتمل أن تسير معها حركة التقدم وأن نعرف كنه ما يدور من
تطورات . وفي أعماق الدكن مركز لازعامة والروح الملهمه ، ذلك المركز هو
ولاية حيدرآباد آخر ولايات المخل القديمة ، ويمتد كثير من المسلمين الوطنيين
آمالهم على هذه الولاية وعلى حاكمها المسلم وعلى توطيد العزم على إحياء
الثقافة الإسلامية عن طريق اللغة الأوردية

وإذا أعدنا فحص إحصاء ١٩٢١ وجدنا ٦٣ مليوناً من المسلمين يذهبون
مذهب أهل السنة ، والباقيون من الشيعة ، من الأولين ٤٨ مليوناً يتبعون مذهب
أبي حنيفة وهناك عشرة ملايين من الوهابيين ، وبين الشيعة ما يقرب من ١٠
في المائة من فرقة الاسماعيلية وهؤلاء ينقسمون إلى فرقتي « البهورا » و « الخوجا » ،
وزعيم هؤلاء هو أغاخان ، وما يدل على ضرورة التضامن أن يقبل جمهور مسلمي
الهند مع الرضا أن يكون أحد زعمائهم رجلاً يجب أن يعدوه من الخوارج ، وتقديس
الأولياء شائع بين أتباع مذهب أبي حنيفة ، وتسلك طائفة كبيرة منهم طرقاً
صوفية مختلفة . وليست هذه الأعمال قاصرة على الهند فلا تحتاج إلى إطناب
في القول .

يذهب معظم الباحثين إلى أن تقديس الأولياء ما يزال حائظاً ما كان له
من سلطان على قلوب الناس كما مما هو أكثر إرضاء لنفوس من يمارسونه وأكثر
إبلاغاً لثلج القلب وطمأنينة من الأوامر الدينية التي نصت عليها الشريعة
وفرضتها ، ويرى الكتاب المسيحيون في هذا برهاناً على ما يزعمونه من أن
المسلم العادي يحتاج إلى أن يتصل بالله اتصالاً شخصياً أكثر من الاتصال الذي
يحسبون أنه يباغ عن طريق تصوره لله ذاتاً غير شخصية أكبر من كل شيء .

وقادرة على كل شيء، ويخبرني أحد أصدقائي المسلمين، وهو يشغل منصباً حكومياً عالياً فيساعد غيره على الحصول على وظائف، أن زعماء الدين الذين يحتلون بعض الأضرحة القديمة في شمال الهند أخذوا يشعرون بأضـحلال سلطانهم الروحي على الناس ومن ثم بدؤوا يطالبون بضروب من السلطة الزمنية كمنصب الحكام الشرفيين .

وتنفرد الهند بمقاومة الإسلام لبيئته الوثنية التي لا تدين ، ولا حاجة لأن أشير إلى الجمهور المعروفة التي بذلها الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر وبعض رجال حكومته وبذلها بعده ابنه الأكبر « دارا شكوه » لكي يتفقوا مع الهندوكية اتفاقاً دينياً على أساس من الصوفية التي تردد صداها من جديد في مزاعم المرزا غلام أحمد، ولا حاجة إلى الإشارة إلى ما استعير من مبادئ الصوفية وأعمالها في الهندوكية ، ولكن أشير إلى التسامح الذي نشأ عن الاختلاط الاجتماعي وإلى تضاؤل مزاعم نظام الطوائف الهندوكي وإلى ما يشوب الشعائر الدينية عند طوائف كبيرة من المسلمين كان تحولهم عن الهندوكية أول الأمر ناقصاً قصير الأجل ، ولقد بينا أن المسلمين الذين فتحوا الهندستان سرعان ما عرفوا أن إقامة الإسلام دولة متماسكة ودولة دينية جامعة لا تتسع للكافرين كانت مطمحا لا يمكن تحقيقه من أي وجه ، فلم يكن بد من التساهل ، ونشأت أولى العلاقات مع الهندوك عن طريق أنظمة الزواج والتسرى والاسترقاق، وكان هناك مالا بد منه من تعامل بين الحكام المسلمين وبين التجار والصناع والزراع الهندوك فأدى إلى أن ينال الآخرون نهائياً حقوق الذميين ، ثم أتيح لهم بعد ذلك اللحاق بالجيش وبالوظائف حتى كان عهد أباطرة المغل فتعاقبت قترات من التسامح المفرط والقمع الشديد ، وألغيت الجزية قبل أن يقبض الانجليز على السلطة بزمان طويل ، وعاش المجتمعان على توافق فيما بينهما في الظاهر على الأقل . وكان تسامح الهندوك الشامل المنطوي على تعدد الآلهة

سبباً في بعث شيء من التسامح يمازجه احتقار من جانب المسلمين ، فأبدى
الجانبان منذ قرن محاسنة يشوبها السخط ، لم تزد عن ذلك ، وكان الاختلاط
الاجتماعي الحقيقي مستحيلاً ، ثم تطلب الموقف تعديلاً لا يخلو من طرافة ،
فالتسامح الذي اضطر المسلمون أن يظهره للهندوك أظهره أيضاً لمعتنقي
النحل الأخرى ، ولم يكره المسلمون غيرهم قط ولم يحتقروهم احتقاراً سافراً
بما كان ظاهراً ظهوراً قوياً إلى عهد قريب جداً في الممالك الإسلامية المستقلة .
أما عن الطوائف فهناك ثلاثة مظاهر كبرى ، هناك أولاً القبائل الزراعية
التي تفتخر بأصلها ونسبها وهي أخلص ما تكون في الهند الشمالية ، وترى الواحد
من هؤلاء يقول إنه ينتمي لذلك الجنس وتلك القبيلة ، ويدل اسمه وقانونه في
الأحوال الشخصية ويدل الكثير من عاداته على أصله الهندوكي دلالة لا تقبل
الشك ، ويقابل هؤلاء طائفة الذين يمارسون الأعمال الحقةرة أو الذين
لم يعتنقوا الإسلام اعتناقاً تاماً وهم ينتمون إلى حرفتهم أو طائفتهم الهندوكية ،
ونجد ثالثاً أناساً يتطفلون على طبقات أرقى ويطلق عليهم تعسفاً شبه نظام
طوائف إسلامي ذو طبقات أربع تقابل الطبقات الهندوكية التي هي «برهمن ،
و«الكشتری ، و«الفیش ، و«السودرا» (١) وكثيراً ما يستعمل ذلك النظام من يدخل
في الإسلام من الطوائف الهندوكية وأكثراً ما يشيع في الأقاليم المتحدة ،
وسار عليه الجيش خطأ منذ أربعين سنة مع نتائج فيها فكاهة هادئة للنفس ،
إذ دهش مسلمو الهندستان أشد الدهشة حينما رأوا أنهم مضطرون أن يسجلوا
أنفسهم «سادة» أو «مغلا» أو «باتان» أو «مشايخ» ، وما كان يجرؤ أحد على أن
يسمى نفسه «سيداً» إلا إذا كان سيداً بحكم ميلاده وكثيراً ما ياتي الإنسان
كثيراً من المغل الذين لا يعرف بأى طائفة يلحقهم ، وكانت مئات من طوائف
«الأمير» و«الجوجار» تختار أشد الحيرة مترددة بين أن تسمى نفسها «باتان»

(١) هي على التوالي : السكينة ، المحاربون ، التجار ، الفلاحون وليس بينها أي ديمقراطية

أؤد مشايخ ، (١) . أما عن عدم تمكنهم في الدين فأقتبس ما يقوله الدكتور
تيتوس : « في بلاد كالهند ، جمع غالب المسلمين فيها من الطوائف الهندوكية
الدنيا بدخولهم في الدين أفواجاً ، إما رهبة من القوة الحربية أو بغية نوال أمر
يرغبون فيه أو بدافع الأغراء ، لم يتم اشراك الداخلين في الاسلام روحه
كاملة ، فبين المسلمين طوائف كبيرة متفرقة تتم حياتها الدينية والاجتماعية في
كل مناسبة تقريباً عن أصلها الهندوكي وهي مزيج غريب من القديم والجديد ،
ولانعجب من هذا كثيراً لأن جيوش المسلمين زحفت على البلاد موجة
بعد موجة من «بشاور» إلى «دكا» وما وراءها ومن جبال الهملايا إلى الطرف
الجنوبي من شبه جزيرة الهند ، واستمر ذلك قروناً ، وكثيراً ما حدث أن الذين
دخلوا الاسلام ولم يعرفوه جيداً تركوا وراء الجيش بعد زحفه ولم ينالوا
إلا حظاً يسيراً من العلم بالدين الجديد ، وتركوا يتذكرون ويعملون ما استطاعوا .
وكان ضغط البيئة الوثنية عليهم عظيماً ، إذ بقي على الوثنية جيرانهم بل أقاربهم
في نواحي أخرى ، فلانعجب أن تبقى عبادة الاوثان في القرى كما كانت وأن
تبقى العقائد الوثنية وأن يظل القسس البراهمة يؤدون عملهم وأن تظل الأعياد
الهندوكية مرعية ، وليس موطن العجب في أن يتمسك الناس بهذه العقائد
والعادات الموروثة بل العجب أنهم ما يزالون يعتقدون بالاسلام ، وقد أورد ريزلي ،
و «كروك» في تقارير الاحصاء وفي التقاويم معلومات كثيرة عن موضوع العقائد
الهندوكية وعن العبادات والعادات التي تسير عليها هذه الجماعات من أنصاف
المسلمين الذين يظهر منهم ميل إلى مختلف النحل مما جعلهم حديثاً موضع
عناية المصلحين الشديدة من جانب المسلمين والهندوك ، وهناك طوائف لم

(١) «السادة» سلاله النبي ﷺ والمغل سلاسل المغل المسلمين ، و «الباتان»
سائر الأفغانيين ، والمشايخ سلاسل الصحابة . ولكن بين هذه الطوائف اختلاطاً
وتزواجاً ومساواة على الخلاف من الطوائف الهندوكية .

يقتصر أمرها على إهمال قواعد الإسلام الخس المفروضة ، بل يعبدون أربابا هند وكية صغيرة وكبيرة ولا يذوقون لحم البقر ويتخذون من البراهمة قسيسين في بيوتهم ويعتقدون بخرافات عديدة أصلها هندوكي أو وثني ، هذه الجماعات في الغالب متأخرة جاهلة حتى أن حالتهم أثارت اهتمام المصلحين ، وتستطيع أن تزعم مطمئنين أنهم بجهود المصلحين والتعليم و بازدياد معرفتهم بتعاليم الإسلام الخالصة سيصيرون أكثر تمسكا بمذهب أهل السنة أو بعبارة أخرى يمكن القول إنهم سيميلون إلى أن ينهجوا منهج جمهور المسلمين في الفكر والعمل . وهنا مصدر آخر لاضطراب المسلم الهندي الذي هو أكثر تمسكا بمذهب أهل السنة ، ذلك هو احترام الهندوكيين لأماكن المسلمين المقدسة ، وأعرف بنفسى ضريحين هما ضريح « سالار مسعود » قرب مدينة « بهرايج » ، وضريح « الشيخ سرور » ، قرب « ديراغازي خان » ، يكثر فيهما حجاج الهندوك كثرة عظيمة وصدقاتهم دخل عظيم لسدة الاضرحة ، ولا يمكن أن يخطر على بالنا أن يسمح لمجوسى أو مسيحي بدخول مكان إسلامى مقدس في فارس أو العراق ليطلب الشفاعة ، على أن نهضة الشيخ الدينية ، هذه النهضة التى صحبت الحركة التى قامت بها فرقة « أكالى » ، من الشيخ ، منذ عشر سنين ، أدت إلى انتباز الصور الهندوكية من كثير من معابد الشيخ القديمة المقدسة وربما كان التنازع بين الطوائف مما أدى إلى منع الهندوك من دخول أماكن المسلمين المقدسة التى من ذلك الطراز المشاع .

حاولت حتى الآن أن أبين عدد مسلمى الهند وتكوينهم وأن ألفت النظر إلى تكييف بيئتهم لهم تكيفا خاصا دون أن أشير إلى ماتج عن قبض الانجليز على أعنية الامور وما نشأ عن سلطانهم المفروض من تسوية بين الطوائف . كلنا يعرف الحقائق التاريخية ولكن لابد من ذكرها هنا باختصار ، فى القرن الثامن عشر لم يبق لملوك المغل أى سلطان ، وظلت مقاطعتان عظيمتان هما

«أوده» و«حيدر أباد» خاضعتين لحكام مسلمين يتظاهرون بالولاء «لا» باطرة
«دلهي» ولكنهما كاتتا رغم ذلك مرتبطين بمعاهدات مع الانجليز، أما
السند الإسلامية فبقيت خاضعة لحكامها، وقبضت قبائل «المرات» والانجليز
والسيخ على السلطة شيئاً فشيئاً حتى وجدوا مبراطور نفسه سجيناً للمرات ثم
صاحب معاش ينقده إياه الانجليز، وأخذ المسلمون يتقهقرون بانتظام حتى
ألفوا أنفسهم منذ أكثر من قرن في منزلة من الانحطاط والمهانة، وتوالت
عليهم الضربات في الثلاثين سنة التالية، ذاقوا أولاً الحقيقة المرة وهي أنهم بعد
أن كانوا سادة الهندوك منذ ستمائة سنة أصبحوا دالهندوك رعية لحكام الترموا
الحياة حتى ظهروا في مظهر من لا يبالي بنتائج الكفاح بين الطائفتين من أجل
الثروة والمنافع المادية، ثم جاء «ما كولي» بقراره الخطير الذي قضى بجعل
اللغة الانجليزية لغة التعليم العالي، وسرعان ما ألغيت بعد ذلك اللغة الفارسية
التي كانت لغة المحاكم الرسمية ولغة الدواوين، وأدخل «ما كولي» في ذلك الوقت
قانون العقوبات، واضطر القضاة الذين كانوا يطبقون أحكام الشريعة إلى
إخلاء السبيل لضباط الإدارة، وهؤلاء قد يكونون من معتنقي أي دين وقد
يطبقون الشريعة على المسلمين وحدهم في مسائل الأحوال الشخصية وحدها
كالزواج والميراث وذلك إلى الحد الذي يسمح به الحاكم الدخيل فحسب .
وجد المسلمون أن جاههم ولى وأن قوانينهم زحزحت عن مكانها وأن لغتهم
أهملت جانباً وأن تعليمهم فقد قيمته المالية، ثم وقعت ضربات أقوى هي إضافة
«السند» وأوده، إلى السلطة الانجليزية والثورة التي انتهت بمحو آخر ما بقي من مظاهر
حكم المغل الامبراطوري في دلهي وبمصادرة أملاك المسلمين بمصادرة واسعة
النطاق، هذه النكبة الأخيرة أنزلت المسلمين إلى أسفل درك من الكبرياء المثلوم
[والياس القائم مما لاح أنهم لا يقدرّون على الخلاص منه، ويقول سيد
عبد اللطيف في كتابه عن تأثير اللغة الانجليزية في أدب اللغة الاورديه عن

هذه المدة ما يأتي : دلم يترك إنداك للمسلمين في شمال الهند ركن يأورن اليه ويجدون فيه الممونة ، وأصبحت حالهم تبعث على الرثاء بعد أن سلبت منهم السلطة واثروة ، وأدى الانحلال التدريجي في حياتهم الدينية والسياسية إلى سقوطهم السياسي ، أنفوا من ممارسة الصنائع والتجارة والعمل ، وكانت الإدارة عماداً مرهم ومذ بدموا يفقدون سلطانهم السياسي زادت حالتهم الاقتصادية سوءاً على سوء ، وقامت في غضون الجزء الأول من القرن التاسع عشر حركات كثيرة جديدة بالذكر نشأت في جل أمرها عن شعور بالكبرياء المثلوم وعن رغبة في العزلة والوقوف موقف الدفاع ، وبقي بعض هذه الحركات إلى يومنا فلا نحتاج إلى التفصيل في وصفها ، ويكفي أن نقول إنها كانت من الطراز السلفي المتشدد الذي شعوره الرجوع إلى القرآن ، ولكنها كانت مصحوبة بنزعة عقلية عملت على زيادة يؤس الجماعة الإسلامية بعد خيبتها سنة ١٨٥٧ ، أي المسلمون بتأثير زعمائهم الدينيين المتعصبين أن يستفيدوا من الفرص التي أتاحها لهم الانجليز لتحصيل العلم الأوروبي ، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك أنهم أصرروا طويلاً على عدم الالتفات بالفصول التي افتتحت في كلية دلهي في ١٨٢٧ ، أما الهندوك فلم يصبهم مثل هذا التردد ، خلا قليل من المنسكين بالقديم ، وبفضل شغفهم بتحصيل العلم الجديد سبقوا مواطنيهم المسلمين . وسلك المسلمون ، عدا قليل ممن شذ مثل حافظ نظير أحمد والكاتب الكبير زكاه الله ، تلك الخطة عدة سنين بعد الثورة ، ولكن خلاصهم كان قريباً ، ففي ساعة يأسهم المظلمة كان يعوزهم قائد يخرجهم إلى النور ويقيم ما تهدم من بنيانهم ووجدوا هذا القائد في سر سيد أحمد خان . ولدهذا البطل المسلم المبرز في دلهي عام ١٨١٧ وبداً من أن يشغل منصباً صورياً في بلاط المغل الذي أنهكه الكبر آثر دخول الخدمة الانجليزية في ١٨٣٦ وهو يتاهز التاسعة عشرة وأحرز له رقيه المبكر منصباً مسؤولاً حينما اندلعت الثورة ، وكان أثناءها وياً للانجليز بما أدى لهم من خدمات

جليلة وفي آخرها ضاعف مابداً من جهود لاسترداد كرامة الجماعة الإسلامية وللعمل على تقدمها ، وكلما مرت السنون وبدت جهوده في صورة أصدق زاد ظهور عظمة هذا الزعيم الكبير ، وكانت البساطة والصراحة والتمسك بالغاية والعقل المثقف والخيال والحاسة والشخصية الأسرة وغير ذلك صفات توفرت لديه فأحسن استعمالها . رأى أن أول ما يجب عليه هو تبرئة جماعته من تهمة أنهم السبب الأكبر في الثورة حتى إذا استرد ما كان لهم من سمعة طيبة رأى أن لا بد من قبول النظام الجديد والتماس النجاة في العلم الجديد ، وعلى هذا بدأ يعمل وبعد جهد دام سبع عشرة سنة أفلح في افتتاح الكلية الإسلامية الانجليزية الشرفية في عيسكرة سنة ١٨٧٧ هذه الكلية التي صارت منذ عشر سنين جامعة كما كان يأمل . أدرك سر سيد من أول الأمر أن جماعته في حاجة إلى عصبة من الزعماء يبذل علمهم تقاليد الماضي الخادعة ويزيل أنواع التعصب المهلكة وينفخ فيها نشاطاً للعمل ويجعل منها فئة من المواطنين المخلصين الذين يحسنون التقدير ، وأعلن غرضه في الحفلة الافتتاحية وهو أن يهز المجتمع كله بالتعليم ويث رجال « يدافعون » كما يقول ، عن مبدأ حرية البحث المقدسة وعن التسامح الواسع الصدر وعن الأخلاق الفاضلة ، ، نجح فيما رعى اليه نجاحاً عظيماً فانتشر تأثيره وظهرت فئة كبيرة من الرجال الذين أخذوا من الجديد ماشاءوا متمسكين بكل ما هو حيوي في القديم ، ونشأ من بين هؤلاء كل الذين يعملون على التوفيق بين الإسلام والعلم الأوروبي الحديث والأخلاق الأوروبية والاقتصاد الأوروبي أو يبينون — كما أحسبهم يفضلون أن أقول — أن الإسلام ليس ديناً ضيقاً لا يسير التقدم بل هو دين عام في نزعته وأنه أثبت قديماً قدرته على التمشي مع ظروف الزمان والمكان وأنه يثبت ذلك مرة أخرى ، ولترجع إلى سر سيد ، ثاني مؤسساته ندوة العلماء في لكنو وكلية لكنو ودار العلوم ، التي تتفقد علماء الهند في علوم الإسلام تثقيفاً حسناً على ضوء

حاجات العصر الحديث ، وقد أفلح هذان المجهودان كل في ميدانه المحدود ، وهناك إلى جانب جامعة عليكرة جامعات إسلامية في دكا ، ودلهي ، وكليات في جهات مختلفة كالكلية الإسلامية في لاهور وبشاور ، ومدرسة كلكتا ، وكلية الشيعة في لكنو ومدارس عليا أخرى في الهند ، وكان من النتائج الملموسة لحركة عليكرة تأسيس الجامعة الثمانية في حيدر آباد وهي التي أسسها فخرمة النظام الحالي ، ونهج هذا المعهد طريقه الخاص بأن جعل اللغة الأوردية لغة التعليم الأساسي وأقصى الانجليزية إلى المحل الثاني ، ويتصل بالجامعة قسم خاص للترجمة يمد الجامعة عن طريق الترجمة أو غيرها بكل ماتحتاجه من مراجع أورديه فيوجد بذلك ألفاظاً أوردية مهنبة يعترف بها الجميع وتعبّر عن كل الأفكار وتقابل الاصطلاحات الفنية التي يلاقيها الانسان في الكتب الأصلية ، هذه الجامعة تؤدى خدمة عظيمة جداً للغة الأوردية وللجماعة الإسلامية التي لها من هذه اللغة أقوى أوامر الاتحاد ، ومن المؤسسات الأخرى التي تعمل لترقية الأوردية « جمعية ترقية الأوردية » ، في أورانج آباد ، وجمعيتان من طرازها في الاقاليم المتحدة . وهناك نتائج أخرى ظاهرة للعيان ، نشأت عن حركة عليكرة ، وهي تكوين جمعيات في كل أنحاء البلاد تأخذ على عاتقها حماية مصالح الإسلام والمسلمين وسأقتبس كلام الدكتور تيتوس مرة أخرى : « ومن الجمعيات الأخرى الجديرة بالذكر المؤتمر الإسلامي العام للتعليم ، الذي أسسه في ١٨٨٦ سر سيد أحمد خان وكانت غايته ترقية التعليم الأوروبي بين المسلمين ، اتخذ هذا المؤتمر مركزه الدائم إلى جانب الجامعة الإسلامية في عليكرة ، وتعقد المؤتمرات كل عام في مدن مختلفة في شمال الهند عادة . ثم تأسست « الجمعية العامة لمسلمي الهند » ، في ١٩٠٦ بقصد توجيه العناية الكبيرة لمصالح المسلمين السياسية لأن الناس أصبحوا يشعرون أن خطة سر سيد بتسكها عن أخذ قسط من حياة البلاد السياسية أضرت بمصالح المسلمين وإذا استثنينا بضع

سنين أثناء الحرب وبعدها لم يتيسر أثناءها الاتفاق على الخطط ألفينا الجمعية ند
أدت عملها بانتظام بعقد اجتماعات سنوية وبانشاء جمعيات إقليمية تتصل بالمركز
الأصلى، وهناك إلى جانب هذا عدد كبير من الجمعيات الأخرى كل تسعى على
طريقتها لخدمة المجتمع فى ناحيتها وفى سائر الهند فى آن واحد، فجمعية علماء
الهند تغنى بشئون علماء الدين ولها فروع إقليمية وهناك الجمعية المركزية لتبليغ
الإسلام ومركزها مدينة « أمبالا » فى البنجاب وهى جمعية قوية ناهضة
تنزع نزعة شاملة لبلاد الهند ولها فروع فى الأقاليم بل فى كل أجزاء البلاد
ويقال إن مهمتها المزدوجة هى : (١) منع الردة بالعمل على مكافحة جهود
حركة « آريا سماج (١) » التبشيرية وجهود المبشرين المسيحيين ، (٢) إرسال
مبشرين يعلمون المسلمين المتأخرين . وأيضا فى كل مدينة هامة جمعية إسلامية
تغنى بتعليم المسلمين فى تلك المدينة ومن أقوى الجمعيات « جمعية حماية الإسلام »
فى لاهور وهى تضطلع بكثير من الواجبات مثل دحض الاعتراضات الموجهة
للإسلام والعناية بأيتام المسلمين واستخدام الوعظ ، وأنشأت مدارس ودوراً
للأيتام ولها كلية ملحقة بجامعة البنجاب .

ومن النتائج الأخرى الهامة لجهود سرسيد نشأة مدرسة جديدة فى الأدب
وكان هو أول باءث على هذا بمجلته « تهذيب الأخلاق » التى غرضها الأول
تطهير الأخلاق والتى جهد فيها أن يزيل من بين المسلمين الآراء الخاطئة التى
لا تقوم على أساس صحيح والتى تتعلق بعزلة المرأة وتعليمها وما إلى ذلك ،
أما غرضها الثانى فهو خلق ذوق أدبى جديد . كان كتاب الأوردية إلى أيام
سرسيد يملكون فى شعرهم ونثرهم الأساليب الفارسية تقليداً أعمى من غير أن
يأبهوا للصعوبات الفنية التى يقتضيها تغيير اللغة أو يحاولوا التخلص من تلك
المذاهب الصورية الجائدة التى تبلورت منذ ٦٠٠ سنة والتى عيئت الأبواب

(١) أى « تخلص الجنس الآرى » وهى حركة تريد العودة للوثنية القديمة .

والأوزان الشعرية التي يلتزمها الشعراء دون سواها كما عينت موضوعات الشعر وكرهت استعمال أى كناية أو استعارة أو تشبيه تخالف تلك التي أخلقت دياجتيم القرون، وكان أشهر أنواع الشعر هما شعر الغناء وشعر المديح وكان كل منهما غزيراً فيه مبالغة وإغراق . وأما النثر فكان أغنى قليلاً لأن اللفظ كان فيه مقدماً على المعنى وربما احتيج إلى عشرة أو خمسة عشر سطراً من العبارات الجوفاء لاخبار القارئ أن ملكاً سار بجيشه ثلاثة أميال فى صباح يوم جميل .

لا حاجة إلى بيان ما فى مثل الأدب من جذب وماله من فعل يميئ اللغة إلى أقصى حد ، وما دام أكبر شدة الكاتب ألفاظاً متكلفة وكذباً وعبارات معقدة كان مستحيلاً على سر سيد أن يستنجد بالأدب ليعينه على تحقيق أول غرض رمى إليه وهو أن يأخذ أبناء دينه من التعليم بحظ كاف ، غير أن المثل الذى يتمشى مع الذوق المشترك والذى ضرب به فى مجلته سرعان ما وجد مقلدين ونشأت بالتدريج جماعة من الكتاب أطلعتوا اللغة فيما بينهم من أغلال كانت تقيدها وأوجدوا ما سموه الأسلوب الطبيعى وكاد يختفى شعر الغناء والمديح بموضوعاتهما وأداتهما العرفية المحدودة ، وحل محلها أنواع من الشعر أكثر ملاممة تجعل للشاعر كامل الحرية فى العبارة والموضوع ، وحدث مثل هذا فى نثر الأوردية فأصبح فى أسلوبه وموضوعه شائعاً شيوع نثر أى لغة متمدنة اليوم وإن كان لا يزال متأخراً فى باب المذهب الواقعى . وقد استفاد الأدباء من أنصار سر سيد من هذه الحرية الجديدة فأخرجوا مؤلفات غرضها المرسوم حث مسلمى الهند وإيقاظهم وتعليمهم حقائق العصر الحديث وإظهارهم على التغيرات التى يجب أن يقبلها الإسلام الحديث كنتيجة للتطور المنطقى عن الإسلام الأول ، وصار البعض مثل محمد شبلى نعمانى مؤرخاً للماضى المجيد وصار آخرون مثل حافظ نظير أحمد خان كتاب روايات وقصص لكل منها مغزى خاص ، وكتب الشاعران العظيمان لهذا العصر محمد حسين آزاد وسيد الطاف حسين حالى قصائد كثيرة غرضها

استنماض المسلمين ليدركوا سوء حالهم التي تقع عليهم تبعثها والتي يجب عليهم أن يبحثوا عن طريق الخلاص منها ، نرى سيد الطاف في مسدسته المشهورة « مد الإسلام وجزره » التي لا يقرؤها من يعطف على الهندي المسلم من غير أن تبعت فيه الشجن ، نراه يبين لاخوانه وجوب إطراح الاستسلام القديم للانداز ذلك الاستسلام الذي كان النتيجة الطبيعية لدين يدل مجرد اسمه على التسليم لارادة الله الذي لا يفتأ القرآن يؤكد ندرته وكبريائه وحكمه وقوته. (١) يجب عليهم كما يقول سيد الطاف أن ينبذوا فكرة أن الإسلام جامد ويجب أن يقبلوا على تحصيل علم أوروبا ومبادئها بشغف وحماسة وأن يهضموا كل ما فيها من خير ويقتبس سيد عبد اللطيف قطعة من مجلة سرسيد ، « تهذيب الاخلاق » ، تستحق الذكر ههنا مرة أخرى لأنها تبين موقف سرسيد نفسه حيال الجود المنسوب للإسلام حيث يقول « إن التعليم الديني عندنا فاسد إلى أقصى حد فان أوامر الله التي بلغها ذلك النبي الحلو الشماثل في براءة وبساطة وصدق إلى أهل البادية الا ميين الجهلة بطريقة سهلة واضحة صادقة ، قد شوهاها دخول فوارق وضروب من التمييز جوفاء وقضايا ميتافيزيقية وأدلة منطقية ما أنزل الله بها من سلطان حتى أن بساطة تلك الاوامر الاولى فقدت ما كانت تحمده من أثر مما أدى إلى إضطرار المسلمين أن يهملوا الاوامر الصحيحة التي في القرآن والا أقوال الصحيحة وأن يتبعوا ما اخترع زيد وعمر . ويميل النقاد إلى الاعتقاد بأن كتاب اليوم قد تنحوا عن موقف

(١) معنى الإسلام الاستسلام لاوامر الله أي عدم رد الحق في ظاهره وباطنه ، أما الاعتقاد بارادة الله وقدرته وقدره فلا يوجب التواكل والتخاذل ، وجوهر الإسلام العمل فيجب أن يعمل الانسان غاية جهده وأن يأخذ بالاسباب ، أما إدراك النجاح فهو أمر آخر . وقد جاء في القرآن : (وقل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وجاء في الحديث « اعمل إدياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

سرسيد وأصبحوا لا يؤكّدون الحاجة إلى تحصيل علم أوروبا وثناقتها ، بل هم يقولون بكفاية القرآن وحده أساساً تقوم عليه النزعة الفكرية الحديثة في الإسلام ، ولكن جهود سرسيد مازالت قائمة ، وإذا كانت الغايات التي نشدها لم تتحقق تماماً فإن الطريق إليها على الأقل قد تبين وقطع فيه شوط كبير ، وإن سرسيد أحمد خان ليستحق كل الثناء الذي أغدقه عليه جميع الكتاب الذين درسوا حياته . لم تكتب له سيرة وافية باللغة الانجليزية ونستطيع الآن أن نرى سيرته في صورة صادقة ، ويظهر أن الوقت قد حان لكتابة سيرة وافية لحياته وغاياته ومرايمه ومبلغ سيره في تحقيقها .

ذكرت الحركة التي بدأت بعد أن شمل الحكم البريطاني جميع البلاد والتي كان فيها شيء من الرجعية وكانت تغلب عليها الدعوة إلى الرجوع إلى أساسيات الإسلام كما أوحاه الله في القرآن ، ولا تزال في مختلف أنحاء البلاد جمعيات يرجع تاريخ بعضها إلى ذلك الحين أما البعض الآخر فهو حديث النشأة يقوم على مبادئ تشبه مبادئ الجمعيات الأولى ولكنها أكثر اتساعاً ، أشهرها جميعه « أهل الحديث » الذين يعتقدون بالحديث والقرآن ولكنهم يرفضون كل الآراء التالية التي أخذت شكل السنة والتي لا يستطيع السني العادي أن يحميد عنها ويظهر أن لأهل الحديث جمعية منظمة راقية وأنها تقوم بدعاية نشيطة عن طريق مدارسها ووعاظها وصحفها ، ومن أهم أغراضها تطهير الإسلام في الهند من أعمال الشرك والوثنية التي تكاد تشيع بين جميع مسلمي الهند ، ويميل أهل الحديث إلى الحزبية والتصعب مثلهم كمثل المتشددين في معظم الأديان الأخرى مما حدا بكرير أن يعتقد أن حركتهم عقيمة لا مستقبل لها . وهناك طائفة أخرى تطلق على نفسها إسم « أهل القرآن » وهو يكفي في الكشف عن نزوعهم إلى التمسك بأصول الدين وليس لهذه الطائفة فيما يظهر وجود فعلى مستقل ولكن حركتهم أثرت تأثيرها لا يعازهم بضرب من التفكير

أخص بهم شائع بين المحدثين الذين يندر أن ينتسبوا لأى طائفة معينة ، بل هم ينزعون إلى تأكيد قيمة القرآن ذاته ويميلون بأغفالهم أو حذفهم بعض السنة بل بعض القرآن إلى المتوسط بين الأعمال الصورية الجامدة عند غير المتعلمين وبين نزعة الرعماة المثقفين اليوم إلى التفكير القائم على البحث والاستنباط وسعة الرأي .

هذا هو في الحق محور المسألة : هل يمكن الاحتفاظ بالقديم وإشرا به الجديد ؟ رأينا آراء سرسيد وأنى بعده رأى الشريف سيد أمير على الذى أبان عنه فى كتابه المنهور Spirit of Islam (روح الإسلام) الذى ظهر فى ١٨٩١ وكان موضع نقد كبير ، هو أولاً دفاع عن الإسلام ودحض لآراء خاطئة يزعمها غير المسلمين عن ذلك الدين ويحاول الكاتب أن يجعل فى كتابه للدين أساساً عقلياً ، وسأذكر رأى المؤلف من غير تعليق : يذهب أمير على إلى أن الإصلاح يجب أن يسبقه التعليم وتحرر العقل من القيود ويجب أن نطرح التمسك بالظواهر تمسكاً صورياً لأنه أصبح عديم الأثر ويجب أن تكون أحكامنا صادرة عن استعمال العقل وعمما نستشعر أنه حق وملائم فى ظرف ما ، للإسلام قدرة على صبغ ماعداه بصبغته وسيبقى جوهره وإن تغير مظهره ولو أن الأئمة كانوا أحراراً فى استعمال رأيهم ونبذوا بشجاعة خمسمائة ألف من الأحاديث واستبقوا منها ثمانية آلاف إذاً لجعلنا لأنفسنا مثل هذه الحرية . ولماذا يظن إنسان أن الإسلام صار مسبوكاً فى قالب لا يتغير بعد الاجتماع على الكتب الستة ؟ (١) لقد انتفع العرب الذى أسسوا الإسلام إنتفاعاً كبيراً من مدينة

(١) أشهر الأقوال أنها البخارى ومسلم والنسائى وأترمذى وأبو داود وابن ماجه - على أن الأحاديث الصحيحة ليس فيها ما ينافى العلم الصحيح والعقل الصحيح وقد اتفق العلماء على تأويل ما لم يتفق مع القطعيات ، فكثرة الأحاديث لتضير الإسلام شيئاً ولاهى حائل دون ما يريد سيد أمير على .

الفرس ويذهب أمير على إلى أن الاتصال بمدينة الغرب سيفيد الإسلام في العصر الحديث كما أفادته مدينة الفرس من قبل ، ويشرك أمير على في هذا الرأي كاتب آخر هو مولوى « شراغ على » ، والشيخ خدابخش أخيرا وهو من كلكتا ويواصل اليوم في الواقع آراء سيد أمير على فنذ قليل كتب على نمط النزعة العقلية لأمير على قائلا : « يجب أن يدافع الإسلام عن نفسه أمام الغرب ويجب أن نستعمل الأساحة التي صاغتها أيدي الغرب أينما ولينا وجوهنا وجدنا التعليم الغربي ، والوسائل الغربية ، وطرق الغرب في البحث ، وعاداته الاجتماعية والمناذاة بالحرية وتقرير المصير كما يفعل الغرب ، ولكن موجة هذه الروح الغربية لم تضعف الإسلام فينا بل هي زادتنا به تمسكا ، قال الزرقاني منذ مائتي سنة بوضع أحكام تقي بالوقائع المتجددة ، وهذا هو روح الإسلام الحقيقي فالوفاء بمقتضيات الزمان والمكان مفتاحه ، ووحدانية الله شعاره والاخوة الانسانية عقيدته الكبرى ، والرغبة في التغلب مطمحه ، وما عدا ذلك فهو من اختراع الفقهاء وليس من جوهر الإسلام في شيء . »

ومن مستتيري المسامين في الهند الحديثة كثير من الكتاب يتعاونون على أن يعرضوا الإسلام للناس في صورة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي نقلها لنا كتاب المسلمين ومؤرخوهم الأقدمون ، هذه الصورة الحديثة تظهر الإسلام لغير المسلمين في صورة لم يظهر فيها من قبل ، صورة فيها من المحبة والرحمة والروح الانسانية الشاملة أكثر مما استطاع أن يظهره فيما سبق ، وإذا سلكتنا من هذا مسلك الناقد وجب أن نعتبر هذا الوضع للقضية دعاية لا بد أن ننعم فيها النظر ، أما الذين لا يريدون الدخول في ميدان النقد فيستقبلونه بقبول حسن معتبرينه إضافة جديدة لما عندنا من أفكار تدعوا إلى محبة الانسانية في هذه الحياة التي نعيشها ، على أن الانجائيزي العادي لا يحب عادة أن يتعمق في أديان الأجناس الأخرى لعدم ميله لذلك أو لقله غروره أو بحكم منصبه

الرسمى إن كان موظفا حكوميا ومن ثم فبينما تعرف مظاهر الحياة الإسلامية ومطالبها معرفة جيدة إلا أن قليلا من الانجليز خلا المبشرين والعلماء من يعرف كنه الأفكار الحديثة التي تشغل عقول مسلمي الهند والتي يفصحون عنها بين حين وآخر في كتاباتهم ، ويظهر أن من الخير أن نقبل هذا الدفاع على علاته أما إذ لا بد من النقد فلن نذهب إلى أكثر من أن نرجع هذا التغيير في تصوير المسألة إلى التأثير الملتطف الذي نشأ عن اتصال الإسلام بأديان تشترك معه في ذلك (١) .

إن أكثر مفكرى الهند المسلمين تغلغلا في الحقائق هو الشاعر الفيلسوف سر محمد إقبال من لاهور ، فبعد أن اشتهر شاعرا باللغة الأوردية كتب قصيدتين بالفارسية هما « أسرار خودى » (أسرار الذاتية) « أسرار بيه خودى » (أسرار اللاذاتية) (٢) ونشر أخيرا في هيئة كتاب ست مقالات عن الإسلام ألقاها في العام الماضي على طلبة جامعات مختلفة في الهند ، ولما كان رئيسا للجمعية العامة لمسلمي الهند في ذلك العام ألقى أيضا محاضرة غاية في الطرافة عن رأيه فيما ينبغي أن يكون عليه مسلمو الهند . وفحص آراء سر إقبال عن تطور الإسلام ومستقبله في الهند أجدى على الغرض الذى نرمى اليه الآن من محاولتنا سبر غور فلسفته كما أماط عنها اللثام فى المقالات الخمس الأولى من كتابه الجديد ، وأول ما يهر الانسان

(١) إن الفضائل التي يذكرها الكتاب هي من أصول الإسلام ، وقد كان طول تاريخه حاملا للواء العدل والرحمة والائخوة الإنسانية ومهما كتب الكتاب فستقع كل كتاباتهم دون تصوير ما فى الإسلام من هذه الناحية . (٢) بين فى الأولى أن حياة الانسان والامة فى تقوية النفس واستخراج كل ما فيها من قوى ومواهب ، وأن هلاك الانسان فى غفلة عن فطرته وترديده آراء الناس ومحاكاة أعمالهم ، وبين فى الثانية كيف يؤلف الانسان نفسه القوية فى الجماعة ساعيا إلى المقاصد العامة (عن الدكتور عبد الوهاب عزام — مجلة الرسالة عدد ٥٣) .

من سر إقبال هو حبه للأسلام حبا قويا يفيض بالحساسة وهو يرى في الإسلام
المثل الأعلى الذي لو تحقق تماما لوفى بكل مطالب الإنسان في هذه الحياة
وفي الحياة الأخرى ، وإن سعة إطلاعه وروحه الشعرية جعلتا في ذهنه لبساطة
الإسلام الأولى وقوته وتأثيره صورة جذابة مؤثرة حتى أن أهم ما يشغل
باله يدور حول الرجوع إلى تلك العقيدة البسيطة ليسترد الإسلام ما فقدته في رأى
سر إقبال . يؤكد في أولى مقاولاته ركود الفكر الديني في الإسلام طيلة
خمس القرون الماضية ، ويزعمه أن يرى الفكر الأوروبي قد استمد وحيه
من الإسلام يوما ما وأن يرى الأمور قد انعكست الآن ، بل يذهب إلى حد
القول بأن أكثر ظواهر التاريخ الإسلامي استلفاتا للنظري سرعة تحرك
العالم الإسلامي نحو الغرب من الوجهة الروحية ، ويخشى أن يقنع المسلمون
بظواهر الحضارة الأوروبية الخلاب ويخفقوا في فهم روحها الصميمة . إن امتداد
سلطان الإسلام على الطبيعة جعل له عقيدة جديدة وتبع ذلك منطقيا حاجة الجليل
الناس من المسلمين اليوم لتوجيه جديد في العقيدة ، وفي الوقت نفسه يعلم سر إقبال
ما يهدد الإسلام من خطر امتداد الاتحاد السوفيتي في البلاد الإسلامية
القديمة في آسيا الوسطى وذلك فالحاجة شديدة إلى النظر في الحالة وإلى القيام
بمنهضة جديدة بعد سبك الفكر في قالب جديد .

عزا سر إقبال في محادثة له مع كاتب هذه السطور إخفاق الإسلام اليوم
إلى انتشاره الباهر في القرن الأول من حياته . كانت الفكرة الأساسية هي إقامة
أخوة شاملة بين الناس ومن ثم فهناك أنظمة كصلاة الجماعة التي يؤديها الناس على
صورة معينة تعيينا دقيقا مولين وجوههم شطر بقعة واحدة يقدسونها جميعا ويحج
المسلمون إليها كل عام ، ومن ثم أيضا لم يقم كهنوت يزعم لنفسه استئثار أبالسلطان
وأزيل كل ما بين الطبقات من حواجز . عاق تلك الفكرة الكبرى انتصار
العرب السياسي الذي لم يكن متوقعا وماتج عنه من الصبغة الامبراطورية التي

اصطبغ به الاسلام وطبعت الشريعة بطابعها وأصقت بها صلاة ما كان يقصدها مؤسس الشريعة . ثم إن حركة المعتزلة أو أنصار العقل أيام العباسيين دفعت محافظي ذلك الزمن لأن يتخذوا لهم حصنا وراء قانون ديني واجتماعي غاية في الصلابة ، أما المفكرون الذين هم أكثر استقلالاً فانهم خرجوا على هذا التقديس « للظاهر » ، وسلكوا طريق الصوفية الذي ينزع إلى الحقيقة المكمونة « الباطن » ، ووجد عامة المسلمين أن لا بد لهم من اتباع أو ساط المفكرين الذين حرموا أى انحراف عن الشكليات الجامدة في المذاهب الفقهية المعترف بها ، وظل الاسلام قروناً كأنه لا يتحرك حتى مهد قيام الوهابيين في القرن الثامن عشر السبيل لمصلحين آخرين أوسع رأياً وأرحب صدرأً للآراء الجديدة ، ويؤدى بنا هذا إلى جهود العصر الحديث في الإصلاح الذى يقول سر إقبال في محاضراته السادسة إنه كله من قبيل الاجتهاد . أما نظرية الاجتهاد فقد بحث فيها جميع من كتبوا عن الاسلام ، ومعنى كلمة الاجتهاد الجهد الذى يبذله أحد المحققين مستعملاً رأيه إبتغاء الوصول إلى حكم فى أمر من أمور الدين بدلاً من أن يقبل أحكام السلف ، والرأى السائد أن هذه الحرية فى استعمال الرأى عطلت فى القرن الرابع الهجرى حين أرغم الناس على التقليد أو اتباع آراء السلف ، ولكن المجددين يحاولون « فتح باب الاجتهاد من جديد ، ونجد اليوم سر إقبال يؤكد فى محاضراته أن الترك بتقريرهم إلغاء الخلاف إنما استعملوا حتمهم فى الاجتهاد استعمالاً صحيحاً ، ولنتظر فى العلاج الذى يراه إقبال للنسأوى الحاضرة . يرى أن الخطر العظيم الذى يهدد الاسلام هو رُوخ العصبية فى الشعوب تلك الروح التى لم تدل على كثرة فى معظم البلاد الاسلامية ، فالفرس الذين دعته العصبية إلى الانحراف عن جمهور المسلمين طالما افتخروا بما كان لهم من تاريخ قبل الاسلام ، وقد اشتد شعور جنسى كهذا فى مصر وتركيا حيث أخذ الناس يفخرون بتاريخهم الوثنى القديم بخواقينه وفراعاته »

بل وصل الأمر إلى أن زغلول باشا زعيم مصر الديمقراطية سيدفن في مقبرة للعظماء تجمعه وأربعين من الفراعنة المحنطين ، وإذا استثنينا حزبا صغيرا ، يتزعمه الدكتور أنصارى ، تضافر مع زعماء الاستقلال الذاتى من الهندوك وجدنا أن مسلمى الهند وحدهم هم الذين يرفضون استسلام أى وحى وطنى أو ثقافى من التايخ القديم للبلاد التى يرجع أصلهم إليها غالبا ، وكما أنهم كانوا إلى عهد قريب جداً أكثر الجماعات الإسلامية اهتماما بفكرة الجامعة الإسلامية فالظاهر بعد إخفاق تلك الفكرة أنهم الآن أكثر شعوب الإسلام اهتماما بإيجاد شبه نظام دولى إسلامى ، ويرى سر إقبال فى هذا النظام الأخير الطريقة الوحيدة لخلاص المسلمين وهو يختم كلامه فى هذا الصدد بقوله : « ليس فى الإسلام قوميات ، ولا هو نزعة امبرطورية ، بل هو جمعية أمم » ، تعترف بالحدود الصناعية والفروق الجنسية لسهولة الإشارة فحسب لا لتضييق الأفق الاجتماعى للمسلمين ، ، ولنلاحظ الطرافة التى فى هذا الكلام الذى نسمعه من شخص شرقى فى وقت يشعر فيه كثير من الأوروبيين بأنهم لا بد لهم من اللجوء إلى شىء من الأشراف الدولى على التسليح والمالية والتجارة معتقدين أنهم بهذا يقون أوروبا ، والحق أنهم يقون العالم كله ، شر الصدمة الداهية . وسأتكلم بعد قليل عن رأى سر إقبال فى الناحية السياسية . رأينا سر سيد أحمد خان يعد التعليم أكبر عامل على خلاص المساميين وتقدمهم ، ولسكنه أراد تعاليم من طراز جديد يحفظ على المسلم دينه ويزيده به تمسكا ، ولم يكن لسر سيد بد من طرح الاغلال البالية التى اخترعها الفقهاء وأن يأخذ بعقيدة أكثر بساطة ، ووطد فى الوقت نفسه عزمه على الاتفايح بكل ما فى التعليم الجديد من خير ليتصدر الغير فى السعى وراء كل ضروب السعادة المشروعة فى هذه الحياة ، وكل زعماء الجماعة الإسلامية منذ أيام سر سيد يوافقونه فى فكرته الأساسية القائلة بأن التعاليم أول ما يلزم لكل إنسان ، ويوافقه أيضا جميع المساميين الذين عرفتهم بنفسى ، وليس بين هؤلاء

أحداً أكثرهما بما بالتعليم وإخلاصاً في المطالبة به من الفلاحين العاديين وصغار الملاك، هؤلاء تغلب فيهم الأمية، ولكنهم يشعرون شعوراً تاماً بأن أميتهم أفقدتهم كثيراً وأن أولادهم على الأقل يجب أن يحصلوا بعض العلم ليقووا على الثبات في معترك الحياة، ولتتسلسل عن حالة التعليم الحاضرة، تقدمت للقارىء وصفا موجزاً للمعاهد العليا وهي تجمع بين التعليم الديني والعلماني والثقافي، فلتكلم أولاً عن الناحية العلمانية.

نجد آخر وصف للتعليم في الهند في تقرير لجنة «هارتوج»، التي كُرت لفحص مستوى التعليم في الهند البريطانية وغرضها الأساسي الحصول على المعلومات التي تبرر ما يزعم من توسيع حق الانتخاب في الهند الحديثة. يدل إحصاء ١٩٢١ على أن المتعلمين من مسلمي الهند جميعاً ٣،٩ في المائة من الذكور و ٩ في المائة من الإناث ولكن تقرير اللجنة يبين أن التعليم الإسلامي تقدم تقدماً عظيماً في الخمسة عشر سنة الأخيرة، ومن الظواهر العجيبة أن الحاق الأطفال المسلمين بالمدارس الابتدائية يفوق نظيره عند الجماعات الأخرى ونرى هذا بوجه خاص في الجهات التي يكون المسلمون فيها أقلية، وربما يظهر في هذا شيء من التعزيز للرأي الذي أشرنا إليه آنفاً وهو أن عزلة مسلمي الهند تحفزهم إلى العمل، ولكن امتياز المسلمين لا يتعدى اللحاق بالمدارس الابتدائية فكما ارتقينا في مدارج التعليم ازداد نقص الطلبة المسلمين، وتشاهد هذه النزعة بين البنات أكثر مما تشاهد بين البنين، ومن أسباب هذا النقص السريع فقر المسلمين الشامل لأنهم في الغالب من الزراع وصغار المتاجرين، وهذا الفقر يعرقل كثيراً من الجهود التي تبذلها الحكومة باستمرار بحثاً عن دواء لتأخر المسلمين، ومن العقبات الأخرى شيوع ما يسميه التقرير «المدارس الخاصة»، في كثير من الأقاليم عدا البنجاب وتختلف برامج هذه المدارس اختلافاً عظيماً عن برامج المدارس العادية لأنها تشمل دروس الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، وتعتقد اللجنة أن بقاء هذه المدارس على هذه النسبة الكبيرة ضار بمصالح المسلمين، وجاء في تقرير اللجنة ما نصه:

« قد أصبح الوقت ملائماً وأكثر من الملائم لبذل جهد لا يتنى ابتغاء التفكير في طرق عملية ينقل بها الطلبة إلى المدارس والكليات العادية ونهياً لهم هناك الظروف للثقافة الدينية وللقيام بالعبادات ، وقد لاقى هذا الاقتراح رفضاً قوياً من عضو هندوكي في الالجنة ولا أدري ماذا تم فيه ، وأقول مرة أخرى إن زعماء اليوم في الجماعة الإسلامية يرون كما رأى سرسيد أن خلاص المسلمين رهين تعليمهم ، ونستطيع أن نؤكد أنهم سيتخذون من التعليم أكبر أداة تبلغهم غاياتهم ومؤكد أيضاً أن الجماعة الإسلامية لن تقبوا المكان اللاتى بها إلا إذا قلت فوارق مستوى التعليم بين الجنسيتين وإلا إذا أخذ النساء المسلمات بنصيب أوفى من صوغ أفكار رجالهن ومن توجيه جهودهم . وكان نجاح سرسيد وأتباعه في تحقيق غاياتهم في هذه الناحية أقل مما كان متوقفاً وبقي الحظ الأكبر ليقوم به الخلف ، ثم إن رغبة الآباء متزايدة في تعليم بناتهم ، ولكن تعوق ذلك العادات الاجتماعية ، وحيثما أمكن التغلب على هذه العادات كان التقدم أسرع ، ورأيت بنفسى ما يؤيد هذه الدعوى بعض التأييد ، ذلك أن في جزائر « أندمان » جماعة صغيرة من قبيلة « المابللا » تقوم بكل شئونها بنفسها ، وبعد أن تخلصت تلك الجماعة من أغلال بيتها الوطنية في مآبار تلوح عليهم دلائل الرقى التى لا تخلو من طرافة ، أكبرها رغبتهم في تعليم بناتهم ، ونرى البنين والبنات الذين بلغوا سن التعاليم يتعلمون معافى مدارس القرى ويقومون معا بالرياضة البدنية أمام آبائهم الذين لا يكتفون ما يشعرون به من غبطة .

ويغلب وجود المدارس الخاصة المذكورة في البلاد التى فيها طائفة من المسلمين متشابهة تشابهاً يساعد على ذلك أو في الجهات التى تشتد فيها الحاسة الدينية ، والبنغال الشرقية خاصة بها وكذلك الحدود الشمالية الغربية وبلاد المابللا في ملبار ، ويؤخذ معلوم هذه المدارس من مدارس المعلمين الدينية فى تلك النواحي ، أما فى الهندستان فانهم يتخرجون فى « دار العلوم » المشهورة التى مقرها مدينة

« ديوبند » ، في « ساهر انبور » ، وهذه هي مركز علماء أهل السنة في الهند ، وللعلماء جمعية في دلهي تسمى « جمعية العلماء » ، وهي المرجع في المسائل الخطيرة المتصلة بأمور الدين أو بالخطة التي يسلكها المسلمون في مسائل خاصة كثيراً ما تكون سياسية ، هذه الجمعية صار لها سلطان عظيم ولا سيما بين المسلمين الذي يلهيهم بالانجليزية بعض الائمة ، وما دامت تصدر في آرائها عن العقل والتساح والفترة العامة فلا بد أن يظل لها خطر هائض عند المسلمين ، وليس هناك حتى الآن ما يدل على أن العلماء يتزحزون عما في آرائهم من تشدد وصلابة ، وكان الأثر الوحيد الذي أظهرته روح التجديد للعيان هو تأسيس « جمعية العلماء » التي نظمت صفوف العلماء ولدت شعهم بعد أن كانوا في شتات ، وسنرى عما إذا كانت جمعيتهم ستحافظ على هذه النزعة السنية المحافظة أو أنها ستترك يوماً ما في حركة عامة إلى الامام .

إن مسألة المرأة ، منزلها ، وحقوقها ، وتعليمها ، وتحريرها تشغل فراغا كبيراً من تفكير زعماء مسلمي الهند ومن كتاباتهم ، والكتاب في الهند ملهم كمثل أقرانهم في البلاد الأخرى مشغولون بالدفاع عن تعاليم الاسلام ، بل هم يتعدون الدفاع إلى مهاجمة تقاليد أوروبا ويرفون أصواتهم مؤكدين أن مكانة المرأة في الاسلام أسمى وأوفر حرية وأكثر أماناً منها في المسيحية ، ولن نفحص حججهم أو النصوص التي تقوم عليها ويكفي وفاء بغرضنا أن نقول إن هناك تحسناً في مركز المرأة إزاء الرجل ، ولن تسير حركة رقي المرأة هنا بالسرعة التي تسير بها في بلاد يحكمها المسلمون مثل تركيا حيث نجد الحكومة تقهر الناس على ذلك ، ثم إن الإصلاح يكون أبعد أثراً إذا كان ثمرة لشعور متأصل في نفوس السواد الأعظم من المجتمع ، وحدث الآن أن بعض نساء الهند من ذوات المكانة السامية ضربن أمثلة جديدة بالذكر فنزعن الحجاب وأقلحن في النهوض بأعباء الحياة العامة الاجتماعية والصناعية والسياسية ، وسرعان ما صار

ظهن تأثير كبير ، غير أن هذه الامة قليلة ، فروح المحافظة المتغلغلة في سواد الامة ستؤخر شيوع هذه الحركة ، ونساء الهند بطبيعتهن لا يعرفن ثورة ولا احتجاجاً فلا بد أن تترقب تغير الحطة من جانب رجالهن ، وفي أثناء ذلك تعرض في دور السينما كل ليلة صور حمقاء مبتذلة مبهرجة تتجلى فيها علاقات الجنسية الأوروبية والأمريكية فيجد فيها المسلم المحافظ كل ما يحتاج إليه من أدلة تؤيد وجهة نظره في عدم الترحيح عن العادات القديمة قيد شعرة .

ولم يجعل مسلمو الهند دفاعهم هذا الذي يتعدى إلى الهجوم قاصراً على تبرير معاملة المرأة في الإسلام ، فإن منظمي فرقة الاحمدية قاموا منذ أكثر من ربع قرن بترقية هذه الوسيلة ترقية مستمرة بلغت أقصى الروعة ، فأخذوا وسائل الغرب وحاكوه في نشر دعايتهم ، ولفتت حركتهم الدينية نظراً لكثيرين وكسبت أنصاراً في كل أنحاء العالم بفضل قوتها الذاتية وتسمى فرقتهم تبعا لاسم مؤسسها ، مرزا غلام أحمد ، من مدينة قاديان في البنجاب ، أعلن المرزا رسالته إلى العالم في ١٨٨٩ وهو في الخمسين من العمر وبعد ذلك بعامين ظهر يدعو أنه نبي ومجدد ، مهدي ومسيح ، أعلن أن المسيح (عليه السلام) لم يمت على الصليب ، ولم يرفع حيا إلى السماء كما يقول القرآن ولكنه شفى بعد الصلب وفرومات أخيراً في كشمير ، حيث اكتشف المرزا قبره ، واعتقد المرزا أن موت المسيح (عليه السلام) موتاً طبيعياً ، كما يزعم ، يؤيده في دعواه أنه هو المسيح ، وادعى أيضاً أنه المهدي المنتظر الذي يترقبه المسلمون جميعاً ولكي يعزز هذه المزاعم العريضة أذاع ثلاثة كتب رمت به وبأتباعه في جدل مع أهل السنة ومع جمعية الآرياساج ، الهندوك المصلحين ومع المسيحيين ، جدل لا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، وأدى بالمسلمين السنيين إلى إخراجهم من الملة وإلى قتل أتباعه لما بلغ بهم الطيش أن يتجرءوا على الاقتراب من ملك الأفغان السني المسلم . ولما كان المرزا يزعم أنه المهدي فقد جاء يدعو للجهاد

تراق فيه الدماء كما يعتقد أهل السنة بل للجهاد سلمى ، ومع عدم تخفيفه من معاداة المسيحين رأى أن لا بد من البقاء على الولاء للحكومة القائمة في الهند (١) وجعل يؤكد أنه هذا ما أزعج بعض أهل السنة الذين يخالفونه في ذلك معتبرين الولاء للحكومة البريطانية مدعاة للريبة ، وسرعان ما أعلن المرزا «للاثرية سباح» أنه «كرشنا» (٢) وأن المسيح والمهدى والسكرشنا شيء واحد ، أما عن أهل السنة فالظاهر أن المرزا أثار تشددهم وتقديسهم للأولياء ، وكان المرزا في الوقت عينه شديد الخصام للعقائين الذين بدوا يعدلون آراءهم عن مبلغ سمو الوحي المحمدى على المؤلف والذين اشتد ميلهم الى اتوفيق بين القوانين والعادات الاجتماعية الإسلامية وبين الأفكار الحديثة .

ولما كانت مزاعم المرزا ترتكن الى القرآن الى حد ما لم يكن له بد من الاعتقاد بعصمته وأتجاهه وأصله السماوى لتصادف مزاعمه قبولاً ، ومن ثم أبدى أتباعه عناية خاصة بترجمة القرآن الى الانجليزية ومضوا يحطون من قدر التراجم السابقة بل اتهموا مترجمين أمثال سبيل Sa'e بتعمدا الحياثة في الترجمة . أما المسائل الاجتماعية فكان المرزا فيها محافظاً متمسكاً بالأصول لا يقبل تعديلاً في أى شيء من التقاليد الخاصة بالمرأة كالخجاء وتعدد الزوجات ، وإذا درس غير الاحمدى ما نشره المرزا من دعاوى وحجج لا بد أن يروعه ما في طبيعتها من سداجة وقلة نضج حتى أمكن لكثير من خصومه أن يرموه بتهم شنيعة ، ولكن نستطيع القول أن نجاح المرزا لا يبلغ هذا المبلغ العظيم دون أن

(١) كان غلام أحمد موظفاً عند الانجليز ، ويشيد في خطبه وكتبه بذكرهم ، وما يروى عنه أن الوقعة في جانب الله أهون من الوقعة في جانب الانجليز ، ولعل هذا يكفى في بيان صلته بهم ، والحق أن أمثال غلام أحمد من صنائع الاستعمار ما قاموا إلا باغراء دفعهم وما يريدون إلا إرضاء سادتهم بتفريق كلمة المسلمين وقتل روح الشجاعة فيهم ولذلك نجد مبادئهم ، مشبعة بما يعمل على هذا (٢) أى : مجدد (المترجم)

تكون له قدره على اجتذاب الناس ودون أن يكون مخلصاً لما زعم من وحى وفي ١٩٠٨ ملك غلام أحمد وصار حكيم نور الدين ، أول تلاميذه ، الخليفة الأول للمسيح ، وسرعان ما بدأ انقسام قبل موت نور الدين وذلك فيما يظهر اندخل بعض أتباع المرزا في لاهور برئاسة خواجا كمال الدين ، وفي مسأله سياسية ، ثم اقتضح الانقسام عندما انتخب مرزا بشير الدين خليفة ثانياً في ١٩١٤ ، ومن ذلك العهد نشأت فرقان مركز إحداهما مدينة قاديان ، والأخرى لاهور ، بينهما فروق عظيمة في العقيدة ، فتعتقد فرقة لاهور ، أن غلام أحمد كان لا يزيد كثيراً عن مجدد للأسلام وتنفرد بما تقوله الفرقة الأخرى ، فرقة قاديان ، من تكفير أهل السنة وتوثر تربية الشقة بينهما (فرقة لاهور) وبينهم . وإن نشاط حركة الأحمديّة وصيغتها التبشيرية الحماسية أكثر طرارة عند العالم الخارجي من عقائد الفرقين وعلاقاتهما بأهل السنة ، تظهر هذه الحركة في مظهر من العداوة والتعصب لم نعمدهما في مساعي الهند ، فالاستهزاء والازدراء سلاحان من الأسلحة التي تستخدم في الدعاية ، وهي تستشرد ماشاءت بمافي كتب مشاهير النقاد الأوروبيين الذين نقدوا المسيحية متى كان ذلك مؤيداً لغرضها ، وهي لا تتورع عن الطعن في صحة الإنجيل وعن مهاجمة شخص المسيح (عليه السلام) وتحذيره ولا تفتأ تؤكد إنعاس المسيحية الحديثة وإخفاؤها ، ولعل هذا أخذ بثأر الهجمات التي وجهت من قبل محمد (عليه السلام) ودينه في كتابات كثير من علماء المسيحيين كما نرى ذلك منظماً في المراجع مثل قاموس الإسلام لـ «هيوز» (Hughes: Dictionary of Islam) ونرى أتباع المرزا يعملون بمبدأ الشيخ «خدا بخش» القائل «بإستعمال الأسلحة التي صاغتها أيدي الغرب» وكان المنتظر أن يستخدموا ما عندهم من حذق ونشاط لاشك فيهما استخداماً أكثر عبقرية من مجرد العمل بمقتضى مبدأ : الجزء من جنس العمل ، ومن العلامات التي تخيب الآمال في مسالك مساعي الهند إزاء المؤثرات الأوروبية

جنوحهم للتقليد يدل أن يتكروا شيئاً جديداً من عندهم ، ومن أسف أن نعرف أن من المخترعات القليلة التي جادت بها قرائح الهندود حركة عدم التعاون، هذه الحركة العقيمة المولدة للأحقاد ، ولكن إذا تدبرنا الواقع وجب أن نرى المسلمين على الأقل من أن يكون لهم نصيب في خلق هذا الفساد .

كتب الأحمديّة كتباً كثيرة لم تنقطع ، ومنذ ١٨٩٢ ظهرت مجلات وطنية كثيرة تنشر في «قاديان» ، وظهرت أيضاً صحيفة بالانجليزية هي : The Review of Religions (مجلة الأديان) وتقوم هذه الصحف بدعاية قوية ضد المسيحية وضد حركة الإصلاح الهندوكية ، «الآرياساج» ، وضد ديانة السيخ ، هناك مدارس منظمة تنظيمًا حسنًا ، وهناك إدارتان إحداهما لتنظيم جماعة الأحمديّة والأخرى لتوجيه حركة التبشير ، وتقوم فرقة لاهور بحركة من هذا القبيل ولكن بنسبة أقل ، لكل من الفرقتين مبشرون خارج الهند وأتباع من ارتدوا عن المسيحية مشتبون في بلاد كثيرة ، وأحسب أن مجموع الملقاديين نصف مليون من الأتباع وأن لفرقة لاهور أقل من ذلك كثيراً ، ومن العسير أن تسكن بمستقبل حركة الأحمديّة ولكن يصعب أن نصدق أن عقيدة جامدة كهذه ستقدر على البقاء طويلاً قادرة على اجتذاب أنصار في عصرنا هذا أو على حفظ العقيدة الحالية لأنصارها من التغير ، وإذا عرفنا أن زعماء أهل السنة يشعرون بحاجة ملحة لتجديد عقائدهم ويتأهبون للتنازل عن كثير مما يعدونه على الدوام كلمة الله الموحدة التي لا تتغير والتي وراها إيمان ثلاثة عشر قرناً تؤيدها بذكرياتها المقدسة إذا عرفنا هذا وجب أن نتساءل : هل في وسع هذا الوحي المعقد الذي يرتكن إليه القاديانيون والذي جاء في آخر الزمن والذي يتطلب إيماناً قوياً جداً أن يقرى على الثبات في هذه الأيام التي لم يبق فيها من الإيمان إلا النصف والتي نجد فيها المتعلمين إمامين يأخذون بالشك وإمامين يحكمون العقل في المسائل الدينية ؟ أحست فرقة لاهور أنها غير قادرة على قبول

مزاعم غلام أحمد كاملة ، ويظهر من المحتمل أن الفرع الأكبر لفرقة قاديان
سيرى من الضروري يوماً قريباً أن ينقح عقائده .
لا نستطيع الاقاضة هنا في بحث مسألة الخلافة جملة ولا مسألة أقل منها شأنها
ظهرت بعد أن ألفت جمعية أنقرة منصب الخلافة وهي مسألة مؤتمر إسلامي
عام ، ولكن يهمننا أن نتكلم عما كان عليه موقف الهنود المسلمين وعما هو عليه
الآن إزاء هاتين المسألتين ، كانت مسألة الخلافة قليلة الخطر طالما كان امبراطور
المغل يحكم في دلهي أو حتى يقيم في القصر الامبراطوري كأحد أرباب
المعاشات ، وكان المسلمون يستطيعون الاشارة بالنان إلى حاكمهم المسلم
ويزعمون أنهم يرون فيه ما يفي بحاجاتهم ، ولكن سحق أسرة المغل نهائياً في
١٨٥٧ جعل أهل السنة ، وهم الغالبية ، يعيدون النظر في موقفهم واعتبروا
سلطان تركيا خليفة لهم منذ ذلك الحين ، وكانت تغلب عليهم في ولائهم له نزعة
دينية قبل كل شيء ، ولكنهم بعد فقد حاكمهم الزمى رجعوا إلى مبدأ اعتبار
أن الاسلام دولة دينية كل مسلم مواطن فيها بمعنى الكلمة وكل مواطنها إخوة ،
ولا نطوؤا جوائح أهل السنة الهنود على هذا الشعور أولوا السلطان احتراماً
قريباً من قلوبهم من غير أن يضحوا بولائهم لحكامهم الحقيقيين في الهند - وهم
البريطانيون ، وتأثير هذه العاطفة الطبيعية الخاصة اهتموا اهتماماً شديداً متعصباً
بكل الحروب التي قامت بين تركيا وبين دول مسيحية عديدة طيلة السنين
سنة الماضية ، وأخذ اهتمامهم في بعض الأحيان شكلاً عملياً بجمع الأموال
أو إعداد مستشفيات ، الهلال الأحمر ، وساعد أهل البر الهنود مساعدة كبرى
بأموال اكتبوا بها على إنشاء خط الحديد بين سوريا والحجاز ، ثم جاءت
الحرب الكبرى ووقفت تركيا ضد بريطانيا العظمى فأعلن السلطان الجهاد بحكم
أنه خليفة المسلمين ، ولكن دعوته لم تحدث أثراً فيما عدا بلاد الامبراطورية
التركية أو هي أحدثت أثراً قليلاً ، وظل مسلمو الهند - والالم في أفنديهم -

موالين للانجائز وأبلى الجيوش الإسلامية بلاء حسنا ضد تركيا ما عدا بعض
السنين من إقليم الحدود وماوراء وأورطة شيعية كان أفرادها متأثرين بالدين
وحده من غير صلة البتة بالخلافة السنية ، وأرسلت بعض الأقاليم الإسلامية
مثل « راوالبندى ، و « أتاك ، و « شاهبور ، و « جهيلم ، إلى ميدان القتال كل
من فيها من البالغى سن القتال والقادرين عليه وأرسلت كثيرا ممن لم يبلغوا ذلك
السن وكانت تزهى بهذا العمل ، وبقي وراءهم كثير من المسلمين يهتمون
شديد الاهتمام بمصير تركيا إن هزمت هزيمة منكرة ، وبقي معهم آخرون
أكثر ذكاء وأقل شرفا فى المقصد وجدوا انفرصة سانحة لاثارة هياج واسع
النطاق وجمع الأموال بنسبة كبيرة ، واستمرت هذه الحركة ونشأت عنها جمعيتان :
جمعية خدام الكعبة وجمعية الخلافة المركزية ، وكان أكبر غرض للجمعية
الأولى القيام بدعاية للدفاع عن استقلال وفساد سائر الجزيرة العربية ولا سيما
الحجاز واتخذت الثانية من الدعاية أكبر وسيلة للدفاع عن حقوق سلطان تركيا
وعن بلاده وجهدت فى تخفيف العقوبات التى ستفرضها على المغلوب معااهدات
السلام ، باغ الهياج ذروته فى ١٩٢٠ حينما اشتد الشعور ضد الحكومة فى شمال
الهند وأخذ المهيجون ، رغم ما عندهم من علم يمكنهم من معرفة النتائج التى يحتمل
أن تحدثها دعوتهم ، يدعون إلى المبدأ القائل بأن الهند أصبحت « دار الحرب »
وأنبأوا من أصغى اليهم أنهم ماداموا لا يستطيعون مجاهدة الحكومة الكافرة فلم
يبقى أمامهم إلا العمل بالمبدأ الآخر وهو مبدأ الهجرة أو الفرار من موطن
الكفر ، ويستحيل أن نجد ما يبرر هذا الطيش الذى لا أثر للتكفير أو
الاحساس فيه عند المهيجين الذين قدموا هذه النصيحة ، ولا بد أنهم عرفوا
أن بلاد الأفغان ، التى كانت دار الإسلام ، لأن حاكمها مسلم واتى نصحوها
الناس أن يأووا إليها لهذا السبب ، لم تستطع الوفاء بحاجة أهلها ، ولكن
الآلاف من الأغرار فعلوا كما أمروا فباعوا أرضهم وبيوتهم وكل ما يملكون

بأنحس ثمن قبضوه فندأ وساروا فى حمارة القىظ إلى بلاد الافغان فضاقت بهم
ملكها أمان الله ذرعا وضافت بهم حكومته التى لم تستطع أن تجود عليهم
بكثير من الارض والعمل ولم تستطع أن تجود بشئ قط من أسباب الحياة
وبعد أن ذاق المهاجرون آلاما عظيمة وتجرعوا كؤوس الفاقة وتكبدوا خسائر
الموت رجعوا إلى الهند واحدا بعد واحد وقد عاد إليهم رشدهم ، فساعدتهم
الحكومة التى بغضها لهم المهييجون على استرداد ممتلكاتهم التى رموا بها فى غير
تفكير وتفضل الذين اشتروها منهم فردوها لهم بالثمن الذى بيعت به فى كل
حالة تقريبا ، وبقي فى بلاد الافغان فئة صغيرة من المصريين على اللجاج فى
الخصومة وقليل ما يعرف من أخبارهم . وثانية الحماقات التى ارتكبتها أنصار
الخلافة إثارتهن قبائل « المابلا » المتعصين فى « ملبار » فقاموا بثورة عنيفة فى
سنة ١٩٢١ ولا بد أن المهييجين هنا أيضا كانوا يعرفون شر تحريضهم ويعرفون
أن الآمال التى لوحوا بها لهؤلاء الأغراء كانت سرايا ، وقبائل « المابلا »
يزيدون على مليون نسمة وهم فى الغالب سلاسل من أعتق الاسلام من الهندوك ،
أما سكان الشواطىء منهم فيجربون فى عروقهم دم عربى ، وهم من أتباع الشافعى
المتحمسين وأغلبهم زراع بارادتهم فى أراضى الهندوك ، وإن قلة ضمان مركزهم
وما يتبع ذلك من ضعف اقتصادى زاد من تعصبهم وجعلهم منذ سنين طويلة
على استعداد لضروب الهياج العنيف المفاجىء ، هذه هى الحالة التى استغلها
المهييجون ، وثب « المابلا » فجأة وجعلوا منهم ملكا وصوبوا هجماتهم عدة أيام
إلى الموظفين وأصحاب الأملاك الانجليز ، ثم تحولوا إلى ظالمهم الهندوك
فدبحوا كثيرا منهم وأرغموا كثيرا منهم على الدخول فى الاسلام ، وكان النهب
والتدمير ختام هذه الرواية وما فيها من ضروب التطرف ، وظل هؤلاء المابلا
عاما كاملا يتأومون الجيوش العظيمة التى كانت ترسل لاختصاصهم وكان
مصيرهم أسوأ كثيرا من مصير « المهاجرين » إذ قتل منهم ألوف كثيرة وحكم

بالنفي الطويل على ما بين الخمسة والعشرة آلاف ، أرسل منهم ١٤٠٠ إلى جزر
« أندمان » ، ورضى نصف هذا العدد بالذهاب إليها عن طيب خاطر فيما بعد ،
ولا بد أن نذكر أن مئات كثيرة من هؤلاء السجناء المنفيين صحتهم نسأؤهم
وعائلاتهم في « ميناء بلير » التي استوطنها الكثيرون ترفرف عليهم السعادة
ويتمتعون بالحرية في الأرض التي يمتلكونها تحت إشراف الحكومة مباشرة
وهم آمنون غاية الأمن ، ويظهر أن هذه المستعمرة الصغيرة المتجانسة
التي تعيش في وسط البحر قد طرحت تعصبها القديم وهي تعيش في سلام مع
كل من حولها . وقد زار تلك الجزائر بعد أربع سنين أحد الذين أهاجوا
المابلا على الثورة فاحتج المابلا احتجاجاً شديداً عند رؤيته واستكروا السماح
له بدخول بلادهم وإزعاجهم مرة أخرى . وكان المظهر الثاني لحركة الخلافة
ذلك الاتفاق المتكلف بين أنصار الخلافة المسلمين وبين حزب الاستقلال
الهندوكي ، دوت الاسواق شهوراً بأصوات الهتاف لحياة الوحدة الإسلامية -
الهندوكية ولكن الوحدة كانت ناقصة بقدر ما كانت متكلفة لأن العامل
الوحيد فيها كان هو مجرد إجماع الطرفين على خصومة الحكومة القائمة ، وانتهى
أجلها فجأة بانتخاب الجمعية التشريعية الثانية طبق إصلاحات مونتاجو وبتنافس
الطائفتين وحقد كل منهما على الأخرى منذ ذلك العهد . ثم إن حكومة
أنقرة الوطنية ألغت منصب الخلافة نهائياً في سنة ١٩٢٤ بعد أن سلبت
الخليفة سلطته الزمنية قبل ذلك بعامين ، وربما كان هذا كافياً أن
أن يضرب جمعية الخلافة الضربة القاضية في أي بلاد عدا بلاد الهند ، بلاد
الوهم المنطوي على غرور النفس ، إلا أن ذلك لم يكن في الهند وإستمرت
الجمعية تؤدي عملها ولكنها أعلنت في ١٩٢٥ أنها حولت عنايتها لتحسين
الحالة الاجتماعية بين مسلمي الهند ، وتقصر سياستها الخارجية الآن على
الاهتمام بالمؤتمرات الإسلامية التي تعقد بين حين وآخر وتنفذ من غير

إن تحدث آثاراً ملموسة .

لقد أطنبت بهض الاطّباب في وصف حركة المتطرفين في مسألة الخلافة فما هي أنواع الشعور التي تحتاج في نفس الرجل العادي من مسلمي الهند المعتدلين لاشك أن مباغته الاثراك له - هؤلاء الاثراك الذين ظل عشرات السنين يعتقد أنهم حماة الاسلام - بقرار إلغاء الخلافة خدشت ما كان يعتز به من روح المحافظة ، لكنه سمع أن الخلافة ألغيت من قبل وهو يأمل صابراً أنها ستبعث من جديد ، ويرى الكتاب أن إلغاء الخلافة كان قضاء منطقياً على شيء مضى أوانه ويقول الشيخ « خدا بخش » : « إن إلغاء الخلافة أجل حادث في العصور الحديثة ، وإن آثاره الحسنة بعيدة المدى ، هو آخر ثمرة لأفكار إسلامية محضنة ظلت تكافح طويلاً في سبيل السيادة ، وهو خاتمة وهم خادع ، وهو مبدأ الأفكار الحديثة التي تقابل أفكار العصور الوسطى ، هو يفتح الطريق لنمو القوميات ويطاق الأفكار الحرة من أغلالها ، إنه سيخلق للإسلام معنى للوحدة جديدة أساسه الاخلاص والتقاليد الثقافية والمصالح المادية ، ويرى سر إقبال أن إلغاء الخلافة إستعمال صحيح لحق الاجتهاد من جانب حكومة تركيا وإن كنا لا نخاله يوافق على أن ذلك سيقوى تلك القومية ، التي هي غفريته الخفيف .

وقد تالت المسألة في جعلتها إهتماماً جديداً هادئاً بما حدث أخيراً من زواج ولي عهد حيدرآباد من إحدى كريمات الخليفة السابق عبدالمجيد ، وربما يتوزن بخلد البعض أن تنشأ مسائل كثيرة معقدة عن هذا الزواج ولكن للرأى السائد بين العازفين من اليهود يرفضها جميعاً ، والآن تتركز العناية على المؤتمرات الإسلامية التي عقد أشهر مؤتمرين عنها في القاهرة ومكة في ١٩٢٦ وحضر ممثلو اليهود كلاهذين المؤتمرين ، ولكن بلاداً كثيرة لم ترسل ممثلين وكان

يعم إجراءات المؤتمرين قليل من روح الجذ ، وسيعقد في القدس في أوائل ديسمبر من هذا العام (١٩٣٢) مؤتمر آخر قليل الحول كسابقه ، والحق أن المشاكل الداخلية قد أصبحت ملحة على مسلمي كل البلاد الإسلامية حتى أنهم لا يستطيعون توجيه عناية كبيرة للشئون الخارجية عدا الحج ، ولا تزال الهند تغذو الحجاز بعدد وافر جداً من الحجاج كل عام وتحتاط حكومة الهند احتياطاً محكماً لا أجل راحتهم ، ولا يزال الحج لدى مسلمي الهند قاطبة ولا سيما المنغزليين منهم عاملاً له أكبر الفضل في توثيق صلتهم بموطن دينهم وباخوانهم من البلاد الأخرى . إن حركة الهجرة وثورة المابلا مثالان يدلان على استعداد مسلمي الهند لتسليم قيادهم للمهيجين من غير وقوف ليتدبروا فيما إذا كان هؤلاء جديرين بالثقة ، ولا يكادون يعرفون أن المسألة دينية وأن الدين في خطر حتى يحشدوا أنفسهم ويقوموا جميعاً بعمل فلما يكون في النهاية خيراً لهم ، ومن أمثلة هذا الاستعداد حادث مسجد كرنبور ، أيام نيابة لورد هاردينج ، حين ارتجبت الهند الإسلامية كلها لأن المجلس البلدي المحلي أراد إصلاح اعوجاج شارع فاقترح أن يزيل من فناء المسجد ركنا صغيراً ليس له حظ عظيم من القداسة لأنه كان خارج خط الأحذية ، وحدث أثناء الهياج مصادمات بين الشعب وبين الحكومة انتهت بذهاب الأرواح حتى تطلب الأمر حضور نائب الملك نفسه لهدى ما وقع من شغب ، ومن جهة أخرى فإن بلدية لاهور تعمدت تدمير مسجد غير رسمي في ١٩٢٢ يؤيدها الحكام وفئة كافية من الجند ، ودمر المسجد بسرعة قبل أن يبدأ أي هياح ، لم يذكر نبأ هذا الحادث في الصحافة المحلية مع أن الجميع علموا أن عمالاً من المتبوزين استخدموا في تخريب ذات المحراب ، وللمم يجد المهيجون ما يشيرون الناس له سلكواهم والصحفيون لا أول مرة طريق الحكمة وأغفلوا الأمر إغفالاً تاماً ، ومن الأمثلة الأخرى على السهولة التي يستطيع المهيجون أن يستنفروا بها الجماعة الإسلامية تلك

الحركة الخطرة ، حركة « القميص الأحمر » ، فى إقليم الحدود ، أثارت هذه الحركة فى برهة قصيرة من الزمن قبائل الأفريدى القوية فيما وراء الحدود وألبتها على الحكومة فى ربيع ١٩٣١ وجعلت المقاطعة فى حالة حرب وأسلمت عاصمتها عدة أيام لحكم الطعام وأصبحت خطراً مريعاً يهدد استقرار البلاد كلها ، كانت بواعث المهيجين فى هذه الحادثة قليلة الصلة بحقوق المسلمين ومظالمهم لأن الجماعة كانت إذ ذاك على استعداد للتضامن فى العمل عند أقل إشارة ، ولانزال الحركة باقية تحمل فى طواياها خسارة الأموال والأفئس عند أنصارها الجاهلين ، ونشبت أخيراً ثورة مسلمى البنجات فى صيف وخريف ١٩٣١ على حاكم كشير الهندوكى وعلى حكومة الشيوخ البرهمانية فى تلك الولاية التى يبلغ المسلمون فيها ٧٧ فى المائة من السكان ، أطلق المهيجون على أنفسهم لقب « الأحرار » واستطاعوا ، بما يعتمدون عليه من قوة الأخلاص فى دعوتهم ، أن يثيروا الجزء الأكبر من الجماعة الإسلامية فى البنجاب لتقوم بمظاهرة هائلة ضد الحكومة حتى اضطرت هذه أخيراً إلى الإقدام على تلك الخطوة المريعة بأن طلبت معونة الجيوش البريطانية (دون الهندية) لتعيد النظام فى الحكومة ولتنتع اندلاع ثورة داخلية يزيد بها تعقيداً وتعاطف الحى بين مسلمى الهند البريطانية . تظهر هذه الأمثلة التى ذكرناها هنا أن المسلمين — مثلهم كمثل النسيج الذين هم طائفة لا تفر نظام الطوائف — لهم قدرة فطرية على العمل الجماعى وأن المهيجين كثيراً ما يستخفونهم ويقردونهم إلى طرق كثيرة ما تؤذى مصالحهم أبلغ الأذى ، لذلك كانوا فى حاجة مستمرة إلى القيادة الحكيمة العاقلة ، وإن إيقاظ المصلحين لهم أبرز إلى الميدان كثيراً من القادة ولكن عددهم لا يزال أقل من أن يبنى بحاجتهم .

بقى الآن أن نستعرض الناحية السياسية الخالصة لمسلمى الهند المحدثين ، رأينا كيف وقف مسلمو الهند موقف المدافع منذ فقدوا سلطانهم السياسى ،

وأول ماخطر لهم من الإصلاحات هو أن يرجعوا إلى أنفسهم ويتحصنوا
بتقوية العقيدة البسيطة للإسلام الأول تقوية شديدة ، هذه العقيدة التي
عزوا فساد أمورهم وما أصابهم من ضيم إلى فسادها ، ثم جاء البرنامج الانتشائي
على يد سر سيد أحمد خان وأنصاره وتزايد الميل إلى المذاهب العقلية ، ولكن
المسلمين كانوا مايزالون يشعرون بحاجتهم لأن يواصلوا تنظيم صفوفهم للدفاع
وإن تسميتهم لبعض جمعياتهم الكبرى وما أعلنوه من أغراضها مثل « جمعية
حماية الإسلام » تدل دلالة واضحة على نزعتهم التي لم يحجبها ظهور النية الحسنة
من جانب الحكومة ، وقد أخفق المؤتمر الهندي الذي أنشئ في ١٨٨٥ إخفاقاً
تاماً في أن ينال أى تأييد من جانب المسلمين ولم يجتمع بين أعضائه بعض
المسلمين إلا في فترات قصيرة جداً وفي ظروف خاصة جداً كما حدث في ١٩١٦ ،
ولكى يقاوم المسلمون المؤتمر أسسوا في ١٨٩٢ « جمعية الدفاع » لتكون وسيلة
لبسط مظالمهم أمام الحكومة بطريقة صريحة في تجنب كل ما يشبه الثورة ، ثم
خطوا خطوة أخرى بتأسيس « الجمعية العامة لمسلمي الهند » في ١٩٠٦ لأنهم
شعروا أن جمعية الدفاع لا تنفي بالحاجة أمام تزايد قوة المؤتمر الهندي ، وفي
١٩٠٩ رضى الانجليز بمنح أول قسط من الإصلاح السياسي وهو المعروف
بإصلاحات « مورلي - مونتو » التي أعقبتها بعد الحرب إصلاحات « مونتاجو -
تشلمزفورد (١) » ، ولما أنشئت أول حكومة فيها عدد أكبر من الوزارات طبقاً
للإصلاحات الأخيرة وأسندت بعض الوزارات لأول مرة لوزراء مسلمين
وهندوك يختارون من الأعضاء المنتخبين للمجالس الجديدة عند ذلك بدأت
المنافسات الطائفية الحادة بين المسلمين والهندوك وهضى عليها الآن عشر سنين
ولا نرى لها آخراً يمكن أن تستقر عنده مع قيام الظروف الشاذة التي يفرضها
وجود الجند البريطانيين في الهند . والآن نسيت فكرة الجامعة الإسلامية التي

(١) أسماء لوردات انجليز .

أبدى مسلمو الهند لها اهتماما كبيرا قبل الحرب ، ماتت الحركة حقا وبما هو أشق على النفس ألا يكتفوا أحد ، فالأحداث التي تصيب الجواز ومصر وفلسطين وسوريا وتركيا لا تحرك قلب المسلم الهندي إلا قليلا وهي تحرك جبهة بدرجة أقل ، ويتمركز كل شعوره السياسي حول العمل ضد الجبهة الهندوكية ، ولا تزال كلمة « الدفاع » هي الصيحة التي ينفر لها مسلمو الهند جميعا ، الدفاع عن الجماعة أو عن الإسلام الذي يواجهه أو يحدق به خصم وثني يفوقه عدداً وعلماً وثروة ولكنه خصم أقل خطراً لما يعوز من تضامن وإخاء يؤلفان صفوف المسلمين ، وليست الخصومة بين الهندوكي والمسلم بنت اليوم بل كانت دائماً ولن يتيسر محوها مادام للأديان والقوانين الاجتماعية في الهند هذا السلطان الذي نراه الآن ، وربما يساعد التعليم أو التشبع بالمثل الديمقراطية العليا على أن تعود الطائفتان سريعاً إلى حالة من التسامح كانت قبل أن تغرس الأصلاحات بذور الشقاق وهذا جل ما يمكن أن يقال ، وتكاد كلمة « خصومة » لا تكفي في وصف ما بين المسلمين والهندوك ، إنه بغض تشعر به الجماعتان منشؤه الفوارق الأساسية التي لا سبيل إلى التوفيق بينها وتحليل « كريم » لهذه الفوارق غاية في الطرافة ولتقتبس بعضه هنا . يقول كريم : « الهندوكية ديانة صوفية واسعة المدى ممتلئة الجوانب تروغ بمن يريد فهمها وتخدعه فلا يستطيع تعريفها بطريقة عقلية وتسمح بكل التعاريف الممكنة لما فيها من توحيد مشوش لا سبيل أمام العقل لفهمه ومن اعتقاد وجداني بالآله ومن الشرك به والرمز له ومن صريح الخرافة ، فيها أنظمة تؤيدها جزاءات دينية وفيها تقديس البقرة ، وفي هذه الأنظمة وهذا التقديس دون ماسواها تظهر صلابة الهندوكية وسرعة غضبها ، أما الإسلام فهو أقل من الهندوكية اتساعاً لأنه إيمان بالله قوى تميزه الحماسة في رفض كل شريك له في وحدانيته وعظمته ويميزه شعور صادق بالفرق الجوهرى بين الله الخالق القادر على كل شيء وبين مخلوقاته . ومن وجهة العقيدة

نجد الهندوكية تتسع لكل شيء أما الإسلام فهو على عكسها يرفض كل ما ليس من أصوله ، والهندوكية من الوجهة النظرية لا تلاقى أى مشقة فى صلب كل فكرة جديدة بصبغتها أو فى تبريرها بما تحوى روحها الشاملة لكل شيء ، أما الإسلام فهو بشريعته الدقيقة الواضحة وبمواصلته نزعتة القديمة أخذ فى الضيق بالمستحدثات ضيقا سريعا مستمرا « (١)

« يعتبر الإسلام العالم مخلوقا لله ويعتبر الإنسان عبدا له قدر له أن يحمل صروف الحياة وأمر بأداء واجبه وسيأى عن أعماله أمام الله ويرجو ثوابه . وتمتاز النزعة الإسلامية بطابع من الرجولة الخالصة اتى لائين ، أما الهندوكية فهو يرى الدنيا — وكذلك يرى الإنسان — وهما ، أو هى فى نظره بعض الحقيقة مما دعاه إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح والأعمال ، والحياة عنده محوطة بروح من الرقة لين انشوى . »

« ويختلف ماضيها التاريخي اختلافا بينا ومتضاربا تضاربا كبيرا فى هذه الحالة لأن المسلمين هم الذين فتحوا البلاد ، وليس للمسلمين تاريخ قومى بالمعنى الحديث لهذه الكلمة وإذا كان لهم فهو ثانوى الأهمية عندهم ، إن تاريخهم الحقيقي شيء أسمى من القومية ، الهندوك يقصدون فى تاريخهم « برتهى » و « راج » و « بارتاب » و « شفاجى » و « براجى ببر » الذين حاربوا المسلمين دفاعا عن شرف بلادهم وعن حريتها بينما يعد مسلمو الهند غزاة الهند الفاتحين أمثال محمد بن القاسم والملوك أمثال اورانجزب (٢) أبطالاً لقوميتهم . »

ونشاهد هذا التباين عينه فيما يفضله كلا الجانبين فى الناحية اللغوية فبينما يتكلم الفريقان لغة واحدة هى « الهندستانية » نجد المسلم يخلع عليها ثوبا فارسيا صرفا

(١) الحق ان توافق الإسلام مع المستحدثات التى يقضيها العقل الصحيح والعلم الصحيح والمصاحبة الصحيحة أمر لا شك فيه وتاريخ الإسلام القديم والحديث شاهد بذلك . (٢) آخر ملوك المسلمين الأقوياء فى الهند (المرجم) .

والهندوكى يستخدم الكلمات السنسكريتية (١) والحروف « الناجرية » الخاصة بها ، والحياة الاجتماعية لكل منهما مستقلة استقلالاً تاماً وإذا استثنينا ما يحدث نادراً بين الهنود الذين أشربوا الروح الأوروبية فإنهما لا يأتان معاً فضلاً عن أن يكون بينهما أى ضرب من العلاقات العائلية ، وقد أفلح زعماء الاستقلال الذاتى الهندوكى فى قترات قصيرة أثناء الحرب وبعدها فى الوصول إلى تحالف اشترك فيه زعماء الخلافة أكثر من كل الممثلين المسلمين ولكن الحلف كان متكلفاً وزال بسبب ما كان يتطلع إليه الفريقان من مظاهر وجودها ووزراء الطائفتين فى الحكومة التى انشئت وفق مشروع إنشاء المجالس النيابية الجديد ، أخذت النار التى تحت الرماد فى الوميض فى ١٩٢٢ واضطربت فى ١٩٢٣ ولم تفتأ الاصدامات تتكرر بين الفريقين منذ ذلك الحين ، واشتدت فى كل مدينة كبيرة تقريباً فى الهند مشاغبات خطيرة فى مناسبة أو أكثر ، وبلغ مجموع القتلى والجرحى من الجانبين عشرات الألوف ، وكانت هذه المشاغبات كلها اتفاقية غير منظمة وكان تفاديهما أو علاجها عسيراً جداً ، وكانت تصحبها حملات شديدة من جانب الصحافة ، وأخيراً فهناك حركات منظمة من الجانبين تقصر جهودها على الإصلاح الداخلى وعلى محاولة الاعتداء بتحويل الآخرين عن دينهم ، بدأ الهندوكى فى ١٩٢٣ بحركة «الشدى» التبشيرية لكى يستردوا إلى حظيرتهم من اعتنق الإسلام اعتناقاً نصفياً فأجاب المسلمون على ذلك بحركة «التبليغ» التى ترمى إلى تثبيت هذا الفريق فى دينهم ، ومن الحركات الأخرى حركة «السنجتن» الهندوكية التى تنافسها حركة «التنظيم» الإسلامية وترمى كل منهما إلى ترقية وتنظيم أتباع كلا الدينين الذين هم أقل ضلالة فيه ، وجمعية الخلافة التى كانت يوماً شديدة الاخلاص لزعماء الاستقلال الهندوكى هى اليوم من أكبر العاملين على حركة التنظيم ، ولم تثمر حتى الآن تلك الجهود التى بذلت لمحاولة إزالة

(٣) اللغة الاصلية للجنس الهندى الاوروبى (المترجم).

الفوارق بين الطائفتين فالمسلمون يطالبون بضمانات أكيدة في الدستور الذى
 سيوضع قريباً والهندوك يستذكرون ضرورتها ويعدون بحسن المعاملة ويبعد
 أن تتاح الفرص للاتفاق ، وليس من السهل على من يعرف ما بين الطائفتين
 من تنافر مركز في الطابع أن يصدق بإمكان العمل بمقتضى قصاصة من
 الورق يتفق عايتها الطرفان ، ولا يرى أحد مخرجاً من هذا المأزق إلا عن
 طريق إنشاء البرلمان الذى وعد به رئيس الوزراء ، وبهنا الآن أن نذكر أن
 الأزمة قد حشدت في صعيد واحد كل أولى الشأن من المسلمين إلا قليلاً ممن
 شذ وكلمهم يفهمون خطورة النتيجة تمام الفهم ويوطدون العزم على الدفاع عن
 مثلهم العليا وعن حقوقهم وحضروا مؤتمري المائدة المستديرة في لندن وكونوا
 فيها جبهة متحدة تختلف اختلافاً بيناً عما في صفوف خصومهم من انقسام ورغم
 أن المسألة الطائفية لم تحل بعد فإن الحكومة البريطانية أعلنت مستنيرة
 بمناقشات المؤتمر عزمها على أن تجيب بعض مطالب المسلمين حالاً فستجعل السند
 ولاية قائمة بذاتها وسترفع مقاطعة الحد الشمالى الغربى إلى درجة ولاية يحكمها
 محافظ وهذه المنحة إجابة على طلب سر إقبال الذى أعرب عنه في الجمعية
 العامة للمسلمى الهند ، في ١٩٣٠ التى سبقت الإشارة إليها ، قال سر إقبال في
 تلك الخطبة إنه يخشى على الإسلام من القومية المخربة التى تقطع صلتها بالدين
 وأصر على أنه بما أن المجتمع الهندى ليس بين وحداته حدود جغرافية كما في
 البلاد الأوروبية وبما أنه ليس له قانون عملى يتعين بشعور جنسى مشترك
 فإن النظام الطائفى وحده هو الذى سيكون أساساً لايجاد كل متسق الأجزاء ،
 وإن هندا إسلامية ، في داخل الهند هى التى تستطيع وحدها أن تصون المبدأ
 الأساسى للإسلام ذلك المبدأ الذى يجعله دولة شاملة ، وأحسن طريق يبلغه
 هذه الغاية هو أن تتمركز حياة الإسلام في إقليم معين بل إنه ليعين أجزاء
 البند التى يريد فصلها كلها باسمه ، هى : البنجاب وإقليم الحدود الشمالى الغربى والسند

وبلوخستان ، ويزعم أن إيجاد هذه الكتلة الإسلامية سيؤدي إلى أكبر خير
للهند بل سيتيح للأسلام فرصة التخلص من الطابع الذى اضطرت نزعة التوسع
الامبراطورى العربية أن تطبعه به وفرصة تقريب الصلة بين شريعته وتعاليمه وثقافته
وبين روحه الاصلى وروح العصور الحديثة . هذه صورة واضحة ، ولكن
المثل العليا قل أن تتحقق تماما ، فالزعماء على الأقل يعرفون ما في أذهانهم وهل
يستطيعون أن يحملوا الجماهير على رأيهم ؟ يستطيعون ذلك اذا ازداد غرام
الجماهير بالتعليم ، ومن العسير أن نفر من النتيجة وهى أن ديننا بسيطا فى أساس
عقيدته وخالصا من العقائد العمياء كالاسلام سيفلت من الروح العامة التى
تنزع إلى المذهب العقلى والتى تعدل من الاديان الاخرى فى كل أنحاء العالم (١) ،
وهناك عقبة عظيمة واحدة هى أمية الجماهير وتقلص سلطان الدين الصحيح عنهم
وربما ينشأ هنا كما نشأ فى كل مكان جيل لا يقيم للدين وزنا يتوسط بين الذين
يحكمون العقل فى أمور الدين (Rationalists) وبين الملحددين الذين لا دين
لهم وإذا آل الأمر إلى هذا صار التعليم القائم على أساس من الدين والاخلاق
لازما كما لا شك فى لزوم التعليم القائم على أساس الاقتصاد والصحة والخير
العام . وتبقى بعد كل هذا الحاجة إلى قيادة حكيمة مستمرة ، ونستطيع أن نوافق
سر إقبال على ما اختتم به خطبته إذ يقتبس من القرآن « يا أيها الذين آمنوا
عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (المائدة آية ١٠٤) .

(١) إن بساطة أصول الاسلام وخلوه من العقائد العمياء أكبر ما يعينه على
مسيرة العقل الصحيح فى كل خطواته وقد حالف الاسلام العقل منذ نشأته الأولى
ولا يزال على ذلك (المترجم) .

الفصل الخامس

أندونيسيا

بقلم الأستاذ ك . ك . برج

مقدمة

- ١ - نظرة عامة ، ٢ - صنوف المدينة المختلفة في أرخبيل الملايو ، ٣ - الوثنية ،
- ٤ - الهندوكية قبل انتشار الإسلام ، ٥ - الأثر الباقي للهندوكية في جاوة ،
- ٦ - أثرها فيما عدا ذلك .

١ - يبعد طرف سومطره الشمالى الغربى عن حدود نيوجينى الاسترالية بقدر ما تبعد لندن عن الخليج الفارسى أو عن ساحل الذهب الافريقى ، ويمتد الجزء الهولندى من أرخبيل الملايو بين خطى طول ٩٥ ، ١٤١ شرقا ، ويتصل فى الغرب بالطريق التجارى العظيم الذى يصل الهند بالصين واليابان عن طريق سنغافورة ، ويتلاشى شرقا فى لانهائية المحيط . تقع هنا الجزائر التى عرف الأقدمون قبلنا أنها غنية بالذهب والتوابل لحد يكاد العقل لا يصدق ، وظل باب هذه الجزائر مفتوحا أمام التاجر الصينى الذى تفرغ للقيام بانهجارة خلال القرون ، ودخلها التأثير الأوروبى عن طريق مضيق ملقاوسار شمالا إلى جزر الفلبين وجنوبا محترقا بحر جاوه إلى جزائر الملوك ، جزائر التوابل ، وبمرور الزمن صارت تقط الطريق الجنوبى ولاسيما ساحل سومطره الشرقى وساحل جاوة الشمالى أكبر شأن من جزائر الملوك نفسها ، وعلى حين أن الغابات الاستوائية التى لا يمكن اجتيازها تعوق فى غير هذه البلاد دخول الانسان نجد خصوصية هذه البلاد الفائقة قد جذبت الصينيين من كل طراز والهندوك والتاميل والعرب

والأرمينيين والأوروبيين واليابانيين ليأخذوها وطناً دائماً ، وأدت الظروف هناك من «الاستعمار» إلى «علاقة استعمارية» بالبلاد الأصلية بالمعنى الحديث للكلمة ، كان أرخبيل الملايو بلداً مستعمرة على الطريقة القديمة طيلة الـ ١٥٠٠ سنة التي نستطيع فيها أن نستعرض تاريخها وتقدمت بهذا في الجملة . والمعضلات الاجتماعية هنا حديثة العهد ، أعني أنها نشأت منذ طرأت التغيرات على العلاقة بين البلاد المستعمرة والبلاد الأصلية ، هذه التغيرات التي جعلت لفكرة البلاد المستعمرة معنى مختلفاً كل الاختلاف عن ذي قبل ، والتي يمكن الشك في أن تأثيرها كان حتى الآن نافعاً .

تترامي حدود «دار الإسلام» في عرض هذه الجزائر وتمتد وهمية غير واضحة ، وبينما تمتد حدود العالم الإسلامي شرقاً كل يوم أمام الدعاة صامتين مجبولين متطوعين وغير مبعوثين رسمياً نجد المسلمين في الغرب في معركة حياة أو موت يكافحون خصماً أقوى منهم ، هو النفوذ الأوروبي ، ويدافعونه في كل ميادين الحياة تقريباً ولهذا السبب تتجلى في أندونيسيا ، بخلاف جهات العالم الإسلامي الأخرى ، بعض المظاهر التي تمتاز بها البلاد المتطرفة على حين أنها من جهة أخرى تشارك بلداً أخرى ولا سيما الهند في خصائص كثيرة . ولكنني نستطيع إدراك خطورة الحركات الحديثة المختلفة في أندونيسيا وعلاقتها بالإسلام ، ولكنني نستطيع الحكم عليها جهد طاقتنا لا بد أن نبدأ بوصف العوامل التي حددت أو على الأقل أثرت في تطورها إلى اليوم وأن نعرف كنه هذه العوامل وقوتها .

إذا درس الباحث أرخبيل الملايو فسرعان ما يروعه أنه كان دائماً فسيح الصدر للمدنيات الأجنبية ، فهمض على نحو ما كل التأثيرات التي وصلت إليه ، ونادراً ما كانت أندونيسيا بالنسبة للشعوب الأخرى تعدو مستعمرة ومخزن من الوجهة الاقتصادية وأعجوبة لعشاق العلم والفن ، ولا تحس بأن لها تأثيراً

فى مصائب الجماعة الانسانية ومستقبلها اكثر مما يحس بذلك انسان يدفع نصيبه
لجمعية لا يشترك فى ادارتها ولا اكثر مما يشعر به دافع الضرائب نحو حكومة
بلاده، هذا اذا بالغنا قليلا. ستبوا جاوة أبرز مكان فى الصفحات التالية حتى ليظن
الانسان أن لفظة «أندونيسيا» خطأ فى عنوان هذا الفصل وقع بدل لفظة «جاوة»،
ويمكن تعاليل ذلك بأهمية جاوة العظمى، هذه الأهمية التى تجعلها لا تقاس بغيرها
فى أرخبيل الملايو، وحتى فى هذه الأيام التى ارتقت فيها بلاد مثل سومطرة
وبورنيو بسرعة لا نظير لها من الوجهة الاقتصادية نرى ٤٢ مليوناً من الـ ٦٢
مليوناً التى تعمّر جزر الهند الشرقية الهولندية تعيش فى جاوة، ورغم أن
جاوة لم تعد مركز الحياة الروحية فى أندونيسيا فهى على كل حال تلعب الدور
الأكبر فيها، ولا بد أن أقول إن فراغ هذا الفصل لن يمكننا من العناية بكل
التيارات الحديثة، ولم أحاول أن أجعل للتفاصيل المكان الأول بل حاولت أن
أرسم الخطوط الرئيسية، ولا بد لكى أكون واضحاً أن أتبع مجرى كل من
هذه الخطوط من وجهة نظر معينة، ثم إن القارئ يجب ألا ينسى — حتى ولو
لم تلفت نظره لهذا — أن هذه الخطوط فى الحقيقة تلتقى وتفرق باستمرار
وتتقاطع وتتفصل حتى نطن لأول وهلة أن ليس هناك نسق مقرر فى هذه
الخطوط الكثيرة المتداخلة، فالخطر الذى يتعرض له من يكتب عن هذه
الأمياء هو أنه مضطر أن يصور شيئاً متغيراً على الدوام بشيء ثابت وفى
هذا تشويه للحقيقة الواقع .

٢ — ورغم كل ما يمكن أن يقال عن كفاح أندونيسيا الآن فى سبيل الوحدة
فلا نستطيع أن نعامى عن أن الوحدة الحقيقية فى أرخبيل الملايو الآن لا تزال
هى الوحدة التى تعمل على وجودها الحكومة الهولندية، هذه الدولة ليست إلا
مجرد ستار ظاهرى يخفى النزاع ويظهر للعالم وحدة أندونيسيا (١). فى أندونيسيا
(١) لعله يريد أن وجود هولندية حائل دون نزاع داخلى منشؤه اختلاف
الاجناس والاديان وغير ذلك بين أهل إندونيسيا (المترجم) .

أجناس متعددة وأمم كثيرة ومئات من اللغات المتباينة وصنوف من الثقافة متباينة تبايناً يستحق التقدير، كل هذه لا تزال بحيث يسهل تبينها. واتصل بعض هذه الشعوب الأندونيسية بالبلاد الأجنبية اتصالاً مضى عليه قرون وبعضها لم ينفذ عن نفسه غبار العصور التي قبل التاريخ، إلا منذ ربع قرن، ومعرفة بالأمم الأندونيسية من الوجهة العلمية لا تزال معرفة سطحية فحسب، يصدق هذا على داخل بورنيو وسابيس والجزائر الصغرى الكثيرة في شرق الأترخيل بل على سومطرة وجاوة وبالي أيضاً، ونعرف هنا ما يقرب من ثلاثين لغة وهو عدد صغير من مجموع ما هناك، وعلماء الأجناس أكثر معرفة ببعض هذه الشعوب وقد كون المؤرخون النقط الأساسية في تاريخ البعض الآخر. وقد تعمق العلماء في دراسة تيارى اشقافة الرئيسيين اللذين كان لهما تأثير شامل قبل وصول الأوروبيين وهما الهندوكية والإسلام، ولكن البحث في الأشكال التي تشكلها بين شعوب اندونيسيا ما يزال في طفولته، ولم يشغل في هذا الميدان من ميادين البحث العلمي إلا عدد ضئيل جداً من العلماء وليس عند الأوروبي العادي في اندونيسيا - خلا قليل من أفراد جديرين بالتقدير - إلا فكرة سطحية جداً عن مدنية جيرانه الاندونيسيين، واللغة الملايوية التي يتعلم الكلام بها في ثلاثة أشهر إن هي إلا وسيلة للتعبير فقيرة يستطيع أن يفهم بها مع الخدم والعمال في صلاته اليومية بهم ولكنه لا يستطيع الإفصاح بها من أفكار عن طراز أرقى.

٣ - جرت العادة على إطلاق اسم دوتنين، على أهل الجهات التي لم يدخلها الإسلام أو الهندوكية أو المسيحية حتى اليوم، غير أننا إذ نستعمل هذه الكلمة لا نملك أنفسنا من تذكر كلمات جوتي Goethe (١): «إذا عوزت الناس عن الشيء

1 Denn eben wo Begriffe fehlen, da stellt ein wort zur rechten Zeit sich ein (Faust, 1 p. 60)

فكرة واضحة كثرت عنه ألفاظهم الغامضة ، والوثنية في أرخبيل الملايو أهم من غيرها بمراحل من وجهة الثقافة ، ولكننا نعرفها أقل مما نعرف غيرها ، ويصعب جداً أن نقول ماهي الوثنية (Paganism) على التحقيق ، ولن نبلغ في معرفتها كثيراً إن وصفناها بأنها تعدد الآلهة (Polytheism) ، فسرعان ما يتضح من إزدياد المعرفة أن فكرة الآلهة لها معنى مختلف كل الاختلاف عما لها عندنا وقد زاد العلم في مصطلحاته التي تشير إلى الوثنية : animism . وما هو أغمض منها Pre-animism ثم أضاف إليها بعد ذلك ما هو أخفى Dynamism (١) ، ويمكن أن تنطبق كلمات « جوتي » ، على هذه الأسماء أيضاً . لم يتفق الباحثون بتاتا على أصل الوثنية وجوهرها ، ويرى الاثنولوجي المشهور الألب شمدت Schmidt أن لكل وثنية أساسا تقوم عليه من التوحيد ، ولكن كثير من أقرانه الباحثين لا يشركونه في هذا الرأي ، وهم يرجعون فكرة الإنسان الغامضة عن قوى الكون إلى خوف الشعوب الفطرية مما يحقد بهم من شتى الأخطار خوفاً ، غريزيا وتعقده هذه الشعوب بوجود اتصال داخلي وثيق في كل العالم المادى الذى تعمل فيه هذه القوى ، ويحول شعورهم بوحدة الكون دون أن يميزوا بين الأشياء تمييزاً دقيقاً حسب خصائصها حتى أن صور الحياة المختلفة مثلا ليست في نظرهم مختلفة في الجوهر بعضها عن بعض ، ولا هم يميزون الأحياء تمييزاً واضحاً عن الجمادات ، ويقسمون العالم كله ويقسمون كل قواه ومظاهره إلى طوائف حسب مميزات خارجية متبادلة كثيراً ما تفوتنا خصائصها ودلالاتها ، والأشياء التي توضع في مجموعة واحدة تعتبر متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً حتى لقد يكون كل منها عين الآخر وحتى أن الأثر الذى يقع على أحدهما يؤثر في كل الأشياء المتصلة به ، يرجع السحر في أصله

(١) أنواع مختلفة من الوثنية بين الأمم المتأخرة لم يتفق العلماء بعد على تحديد معناها (المترجم) .

إلى هذه الفكرة الأخيرة وعن السحر ينمو الدين فيما بعد .

ولست أفكار الوثنيين وعقائدهم وأعمالهم السحرية ثمرة للبحث ولا للتفكير الذى يبحث عن العلة ، بل هى تنمو بطريقة غريزية أو غير عقلية أكثر مما تنمو بغير ذلك ، والقليل الذى تنموهم أننا نعرفه عنها يرجع خاصة إلى الدراسة المقارنة لأساطير الأمم الفطرية ، وإلى ملاحظة رسوم عباداتهم ، لأن الوثني لا يقدر على تدوين ما يحول فى نفسه من إحساسات ولا يقدر على الإفصاح عنها بلسانه فيكفى الباحث مؤنة هذه المهمة، ولعله قد وضع ما تقدم أن تحليل خصائص الوثنية والهندوكية والاسلام حينما نموا فى ظل التأثيرات الوثنية يحتاج إلى معرفة اثولوجية تامة ، ولا يستطيع الباحث أن يكون لنفسه فكرة عن معنى وثنية أرخبيل الملايو إلا بعد أقصى الجهد والدراسة الشاقة التى يزيد بها صعوبة اختلاف وثنية اندونيسيا عن غيرها اختلافا عظيما ناشئا عن بيئتها وان كانت تشبهها فى الأساسيات .

٤ - كانت الهندوكية من أول العوامل الخارجية التى نجد لها تأثيرا فى العصور التاريخية ، ويحسن أن نسمى الهندوكية ثقافة الهند الوطنية بدل أن نسميها ديانة الهند لأنها تشمل مذاهب دينية وفلسفية متعددة قد تتضارب أشد التضارب ولكنها تشترك جميعا فى الاعتراف النظرى بكتاب مقدس هو «الفيداس» وفى الاعتقاد بالحركة الخالدة فى كل كائن (التناسخ) وفى الاعتراف بعدم انتهاك نظام الطوائف وهو نظام اجتماعى تولد عن الخصومة بين الجنس الآرى الأبيض والجنس الدايفدى الاسمر (١) ، ويرمى إلى الاحتفاظ بسيادة السلالة الآرية إلى الأبد ، ورغم وقوع حروب دينية فى الهند كانت حرية العقائد تسترعى النظر فى العصور القديمة ، واستطاعت المذاهب القائلة بوجود إله والقائلة بوحدة الوجود والمذاهب التى تنكر وجود الله ، استطاعت كلها أن تنمو

(١) الجنس غير الآرى الذى تنتمى إليه بعض شعوب الهند الجنوبية (المترجم)

في داخل حدود الهندوكية نموألا يعوقه شيء ، وإذا كانت الهندوكية لم تقم فقط بدعاية لعقيديتها فإن هذه الدعاية كانت مستحيلة لأن نظام الطوائف حصرها بطريقة آلية في البلاد التي يقطنها الهندوك .

والراجح أن فريقا من الهنود الذين اختلطوا بالاندوس عن طريق الاستيطان في أرخبيل الملايو كان من أحط الطوائف التي لم تختلف ثقافتها كثيرا عن الوثنية الاندونيسية ، ولم يلعب هذا الفريق دورا هاما في تاريخ اندونيسيا الثقافي بل الذي لعب ذلك الدور بالفعل هم الهندوك من الطوائف العليا ، ويظهر من سير التاريخ أنهم قبضوا على أعنة السلطة السياسية في جاوة ، وكونوا لهم شبه مجتمع خاص فوق الأهليين وذلك رضوخا لقواعد نظامهم الطائفي ، وإذا ترجح لدينا أن عدد البراهمة الذين نزحوا إلى أرخبيل الملايو ظل صغيرا جدا وأن أعضاء الطوائف العليا الآخرين لم يكونوا يتمون إلى أرقى طبقات المجتمع الهندي ولم يكونوا من حملة الأفكار الفلسفية العالية بل كانوا أتباع إحدى الديانات الشعبية ، وإذا زعمنا فوق هذا - كما هو واضح - أن مستوطني الهنود لم يحضروا معهم نساءهم بل تزوجوا من البلاد الجديدة ، إذا عرفنا هذا كله فلن نكون بعيدين عن الصواب إن اعتقدنا أن سلائل المستوطنين الهندوك في جاوة وقفوا بكتنا قديمهم في وثنية هذه البلاد ، ورثوا عن أسلافهم الهندوك الأفكار الاجتماعية الهندية وصور الديانات الهندية والآداب والعادات الهندية ثم ورثوا بعد هذا علاقات تربطهم بالهند جعلت الطريق مفتوحا أمام تأثيرات أخرى تسير إلى أرخبيل الملايو .

هـ - وبسبب الزيادة المستمرة في امتزاج الأجناس زاد تأثير الثقافة الأهلية القديمة في ذلك المجتمع الهندوكي - الجاوي بمرور القرون زيادة منتظمة ولا سيما أن الاتصال بالهند أصبح أكثر مشقة حينما هبط الأوروبيون الشرق ، وحالت قوة التقاليد الطائفية ، التي كان نظام الطوائف لا يزال يؤيدها

حتى بعد أن لم يصبح له وجود ، حالت دون تلاشي العناصر الهندوكية في الثقافة الهندوكية - الجاوية تلاشياً تاماً بل هي طبعت كل تاريخ جاوه الثقافي بطابعها ، والحق أنها لا تزال تؤثر فيه للآن ، وسنرى فيما يلي أن التراث الهندوكي - الجاوي جعل للإسلام في جاوة صبغته الخاصة وأنه لا يزال يؤثر بعض التأثير في الحركات القومية في أيامنا . ولما كانت القومية الجاوية عاملاً عظيماً في الحركة القومية في أندونيسيا ولما كانت الحركة القومية من جهة أخرى حليفة للإسلام في الظروف الحاضرة فهذه الملاحظات القليلة عن المذاهب الهندوكية - الجاوية ليست فضولاً لا طائل فيه في هذا المقام ، ولا بد أن نفصح عن رأي كهذا في مقام آخر .

ولعله قد وضح مما تقدم أن الهندوكية ليست ، حتى في صبغتها الجاوية ، ديناً عاماً في جاوه ، ولا تنكر أن جزئيات من الثقافة الهندوكية أصبحت بمرور الزمن حقاً مشاعاً للشعب الجاوي كله ولكن هذا لم يتيسر إلا لأن ذلك الشعب الفطري استطاع قبول هذه الجزئيات من نواحي كثيرة لشدة تشبعها بعناصر الثقافة الوطنية .

٦ - ولم تستطع الهندوكية ، في أي مكان من الأرخبيل ، أن تؤثر تأثيراً مستمراً مثل ما فعلت في جاوة ، لأنكر أن بعض الشأن كان لها فيما عدا جاوة مثل أقاليم مختلفة من سومطرة وسواحل بورنيو - إذاصرنا النظر عن جزيرة « بالي » التي تبوأ مكاناً شاذاً من نواحي عدة - ، ولكن يلوح أننا نستطيع أن نزعم أن شيوع الهندوكية المصطبغة بالوثنية الجاوية لعب في تلك الحالات دوراً أكبر من الدور الذي لعبه الميجي الهندوكية من الهند ذاتها . لن ندخل في تفاصيل هذه العملية ويكفي أن نقرر أن تأثير الهندوكية في الإسلام في سومطرة كان أقل من تأثيرها فيه في جاوة وأن الإسلام لذلك يبدو في سومطرة على صورة أكثر نقاء .

الإسلام في أندونيسيا

- ١ - خصائص الدعوة الإسلامية ، ٢ - مجيء الإسلام من الهند ،
- ٣ - إقراره عادات البلاد ، ٤ - مسيرته المذاهب الهندوكية - الجاوية في جاوة ،
- ٥ - خصائص الإسلام في النواحي الأخرى .

١ - لا حاجة بي هنا إلى الاطّنباب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام . ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية . يقابل أو هام الهندوكية وما فيها من غموض ومراوغة شريعة الإسلام وعقيدته المحسوستان اللتان يكاد لا يكون فيهما أثر للخيال واللذان بلغتا من النقاء ما بلغته التربة التي نشأتا فوقهما على حد تعبير « سنوك هورجروني » (Snouck Hurgronje) (١) ورغم كل ما في الإسلام من إصرار على الشكليات فلا تزال فيه تقوى إنسانية حارة وإسلام الله لا يمتاز بهما الهندوكية وإن لم تكن منهما صفرا . ونظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أوتموت لا أثر له في الإسلام ، دين الديمقراطية ، وقد استمد قوته على الدوام من حب الجماهير له بحاسيا . إن الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانا وإن معتنقيه ليفخرون به ولكنهم مع فخرهم هذا لا يدافعون غيرهم . « الإسلام يعلو » ، تلك صيحة الداعية المسلم يدعو بها الوثني لدينه ، « أدخل في الإسلام فتكون من الجماعة الإسلامية السامية » ، وما أسهل اعتناق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) هو لا يستلزم دراسة معقدة ، فليس هناك إلا النطق بالشهادة التي تتضمن الإيمان بالله الذي لا شريك له وبرسوله ، وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية . وإن إجماع المسلمين على أن اختلاف الرأي رحمة من الله ، هذا الإجماع الذي يستلفت النظر بلبينه وتسامحه ويبرهن لنا برهانا جديرا بالذكور على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد

(١) من أكبر مستشرق هولنده .

الكلمة ، يؤيده عدم وجود سلطة معينة ترغم الناس على رأيها (١) .
 عن هذه العقلية نشأت الطريقة الإسلامية المجربة في الدعاية ، تدعو الناس
 أولاً لأن يصيروا مسلمين ولو في الظاهر ، وتحاول — إن أمكن — إدخالهم في ظل
 الحكم الإسلامي ، ويتبع ذلك تغلغل الإسلام أخيراً في كل ميادين الحياة
 وإن شعور محتق الإسلام بأخوته للمسلمين جميعاً بأنه عنصر في العالم الإسلامي
 هذا الشعور الذي يبعثه الدعاة في نفسه عند أول دخوله في الإسلام ينمو ويخلق
 فيه استعداداً عقلياً لاعتناق الإسلام من صميم قواده . والحج المفروض على
 كل مسلم أن يقوم به مرة في حياته إن استطاع إليه السبيل والذي أداه ملايين
 من الاندنوس — رغم أن الشريعة تعنيهم منه لعدم قدرتهم عليه — واستيطان
 عدد عظيم من الاندنوس أود الجارى — كما يقول أهل جزيرة العرب — في مكة
 التي هي المركز المشاع للعلوم الإسلامية والتي جعل الاندنوس إليها حماسهم
 للحج ، وأثر اللغة العربية في العمل على الوحدة ، وتشابه طرق التعليم في كل العالم
 الإسلامي ، كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية في المكان
 الأول ، حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة رغم
 عقيدة وحدة الأمة تحت لواء الدين . والمثل السمي الذي ضربته أوروبا التي
 تزعم أنها مسيحية ، هذا المثل الذي ظل قروناً يضع المصلحة الفردية فوق
 المصلحة العامة لم يقتد به العالم الإسلامي إلا في هذا القرن ، وعذره في ذلك ما وقع

(١) لعله يريد أن يقول إن عدم قيام كهنوت بين المسلمين ، وتسامحهم فيما يخص
 باختلاف الرأي وعدم قيام سلطة دينية ترغم الناس على رأيها ، كل هذا يجعل الحياة
 الدينية الإسلامية يسيرة أمام من يريد دخولها — ولا ننظر أن الأجماع على التسامح فيه
 تفريق لكلمة المسلمين إلا إذا انقلب الأمر إلى تعصب كل لرأيه . والاجتهاد بالرأي
 في الإسلام من الأصول المحترمة التي عمل بها منذ نشأته الأولى ولا تزال إلى اليوم ،
 وهذا فيما يظهر لي هو الطريق الوحيد لارضاء العقل (المترجم) .

عليه من ضغط خارجي .

٢ - وأول من نشر الإسلام في أرخبيل الملايو هم التجار ، بالسلم عادة وبالغنف أيضا في بعض الأحيان ، دخل في شمال سومطرة قرب آخر القرن الثاني عشر ثم سار منها إلى جاوة في غضون القرن الخامس عشر ، وكان الناس وما يزالون يتقبلونه راضين في الجهات الوثنية للأسباب التي سبق ذكرها ، ونجحت الدعوة الإسلامية حتى في الجهات التي أثرت فيها الهندوكية تأثيرها من قبل ، وقد لفت « سنوك هورجروني » النظر مرة بعد مرة إلى أن الإسلام دخل إلى أرخبيل الملايو في القرون الأولى عن طريق الهند دون سواها فلم يستطع الإسلام بطبيعة الحال أن يصون نفسه من تأثير الهندوكية ، واختلاط الإسلام بعناصر هندوكية سهل سرعة انتشاره في الشعب الجاوي لأنه اطمأن إلى الهندوكية منذ العصور القديمة ، كما عمل على ذلك قلة النظر الثاقب وقلة روح النقد بما لم يساعد على تبين الفوارق الحقيقية بين الهندوكية والإسلام ، ولكن الإسلام لاقى مع ذلك معارضة شديدة من دوائر البلاط في شرق جاوة حيث كانت الهندوكية الجاوية إحدى التقاليد القوية طيلة القرن الرابع عشر وربما كانت كذلك طيلة القرن الخامس عشر ، تلك المعارضة التي لم تنكسر شوكتها إلا بعد حرب دموية شعواء كما تنبئنا الأقاصيص الجاوية .

٣ - وكان من حسن حظ الإسلام أنه لم يكبد يظهر على سواحل جاوة حتى نقلت المقادير مركز توازن السلطة السياسية في جاوة إلى جاوة الوسطى حيث كانت الهندوكية - بعد أن خسرت كمية كبيرة من قدرتها على المقاومة - قد انعمت أثناء القرون السابقة في ثقافة البلاد انغماراً أكبر كثيراً مما كان الأمر في شرق جاوة ، ومع ذلك فتجتاح الإسلام حولا سنيا هنا - يجب أن يعزى أولا إلى إقراره العادات القديمة لإقرارا شاملا . ثم رأينا الأسماء الإسلامية تظهر في ألقاب حكام جاوة ، فترى هؤلاء يتحلون بأسماء -

خليفة الله و بناتا جاما ، (حامى الدين) و نرى البانجولو (١) يتبوا
 فى المجتمع الجاوى مسكان القاضى والمحامى المسلم ، ولكن نجد فى
 البلاط إلى جانب هذا كل صنوف العادات الهندوكية - الجاوية وكذلك كل
 صنوف موظفى البلاط القدماء ، ونجد آداباً وشعبة بالهندوكية وضرباً من التمثيل
 الهزلى متصلاً اتصالاً وثيقاً بالآداب ، ونجد رقصاً وموسيقى وعناصر أخرى
 كثيرة من الثقافة القديمة التى قد لا يديجها الإسلام ، نجد كل هذا باقياً يكاد
 لا يتطرق إليه الوهن ، ولا يعارض الحاكم الجاوى المسلم فى أن يعد آلهة
 وأبطال والمها بهازاتا ، (١) أسلافاً له بعد محمد (عليه الصلاة والسلام) وبعد من
 يقدسهم من حملة الإسلام الأولين إلى جاوة ، كما أن قاضى الشرع لا يعد
 من العار أن يتحلّى باسم ديوجى سواراه (٢) ، الذى يعيد ذكريات ما كان يطمح
 إليه النساك والسحرة الهنود مما ليس من روح الإسلام .

(٤) لذلك يختلف المكان الذى تبوأه الإسلام فى تاريخ جاوة الثقافى
 والاثنى الذى أحدثه فى سير الحوادث اختلافاً تاماً عما نجده فى الهند ، فبينما نجد
 الهندوكية والإسلام فى الهند ، رغم تأثير كل منهما فى الآخر فى ميدان الدين
 والفكر ، يقف كل منهما خصماً للآخر فى معسكر منفصل تمام الانفصال عن معسكر
 صاحبه بسبب الفوارق الاجتماعية والسياسية وبينما يصعب جداً أن نتظر توافقاً
 فى المستقبل القريب ، نجد كل الفوارق آخذة فى التلاشى فى أندونيسيا . وترى
 من سيكون النصر إلى جانبه فى هذه المعركة القائمة بين وثنية الريفيين
 السذج وبين الإسلام الذى يقول بتوحيد الله ؟ وهل انتصرت المذاهب الهندوكية -

-
- (١) أحد رؤساء المجتمع الجاوى ، يشبه رئيس القبيلة أو القاضى ، وكان تحديد
 معانى هذه الألفاظ موضع بحث طويل مع بعض الطلبة الاندونيسين فى القاهرة
 (٢) ملحمة من الشعر الخرافى تشبه الألياذة فى ذكر الأبطال والآلهة ولكنها تزيد
 عن الألياذة كبيراً فى الطول (٢) اسم يطلق على المتصوف الوثنى (المترجم)

الجاوية أو الاسلام إلتصاراً حقيقياً في دائرة البسلاط؟ ليس من اليسير أن نجيب عن هذا السؤال اجابة شافية تماماً. إن عماية مزج دينين أو مذهبين فلسفيين مختلفين تمام الاختلاف وتوجيههما تحت ضغط الفكر الفطرى، هذه العملية اتى اضطلعت بها جاوة من قبل يوم كانت « الشفائية » و « البوذية »، رغم تشابههما الظاهرى الشديد، تتناحران في سبيل السيادة، حدثت مرة أخرى بعد دخول الاسلام، وإن الحدق الجاوى أو الـ « جاماجاوا » (الدين الجاوى) هو الذى كان بمد كل شىء وحتى عهد قريب المنتصر الحقيقى بجمعه بين المتناقضات من غير تمحيص .

ونستطيع أن نذكر ما يضيئ المقام عن ذكره من الامثلة التى تسترعى النظر على هذا التوفيق الذى ينزع إلى محو الفوارق، ويكفى الآن أن نذكر أمثلة قليلة جديدة بالذكر . هناك كتاب جاوى يسمى « سيرة كابولك » يبحث في شخصية فقيه هو « أحمد متمكن » يقال إنه نشر في « توبان » (على الساحل الشمالى لشرق جاوه) في الربع الثانى من القرن الثامن عشر مذهباً صوفياً تفرع في جوهره من مذهب أهل السنة؛ نشأ شىء من الاضطراب من أجل هذا الامر ودخل الحاكم أخيراً في النزاع لأن خصومه أحمد متمكن، أشفقوا من خطر أعماله على البلاد وعلى الدين، وأتى رسول من قبل الحاكم وشرع في التحقيق ولكى يستطيع تكوين رأى عن مذهب الفريقين حرضهما على الجدل في مسائل دينية وكان من أهم موضوعات البحث في تلك المناسبة مذهب صوفى لكتاب معروف جيداً بين الكتب الهندوكية اسمه (نواروشى) أو (بيماسوشى) يحوى قصة (بهما) و (باندانا) الذى طاف مرة للبحث عن ماء لاسأذه (درونا) ووجد الحكمة العليا آخر الامر، وبعد مخاطر كثيرة، فى قرار البحر فى بطن كائن يشبه الطفل ولكنه يجمع فى نفسه العالم كله ويسمى (نواروشى) أو (ديواروشى) . وظهر جلياً أن الخطيب (أنوم قدوس)، بطل مذهب أهل

السنة أعرِف بالحكمة الهندوكية — الجاوية من أحد متمكن نفسه وقد أثار النزاع اهتمام الحاكم بـ (نواروشى) وبد لا من أن يهتم بمصالح الإسلام عمل أقصى جهده - وهو الـ « بناتا جاما » (حامى الإسلام) - للحصول على نسخة من هذا الكتاب الوثنى ، مع أن الحكمة التى فيه لا يقرها الدين وما فعل ذلك إلا لأن ذلك هو ما أدته إليه مصلحته

وحتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نجد فى دائرة البلاط هذه النزعة العقلية نفسها رغم تأثير العرب المتزايد ، وكان « رانجا وارستا » آخر شعراء البلاط الجاوى العظام وعلمائه ، يعد أن ملك بلاده كان ولا يزال من سلالة « أرجونا » ، ومحمد (عليه السلام) وكانت آلهة القصص الهندية القديمة لا تزال عنده شيئاً أحياء لا يزعه فضلاً عن أن يقضى عليه اعتقاده بوحداية الله فى الإسلام ، وكان « رانجا وارستا » رغم هذا يتمتع بتقدير عظيم وشهرة عظيمة لتعاليمه الدينية ، وكتبه التى زاد بها فى ثروة الأدب الدينى الجاوى تبين لنا فى وضوح ما يجب علينا أن نفهمه من ذلك ، كان لا يزال فى « رانجا وارستا » « نجلمو » أو العلم والحكمة الجاوية التى يسير فيها الإسلام إلى جانب الهندوكية فى سلام ووثام كما يسير فى كلمة « نجلمو » نفسها كل من الكلمة العربية الأصلية : « علم » والكلمة الهندوكية ، وإنما استطاعا أن يسيرا معا فى سلام وإخلاص لأن خصائصهما الحقيقية ظلت غامضة أمام العقل الجاوى الذى لا يعرف النقد .

وان محاولات التوفيق بين ألعاب « الوايانج » (١) وبين الإسلام فى جاوة مثل إلباس الأبطال الخرافيين ثوبا إسلاميا تثبت إثباتا لا شك فيه أن بعض الدوائر بدأت تشعر بالتناقض بين الديانتين ولكنها تدل أيضا على أنه كان يعوزها العقل الناقد الذى لا بد له من فصل الأشياء وعدم الخلط بينها ومن التمييز بينها ، وربما كان الـ « يزانترن » (٢) الذى يتخرج فيه فقهاء جاوة

(١) ضرب من التمثيل الهزلى الوثنى يشبه « الأرجوز » (٢) المعهد الدينى . (المترجم)

المسلمين صورة باقية له الماندالا ، (٣) الجاوية أو الهندوكية الجاوية القديمة ، ولم تتغير حياة « الستري » (طلاب الدين) ، واسمهم تحريف عن الاسم الهندوكي « ستري » (العارف بالكتب الهندوكية المقدسة) كما لم يتغير المركز الاجتماعي لهذه المدارس الدينية تغيرا عظيما في جاوة رغم أربعة قرون مضت على دخول الإسلام .

٥ - ولا نزاع أن الزمن قد ساعد الإسلام ، ففي سومطره وغيرها من الأقاليم التي ظلت خارج دائرة التأثير الجاوي بدرجات متفاوتة واثني تلاشت فيها من أجل ذلك بقايا الهندوكية أسرع مما تلاشت في جاوة ، نشأت ممالك صغيرة تغلغل الإسلام فيها ، وهو وحده القوة الروحية التي لا تنازع ، تغلغلا أبعدغورا ، وحارب متعمداً بمجموع عادات البلاد وسارت الآداب الإسلامية المشهورة إلى بلاد الملايو عن طريق الهند فالكتب الدينية كالقصص التي تتجلى فيها التقوى والتي أخذت من السنة ومن تاريخ الأنبياء وكالسير المصطبغة بصبغة إسلامية عامة مثل سيرة الاسكندر وسيرة الأمير حمزة (١) لبست ثوباً ملايوياً ، وكما إنتشر التأثير الهندوكي من جاوه يوماً ما كذلك إنتشر التأثير الثقافي الإسلامي على أجنحة اللغة الملايوية من مراكز قليلة في مضيق ملقا وصارت الملايوية لغة رسمية للدول التي في الجزء الغربي من أرخبيل الملايو مثل « أجه » و « منانجاكبو » ، في سومطره و « جوهور » ، في ملقا وأفلحت في أن صارت لغة مشتركة (lingua franca) بين أهل اندونيسيا السهولة تركيبتها أو بفضل معونة الأوروبيين ، ولم يكن قط الأهم التي تتكلم اللغة الملايوية مركز سياسي يجعلها تسود غيرها فسومطره وملقا كانت يعوزهما التجانس الذي عمل على عظمة جاوه بل إن ذلك التجانس أصبح مستحيلاً لما صارت جاوه أعظم مستوطن للمولنديين .

(١) الصومعة (٢) لعله يريد بالاسكندر ، ذا القرنين المذكور في سورة الكهف ولا أدري من يريد بالأمير حمزة أهو يريد سيدنا حمزة بن عبدالمطلب أم غيره (المترجم) .

عوامل التجديد

١ - الاتجاه الجديد في الثقافة بسبب تجارة أوروبا وملاحتها ، ٢ - الدور الذي قامت به مكة وحضرموت ، فكرة الجامعة الإسلامية ، ٣ - قيام حركة التجديد المصرية ، ٤ - الوهاية الجديدة ، ٥ - تأثير مجلة المنار ، ٦ - حركة التجديد على شاطئ سومطره الغربى .

١ - ظهر الأوروبيون في مياه أندونيسيا في أوائل القرن السادس عشر ، وكان من النتائج التى نشأت سريعا عن انتظام حركة الملاحة نحو الشرق اتصال أرخبيل الملايو بجزيرة العرب اتصالا مباشرا ، على حين نقص تأثير الهند الثقافى فى أندونيسيا نقصا كبيرا أوهو على الأقل فقد أهميته ، وعلى حين قل شأن التاجر الهندى كثيرا بمنافسة الأوروبيين له فى ميدان التجارة ، ثم إن الملاحة البخارية وفتح قناة السويس سهلا اختلاط الشعبين وأسرعاً فى توجيه ثقافة أندونيسيا توجيها جديداً .

٢ - وعلى هذا فان الظروف الخارجية بوأت جزيرة العرب المكان الذى تبوأته الهند حتى ذلك العهد ، وكان معنى هذا سنوح فرصة حسنة لمذهب أهل السنة ، وأخذت تترعرع فى مكة جالية من طلبة العلوم الدينية ، وصار الذين غادروا مكة متمكنين من دراستهم منابع يفيض منها تأثير مذهب أهل السنة فى بلادهم ونشأت ألوان جديدة من الآداب فى لغة الملايو وهى المسماة آداب الكتاب ، وترجمت إلى الملايوية كل صنوف الكتب الدينية والفقهية والصوفية والسنية ، وكان لهذه الكتب - رغم شذوذ أسلوب اللغة الملايوية - جمهور متزايد من القراء فى سومطرة أولا وفى جاوة بعد ذلك حيث نرى نزعة أهل السنة تنمو رويداً رويداً فى نفوس طلاب الدين بتأثير هذا الأدب الإسلامى الجديد .

وإذا كان هذا التأثير ، الذى يجب أن نقدره حق قدره ، وصل إلى الشعب من طريق العلماء خاصة فإن الجماهير وقعت مباشرة تحت تأثير عرب حضرموت شديدى الاستمساك بمذهب أهل السنة ، هؤلاء العرب الذين بدءوا يرحلون زرافات من بلادهم المجذبة إلى أندونيسيا فى القرن التاسع عشر ، وهنا هيأت لهم خصوبة التربة ومعها احترام أهل البلاد ظروفًا للمعيشة أحسن كثيراً مما كان لهم فى بلادهم بل أحسن مما يمكن أن يكون لهم فى الهند . ولما كانوا تجاراً فانهم أفلحوا فى توثيق صلتهم بأهل البلاد ، ونشأت أواصر أخرى عن طريق الزواج ، وأثرت الأحياء التى كان يسكنها الحضرميون - أو «الكوجا» كما يسميهم أهل أندونيسيا - تأثيراً عظيماً فيمن جاورها ، هذا التأثير الذى كان يكون أكبر شأنًا لولم تضع الحكومة الهولندية العراقل فى سبيل هجرة الحضارمة وحرية انتقالهم .

وسنخط هؤلاء الحضارمة - بالطبع - من معارضة الحكومة الاستعمارية لهم كل السخط ، وربما كانت تريد مكافحتهم إقتصادياً أكثر مما كانت تريد مكافحتهم دينياً ولكنها غرتهم فظنوا الأمر دينياً ، ولذلك أحدثت شكاياتهم فى العالم الإسلامى صدًى أوسع مما كنا نتصوره لولم يكن الأمر دينياً . ثم أن مظالم أخرى أحفظت قلوب المسلمين على الهولنديين ، وفى مكة حيث التقى مسلمو أندونيسيا دار الكلام كثيراً حول تضيق الحكومة المستعمرة على مسلمي أندونيسيا تضيقاً متكرراً التحول بينهم وبين أداة شعائرهم الدينية ودعا إلى إثارة هذه المسألة أن محاولات هولندية منع الاندنوس من الحج كانت مهاجمة لمالية أهل مكة الذين يعيشون إلى حد كبير على ما ينفقه أهل جاوة ، أضف إلى هذا أن حرباً يعدها الاندنوس جهاداً ، أقيمت سنوات كثيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى أوائل القرن الحالى ضد المسلمين المتحمسين فى «أجه» ، وأضف إليه أيضاً أن مسلمي أندونيسيا رأوا شبح التنصير يتراوح مراراً أمامهم حينما جاهر

المبشرون المسيحيون في حماستهم بعدم الاعتراف بالصفة الإسلامية لأهل جاوة وسومطرة وبهذا نستطيع أن نعرف لماذا ساد في مكة الرأي القائل بأن الهولنديين من أشد الأعداء الأوروبية تعصبا على الإسلام وعدماء له . وكان طبيعياً جداً في هذه الظروف أن يعمل الحج والمقام في مكة بدورها على دفع كثير من الأندونيس إلى معاداة ومخاصمة هولندا والحكومة الهولندية في أندونيسيا مما كان متمشياً من نواح أخرى مع المبادئ المتعلقة بالجهاد ، تلك المبادئ التي قامت في الجماعة الإسلامية من أول تكوينها .

ولما كان الأندونيس أقل شعوب الإسلام قدرة على التفكير في شن حرب مادية — مع مراعاة نقص التنظيم الحربي في العالم الإسلامي — قصروا أمرهم على أخذ نصيب في حركة الجامعة الإسلامية ، بقدر ما كان ذلك ممكناً في بلادهم النائية ، وعلى معاضدتها مالياً في مشروعاتها ، ومعلوم أن فاصل السلطنة العثمانية حاولوا بين حين وآخر في أوائل هذا القرن استغلال وجود نزعة للجامعة الإسلامية وتسخيرها لمصلحة سلطانهم وبلادهم : فحاولوا حمل جميع المسلمين على الاعتراف بسيادة السلطان بحكم أنه خليفة المسلمين جميعاً ، وتكاد قلّة مالدينا من معلومات عن الموضوع تجعل مستحيلاً علينا أن نعين إلى أي حد تغلغل تيار الجامعة الإسلامية في اندونيسيا ، ولكنها لعبت دورها في تمهيد السبيل لما أعقبها من حركات إسلامية .

وإن وجود صحف اندونيسية تعرف كثيراً من أهل البلاد بالحوادث الجديدة في العالم الإسلامي له اليوم شأن عظيم في إضرام مآتوري من وميض العواطف المتعلقة بفكرة الجامعة الإسلامية ، ففي العام الماضي مثلاً (١٩٣١) ترددت إشاعات عن الاضطهاد الذي كان يلقاه مسلمو طرابلس من الحكومة الإيطالية ، وكان من أثر هذه الإشاعات في مسلمي أرخبيل الملايو أنهم كتبوا في صحفهم مقالات حماسية وعقدوا اجتماعات يعلنون فيها سحقهم وفكروا

في مقاطعة البضائع الإيطالية حتى اضطرت حكومة الجزائر الهولندية إلى مطالبتهم بالاعتدال - وأذاعت الحكومة الإيطالية منذ شهور قليلة فقط (ديسمبر ١٩٣١) انكارا تاما للإشاعات الجارية في اندونيسيا ، أذاعته في صورة بيان صادر من مصدر إسلامي في طرابلس يؤكد فيه حسن علاقة إيطاليا بالمسلمين فيها ، فالظاهر أن مسلمي اندونيسيا لا يسرون دائما وراء الحقائق حين يعبرون عن عطفهم على الجامعة الإسلامية .

٣ - وبينما عمل التأثير الأوروبي ، ولا سيما في غضون القرن التاسع عشر وبطريقة غير مباشرة وعن غير قصد ، على تقوية الإواصر التي تربط مسلمي اندونيسيا بسائر العالم الإسلامي وعمل بالتالي على شد أزر مذهب أهل السنة بانتقاصه من المذاهب المحلية ، بدأ يسود في نواحي أخرى تأثير أوروبي غير قصدي كسابقه ولكنه فيما يختص بالإسلام مدمر في جوهره ونتائجه . إن توسع أوروبا توسعا شاسعا من جميع جهاتها تقريبا ، اخترق حدود العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر ، وأحدث حركة شديدة حلت محل الهدوء النسبي في القرون السابقة ، رأى المسلم المعتز بنفسه أن الكافر يجتاحه ورأى نفسه مرغما على التلصق للغرب وعلى اتخاذ وسائله إن أراد ألا يسحقه الكافرون ، فبدأ شبان الهند والمغرب ومصر وسوريا يفدون إلى جامعات أوروبا حيث كانت المذاهب القائلة بتحكيم العقل تحتفل بأكبر انتصاراتها ، وإذا كانت تقاليد الثقافة الأهلية لشعوب الإسلام المختلفة والظروف المذلة التي دفعتهم إلى التعلم في أوروبا أول عقبة في سبيل تشرّبهم الثقافة الأوروبية فإن تضارب تيارات قوية الآن في تلك الثقافة كان عقبة أخرى ، وربما كانت القوة العظيمة التي أحرزتها أوروبا في القرن التاسع عشر قادرة على إرغام الناس على إحترامها ولكنها لم تكن تقدر على إرغامهم على محبتها والعطف عليها ، ومهما إشتد ميل الطلبة لتشرب الثقافة الغربية لذاتها فإن تحقيق ذلك لا يتيسر إلا على أساس من

التفاهم ، ولم يكن منتظراً من أوروبا في تلك الأيام أن تفهم حقوق رعاياها المسلمين ومطالبهم ومظالمهم لأنها كانت لا تزال تعتقد إعتقاداً راسخاً أنها أفضل منهم من جميع الوجوه ، وكان لابد لها أن تتعلم من سير الحوادث أن الأساس الروحي الذي تستند إليه قوتها وتفوقها كان قلقاً بعض القلق بسبب ما في صميمه من تضارب فلا نعجب من أن النزوع لمقاومة النظام الثماني السائد في أوروبا ذلك النزوع الذي ازداد قوة على قوة في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يدب أيضاً في نفوس الأجانب المسلمين في أوروبا ، ثم إن العلاقة القائمة بين بلادهم وبين أوروبا جعلت للمقاومة صبغة سياسية أول الأمر ولا شك أن الخصومة السياسية تدني حائلها دون أن يفهم المتخاصمون ثمانية بعضهم بعضاً فهما صحيحا .

وهكذا عاد كثير من الشرقيين الذين تربوا في أوروبا إلى بلادهم وقد ارتووا من ثمرات المدنية الأوروبية خيراً وشرها من غير أن يقدروا دائماً على تشربها ، عادوا متأثرين بقوة أوروبا وتقدمها السريع ولكن من غير أن يكونوا في الجملّة أكثر نفاذاً إلى ما في أساسها من قوة أضعف من الأوروبي العادي نفسه ، انتفعوا بالثقافة الأوروبية وبناتج البحث العلمي الأوروبي ولكن من غير أن يكون لهم شغف خاص بأوروبا ومن غير أن يميلوا للاعتراف بسيادتها السياسية والاقتصادية حقاً طبعياً ، وبدأ الشباب في كثير من بلاد الإسلام يطمحون إلى استئلال بلادهم ونظراً لضعفهم عن أن يفعلوا وحدهم شيئاً ذا خطر لم يكن لهم بد من اللجوء إلى الشعوب التي نشأوا منها ، ودعا التضامن الوطني أو السياسي إلى تضامن في ميدان الدين ، وأحس الذين ضعفت المذاهب العقلية عقيدتهم أوقضت عليها أن ترويحهم لتلك المذاهب سيجعل التعاون مع شعب متمسك قليلاً أو كثيراً بمذهب أهل السنة مستحيلاً على الإطلاق ، كانوا يريدون تسخير أبناء وطنهم لتحقيق غاياتهم

السياسية وربما كانت معاضدة أبناء وطنهم القوية لهم في ذلك كافية في تعويض الكثير منهم عن تضحياتهم المعنوية بكتبان آرائهم الخاصة ، وكان إظهار الإسلام وإضمار غيره ، وهو ما يسمى « نفاقا » ، بعض في الأحيان في مصر ، أسهل عليهم لأنهم كانوا يميلون إلى اعتبار الدين كمية مهملة بجانب المثل الوطنية العليا (١) . هذه ناحية من المسألة ولنوجه عنايتنا للناحية الأخرى أيضاً . يبين الأستاذ « سنوك هور جروني » ، في محاضراته التي ألقاها في أمريكا عن « الإسلام » ، كيف تنتهي التغيرات الخطيرة في الأحوال الثقافية العامة للشعوب بنهضة دينية ، ونستطيع جريا مع هذه النظرية أن نلمح في بلاد إسلامية مختلفة حركات دينية قامت في نفس الوقت الذي دخل فيه التأثير الأوروبي ، ولا ضرورة للتورط في معرفة أى البلاد ظهرت فيها قبل غيرها النزعات الحديثة في ميدان الدين ولا في تفاصيل كل حركة من حركات التطور ، وقد يكون « جولد تزيهر » مصيباً حين يغزو أول باعث على حركة التجديد إلى الهند ، ولكن يلوح أن ليس هناك سبب يدعونا للزعم بأن الهند كان لها تأثير خاص في سير الحوادث العام لأن الأسباب والظروف كانت متشابهة تشابها عظيما في جميع بلاد الإسلام ، ورغم أننا لا نستطيع جحود ما كان للهند من تأثير في تطور الأفكار الحديثة بين مسلمي أرخبيل الملايو بل ربما كان تأثيرها عظيم الشأن ، فالتأثير ألا تتعرض لهذا التأثير هنا ، لأن الإسلام الحديث في الهند ، لما له من علاقات مع الهندوكية المشبعة بروح التجديد ، أكثر تعقدامه في أى مكان ، ويظهر أن العلماء لم ينحسروا للآن مسألة الصلات بين الإسلام

(١) الحق أن هؤلاء الشبان الذين يتكلم عنهم الكاتب لم تبلغ المدنية الغربية منهم هذا المبلغ ، وكانوا يشعرون بصلتهم بالإسلام صلة وثيقة على مثال ما أبان عنه الأستاذ « جب » ، في المقدمة ، وتاريخ الحركة القومية في مصر لا يؤيد ما يزعمه كاتب هذا الفصل ، وقد تمشى الإسلام على ثمرات العقل الصحيح تمشيا تاما (المترجم) .

الحديث في الهند وحركة التجديد في أندونيسيا فحسب كافيا ، على حين درس بعض الباحثين المبرزين تطور مصر الحديث وعلاقاته بأندونيسيا ، ولسنا بحاجة أن نؤكد أننا في الملاحظات القليلة التالية لن نمس إلا بعض النقاط الهامة في حركة التجديد الإسلامية في مصر وفي تأثيرها في أندونيسيا ، ومن المسلم به بديها إمكان وجود فوارق خاصة كثيرة أثرت في حركة التطور حتى يكاد ذلك لا يحتاج إلى تأكيد .

وجد الجيل الناشئ في مصر نقطة صالحة يوفق فيها بين الإسلام الأول وبين الأفكار الحديثة وذلك بقبوله رأيا خاصا في مسألة الاجتهاد التي بحثت في القرون السابقة أيام هرطقة المعتزلة وأيام ابن تيمية والوهابيين ، ورغم رفض السواد الأعظم من المسلمين لهذا الرأي الجديد فقد وجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في نفس الوقت الذي دخل فيه التأثير الاوروبي بطلا مقادما يلتهب حماسه وفتيها من أعظم فقهاء المسلمين نفوذا هو مفتي مصر الشيخ محمد عبده (توفي في ١٩٠٥) . أدرك هو وأشياعه الذين عرفوا بالسلفية أن نزعة الشباب المتعلم على الطراز الاوروبي إلى تحكيم العقل تتطلب إصلاحا جديدا من جانب الفقهاء والمتكلمين ، وأفلح أخيرا بمظاهرة كبار رجال الدولة في نيل بعض الاعتراف بنزعة الجامعة بين مذهب السلف وبين الآراء الحديثة رغم معارضة دوائر أهل السنة في الأزهر له ، وكان الأساس الذي رأى السلفية أن في وسعهم أن يجمعوا عليه من يعترض على أشياء يراها تشديدات في العقيدة الإسلامية ولكنه يقبل هذه العقيدة في جملتها فيما عدا ذلك ومن ينزع نزعة التجديد على أساس تحكيم العقل ويحتذ به الإسلام مالم يعرقل تحقيق المطامح الحديثة وما دام يعمل على رفع شأنها كان ذلك الأساس هو أن المجتهدين يستطيعون في كل العصور أن يوفقوا بين الإسلام وبين الحاجات المتجددة ليجعلوه دائما في مقدمة الأديان ، وكانت مجلة (المنار) في مصر أول مصباح

أرسل شعاعا من هذا التفكير الجديد على جمهور عظيم من المسلمين .

هـ — ولم يشرق « منار » القاهرة على المصريين وحدهم ولكنه أشرق على العرب في بلادهم وفي خارجها وعلى مسلمي أرخبيل الملايو الذين درسوا في الجامعة الأزهرية أو في مكة وعلى الاندونيسى المنزل الذى ظل محافظا على علاقاته بقلب العالم الاسلامى بعد عودته لبلاده النائية على حدود دار الاسلام هؤلاء جميعا رأوا الاسلام على نور جديد لم يروا فيه مثالا للتشدد والجود ورأوه لا يزال الدين المختار بين الاديان ، وحامل المثل العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو شاب متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد فى تسامح ورفق ، وأصبح الذين اقتبسوا من نور المنار فى مصر « منارات » صغرى فى اندونيسيا بعد أن عادوا اليها .

والدليل على نماء الأفكار الجديدة فى تربة اندونيسيا الانتفاع بالاستاذة المصريين فى بلاد كثيرة لكى ينشئوا الشبان على الروح الجديدة وعلى المثل العليا الجديدة . وبالطبع بدا هذا النور الجديد لآعين الكثيرين نورا خادعا يعشى العيون ، ولم تعدم الأفكار الجديدة معارضا ، وتأثر مجرى النزاع بين الشيوخ والشبان وتعينت مواضع النزاع بينهم بعوامل كثيرة اختلفت باختلاف البلاد . ويكاد يكون محالا أن نصف حركة التجديد هذه من كل نواحيها فى أرخبيل الملايو ما دمنا لم ندرس إلا مظاهر قليلة لحركة التجديد فى تلك البلاد وما دمنا لانكاد نصل إلى مصادرها . ونستطيع فى الجملة أن نقول إن شأن حركة التجديد هنا فيما يظهر ، أقل كثيرا من شأنها فى الهند أو فى مصر لان العوامل التى نشأت عنها حركة التجديد فى اندونيسيا لم تبدأ فى العمل إلا بعد أن انتشرت فى الهند ومصر . وكان أول ظهور حركة التجديد الاسلامية فى سومطرة وجاوة . مبتسرا على نحو ما ، فضاعت الحركة بين السفاسف بدلا من أن تجدد فى السير على جادة التقدم . وفى غضون العشرين سنة الاخيرة غير التعليم على الطراز

الأوروبي الحالة الثقافية العامة في اندونيسيا تغيرا جوهريا ونشا عن ذلك أن الحركة الإسلامية الحديثة تنزع نزع التجديد الآن وتقل فيها السذاجة .

٦ - ويظهر من بحث الاستاذ ب. شريك B. Schrieke الهام في حركة التجديد على ساحل سومطره الغربى أن كل الأفكار الحرة ظهرت فى عشرات السنين الأولى من هذا القرن فى كلا الناحيتين السياسية والاجتماعية أما فى الناحية الدينية فسارت مقاومة ما كان يعتبر « بدعة شرعية » جبنا لجنب مع الدفاع عن الأنظمة الجديدة التى تتطلبها روح العصر : « بدعة لغوية » كالأصلاحات فى نظام التعليم واستعمال الحروف اللاتينية والملابس الأوروبية والقاء خطبة الجمعة باللغة الوطنية ومعرفة أول رمضان من طريق الحساب بدلا من طريق الملاحظة ، وتمتاز حركة التجديد على ساحل سومطرة الغربى بمميزات أهم من هذه السفساف التى قامت من أجهار حرب كناية ومنازعات بين المجددين والقدماء ما زال قائمة كسائل النية جهرأ أو سرأ وهل الطهارة الوضوئية ضرورية عند مس القرآن ، تلك المميزات التى يؤكدها (شريك) هى : ١ - إثثار استعمال العقل على طريقة المعتزلة بدل الخضوع لقدماء المجتهدين خضوعا أعمى وليس معنى هذا أن المجددين امتلكوا ناصية النقد العلمى كما امتلكوها الأوروبيون ، ٢ - ونشأ عن هذا رفض الرأى القائل بأن كتابى (التحفة) و (النهاية) أشهر كتب الفقه الشافعى فى اندونيسيا يجب أن يكونا ، دون ما عداها من كتب الفقه القديمة ، الدليل الذى يرجع اليه الإنسان فى تعيين مسلكه إزاء المسائل المتنوعة ولا سيما العملية منها ، وفوق هذا صار الناس أحرار فى التقيد بالتقليد أعنى اتباع رأى الأئمة السابقين ، ٣ - قصر صحة الإجماع على إجماع مجتهدى عصر معين ولا يكون إجماعهم صحيحا إلا إذا وافق القرآن والسنة وحرركة التجديد هذه التى انبعثت من (المنار) وذاعت من مجلات الملايو أثناء العشرين سنة الأخيرة أحدثت حركة عظيمة فى «أراضى بادانج الواطنة » وحرركة أقل

منها أيضا في الاراضى المرتفعة ، وكان النضال مع القدماء المتمسكين بمذهب أهل السنة ، ذلك النضال الذى اتخذ أشكالا متطرفة فى كثير من الأحيان بسبب حب الناس للعادات القديمة حبا خاصا ، عاملا على تضيق نشاط المدرسة الحديثة من الناشئين تضيقا عظيما ، ولانسى أن مقاطعة « مناجكا بو » إحدى المقاطعات القليلة فى العالم التى تحكمها الامهات (١) وفوق هذا اضطربت حركة الشبان الناشئين بحلول الحركات السياسية فى المكان الاول مستقلة عن الاسلام . وسنوجه همنا الآن لهذه الحركات

أصل القومية ونموها

- ١ - القومية الجاوية نتيجة لادخال الحكومة الهولندية الاضطراب فى التنظيم الاجتماعى
- ٢ - مطامح الاشراف ، ٣ - مسألة ظهور المهدى (راتو آدل) قرب قيام الساعة
- ٤ - تأثير نظام الزراعة الاجبارى ، ٥ - السياسة الخلقية الاستعمارية وتغير المجتمع
- الاهلى ، ٦ - التطور الحديث ، ٧ - خصائص القومية الجاوية ٨ - القومية الجاوية مزيج من عناصر كثيرة ، ٩ - الدور الذى قامت به « شركة اسلام » ، ١٠ - حركتنا والمحمدية ، و « الاحمدية » .

١ - لعل القارى يذكر أننا وصفنا المجتمع الجاوى القديم بأنه مجتمع « استعمارى » ، بمعنى الكلمة القديم ويمكن أن نقارن مركز الهولنديين فى أندونيسيا أثناء حكمهم « شركة الهند الشرقية المتحدة » ، بمركز اشراف المجتمع القديم من وجوه كثيرة . كون الهولنديون طبقة جديدة عالية حتى أن المجتمع الذى كان ثنائى التركيب قبل دخولهم صار ثلاثيا ، وجريا وراء مصلحة تجارتهم قتلوا تجارة وملاحه الاشراف الجاويين المنافسة لهم التى وجدوها عند هبوطهم أرخبيل الملايو ، ولكنهم فيما عدا ذلك تركوا المجتمع كما وجدوه مع دفعه

١ - من الشعوب المتأخرة ما يسود فيها نفوذ الالب ومنها ما يسود فيها نفوذ الالام حتى ليعتبر الالب ضيفا أو زائرا (المترجم)

إلى بعض الأعمال التي يقصد بها خدمة تجارتهم وبهذا أوجدوا بطريقة غير مباشرة أول عامل أثر في تغيير المجتمع تغييراً حاسماً بدأ في الظهور من ذلك الحين، الواقع أن حكومة شركة الهند الشرقية المتحدة، لم تظهر في مظهر من السلطة الأديية ولا هي ادعت لنفسها ذلك، وما كانت ترمي إلا للإشراف على المنتجات وعلى نقل المحصولات فلم تستطع أبداً أن تحل محل الإشراف القدماء ولا أن تدبجهم في نفسها لأن الإشراف في ذلك الوقت كانوا مرتبطين بأهل البلاد بروابط كثيرة وإن ظلوا محتفظين بمركز اجتماعي ممتاز، وتزوج الهولنديون من نساء جاويات لم يكن من طبقة الإشراف البتة لما بين هؤلاء وبين الهولنديين من خصومة، فصار من المستحيل الوصول إلى حل يوفق بين المتنازعين ويحسم نزاعهم المتزايد كما حصل في جزر الفايين، ولما لم يحدث ظهور شركة الهند المتحدة تغييراً في موقف الزراع أول الأمر وجد الإشراف أنفسهم في مركز دقيق غاية الدقة، فبعد أن سلبوا سلطانهم في الحكم صاروا شيئاً فشيئاً إلى المكان الأوسط بين الشركة وبين سواد الشعب في المسائل السياسية وفي الاقتصادية أيضاً فلم يصبح ممكناً أمامهم إلا مطمح واحد هو الاندماج في غمار الشعب الجاوي في المستقبل، وكان الإشراف يعدون أنفسهم أرقى مدينة من الحاكم الدخيل، وكانوا أعزة أباة فلم يطلبوا احتمال هذا الضيم، فلا نعجب أن يخبرنا التاريخ الجاوي بثوارث عنيفة أظهرت ضعفهم شيئاً فشيئاً، وكانت آخر حركة كبيرة تجلت فيها مقاومتهم هي التي قام بها الأمير ديانيجارا، أكبر شخصية في الحرب الجاوية بين سنتي ١٨٢٥، ١٨٣٠ ولا يشق علينا الزعم بأن مسلك الإشراف إزاء الهولنديين تحسن منذ تلك الأيام أو تغير تغيراً تاماً، وكثيراً ما يسمى الإشراف الذين لا يزالون يقومون بدور هام في إدارة البلاد رعية مواليين، لجانب هولندية، ولن يستطيع الحكم على هذا الزعم إلا الإشراف الجاويون أنفسهم هؤلاء الذين ليس من مصلحتهم الكلام في هذا الأمر وسكوتهم

عنه من ذهب ، و التاريخ يعلمنا ألا نجري كثيراً وراء الوهم فيما يتعلق بمنغى هذا السكوت ، فالولاء للحاكم الأسمى يجلب منافع ينبغي ألا نبخسها قدرها كما أنه يتيح فرصاً مستقبلية ولا سيما إذا كان مركز الأشراف مهدداً بخطر جديد من جانب حركة الشعب . وكان من غلطات الهولنديين التي لم ينفردوا بها أنهم لم يحاولوا - مع تضحية بعض المنافع إذا اقتضى الحال - إيجاد علاقات مع أهل المستعمرات قبل فوات الفرصة ، ونستطيع أن نعد هذه الغلطة غلطة طبيعية إذا راعينا ظروف الزمان والمكان ويمكن أن نجد من الأدلة الصحيحة ما يغيرها ، وأن نشعر بأننا مقتنعون بأن الكثير من محاسن الحكومة أصلح الخطأ فيما بعد بل أرى على ذلك بما جعل لها فضلاً ، وأن نحث غيرنا على أن يسحبوا على التاريخ ذيل النسيان . وفي الوقت نفسه أصبحت هذه الغلطة عاملاً عظيم الشأن في تاريخ نمو عواطف الكراهية لأوروبا ، ولا يمكن أن نزيهاها أو ننسخها بالانكار أو الإخفاء ولا سيما بعد أن أعطينا خصوم الحكومة المستعمرة سلاحاً من البحث في التاريخ بحثاً علمياً كما في أوروبا .

٢ - ماذا كان يتوقع أعداء شركة الهند أن يكسبوا ؟ لم يكونوا ينتظرون . في المسائل المادية سوى مجدهم وقوتهم ولكن ربما كانت عيونهم ترنو في المسائل العامة إلى استرداد الأحوال التي كانت قبل هبوط الهولنديين أعنى استعادة القوة السياسية والاقتصادية للأمراء والأشراف ، ولم يكن هذا بالطبع المثل الأعلى الذي يطمح إليه الشعب بأسره بل كان المثل الأعلى لمن لهم في الحكم مأرب ، وربما لا نستطيع تسمية مقاومتهم لشركة الهند في القرون الأولى حركة قومية لأن سواد الأمة وقف عنها بمعزل بل لم يكن معناها ، وأؤكد كلمة « ربما » ، لانا لا نتردد في أحوال أخرى أن نسمي الحركة حركة قومية من غير بحث في تفاصيل نسبة القائمين بها لسواد الشعب من حيث عددهم أو مكائهم الاجتماعية .

٣ - وكلما قلّ الأمل في إمكان الرجوع إلى العهد القديم في جأوة أصبح ذلك الرجوع من ضروب الخيال ، ومن السخط على الحاضر والحين إلى الماضي تولد الآمال الخاصة بالمسيح ، وتغيرت الآراء الخاصة بعلامات الساعة ، هذه الآراء التي كانت موجودة من قبل ، لتلتئم مع الموقف الجديد ، سيأتي الـ « راتو آدل » (الحاكم العادل) يوماً ما ويضع نهاية لحكم الأجنبي ، ونشأت آداب مشربة بهذه الآراء ، وظهرت كتب تنبأ بنهضة جأوة وتعلن نهاية الحكم الهولندي قهراً فترى على سبيل المثال « ديبانيجارا » بطل الحرب الجارية ينصب نفسه « حاكماً عادلاً » ويتخذ اللقب الغامض : « ايروشا كرا » الذي ينسب للمسيح المنتظر ، ولم يكن « ديبانيجارا » أول ولا آخر « حاكم عادل » ، فالتاريخ الجاوي يقص علينا نبأ « مهديين منتظرين » قبله ، كما تخبرنا التقارير الاستعمارية الهولندية عن آخرين بعده ، ولسبب قوة هولنده وتوطدها أثناء القرن التاسع عشر كان « الحكام العادلون » المتأخرون أقل خطراً على الحكومة الاستعمارية مما كان « ديبانيجارا » ولكنهم في الوقت نفسه كانوا أكثر عدداً ، ولما كان الاعتقاد بالحاكم العادل وليد مقاومة الحكومة الاستعمار فانه أثار مقاومة جديدة فكتب لنفسه البقاء ، وأدت ظروف سنعود إليها فيما بعد إلى إذاعة الاعتقاد « بالحاكم العادل » ، وزيادة على صبغة المحلية الاندونيسية يسهل أن نعهده والآمال المتعلقة بالمهدي عند المسلمين شيئاً وحداً ، هذه الآمال التي دخلت في أذهان الجماهير في نفس الوقت الذي انتشر فيه الإسلام ولا تزال إلى يومنا تؤثر تأثيراً عظيماً ، وكان كثير من الجاويين يعتقدون أن الحكم الهولندي سينتهي في ١٩٣٠ وأساس ذلك اعتقاد « بالحاكم العادل » ، يلوح أنه لعب دوراً له بعض الشأن في الأعمال الثورية التي قام بها « الحزب الوطني الاندونيسي » ، والتي قضى عليها تدخل البوليس في ١٩٢٩

٤ - لا شك أن الأشراف الجاويين لم يتألبوا تديراً في مركزهم الاجتماعي الوسط الجديد ، فلم يكن بد من سقوط بعض هيبتهم في أعين الزراع كما فقدت

قوتهم وضاع تقديرهم في عين الأجني ، وزادت خسارتهم زيادة عظيمة عند ما بدأت الحكومة الهولندية تتدخل في إنتاج نباتات استوائية معينة للسوق العالمي فأدخلت النظام الزراعي ، قهراً وقوى حتى صار بالفعل وسيلة لنزف ثروة البلاد لخزائن هولاندة ، وقد عمل بهذا النظام في أقوى صورته تطرفاً مدة أربعين سنة وكان له نتائج سياسية عظيمة وإن لم تنشأ عنه مباشرة ، ذلك أنه جعل الزراع الجاويين يشعرون تمام الشعور لأول مرة تقريباً بوطأة السيادة الاستعمارية الاقتصادية ، زد على ذلك أنه بسبب تزعزع الإشراف في مكاتبتهم الوسطى كشف هذا النظام عن اشتراك واضح في المصالح بين الإشراف والزراعي وهذا يؤدي آخر الأمر إلى أن يقتدى سواد الشعب بمطامح الإشراف القومية كما أن قوة الشعب العظيمة ستوضع أيضاً تحت تصرف الإشراف المتفوقين معنوياً وبعد ذلك تحت تصرف المفكرين الذين هم غالباً من سلاسل الأسر الشريفة ، ولم يكن بد من أن يثير غلبو النظام الزراعي آخر الأمر مقاومة ترتكن إلى أسس خلقية يوجهها له الهولنديون أنفسهم في هولانده وفي المستعمرات أيضاً ، ولم تمر السنة الثائرة : ١٨٤٨ من غير أن تترك لها أثراً .

هـ — سرت هذه المقاومة إلى الجمهور في ثي من الضوضاء بعد أن نشر د. دويديكر ، كتاباً ثورياً في ١٨٦٠ . انتحل هذا العالم الهولندي اسم «مولتاوى» من «ماكس هافلار» ، وشن الغارة على جشع التجار الهولنديين وعلى الحكومة الاستعمارية ، ورسخت أصول هذه المقاومة وازداد أمرها وقوى تأثيرها بعد نشر ما كتبه رجال أمثال «فان ديفنتر» و«سنوك هورجروني» من أبحاث عظيمة الشأن ، وساعد حسن الحظ على تشرب الناس لأفكارهم النيرة في ميدان السياسة الاستعمارية مقترناً مع ما يسمى «اليقظة الآسيوية» ، وبذلك ضعفت قبضة اليد الحديدية على الشعب الجاوى بانقلاب من أسفل وضعف من أعلى وكان الأثر النفسى بالطبع هو أن الجاويين الآن

فهموا أحق الفهم ثقل الضغط الذى كانوا يرزحون تحته وأدركوا فوق ذلك حاجتهم الملحة إلى الحرية ، ومن ذلك الوقت كلما ضعفت يدهو لندة تحررت قوى جديدة من الشعب وتحررت رغبات الناس فى الحرية وهكذا تحطمت القيود باطراد . وتتابعت الحوادث آتتد بسرعة عظيمة ، فبعد سنوات قليلة من انتصار اليابان على روسيا ، وهو الانتصار الذى كان يحس الناس أنه با كورة انتصار آسياعلى الجنس الأيىض ، فتح باب التعليم على الطريقة الأوروية أمام جماعات كبيرة من شبان البلاد ، وحوالى هذا الوقت نفسه أسس شبان الطبقة العليا ، الذين فتحت قليلا أمامهم المدارس الأوروية العليا والخاصة فى عشرات السنين الأآخيرة أول اتحاد سياسى هو «بودى أوتاما» (١) وكان من شأن الحذر الذى قوبل به هذا الاتحاد الأرسوقراطى المعتدل فى تلك الأيام أنه لم يروح إلى أحد أنه فى ١٩١٢ ستأسس «شركة إسلام» وهى جمعية شعبية كانت قبل ذلك بكثير قد حازت عدداً عظيما من الأانصار حتى فيما وراء حدود جاوه بكثير . سارت شركة إسلام سنوات قليلة معتدلة اعتدالا شديداً أحيانا ومطرقة أحيانا أخرى وذلك غالبا لاضطراب نظام العالم وتغير كل القيم بين ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، وبعد اصطدامات عيفة مع الحكومة المستعمرة عادت «شركة إسلام» إلى الاعتدال ولكنها فقدت نفوذها فى الشعب لأنه تركها لينضوى تحت لواء جمعيات أقل منها إذعانا .

٦ - وبعد منح الشعب حقوقه السياسية بتأسيس المجلس الوطنى فى ١٩١٦ لم تقدر حكومه هولندة بطبيعة الحال على توجيه حركة التطور الزاحفة ، التى تكتسح كل شىء ، فى الطريق الذى رسمته ، ولم يرض الشعب بالنظام الجديد الذى وضع بعد قليل وأنخى أقلية العنصر الأهلى فى البرلمان الاستعمارى ، وإن وضع نظام جديد بعد عشر سنين من نظام قبله يدل أكثر مما يدل أى (١) معنى هذه العبارة فى لغة البلاد الأصلية: الخلق القاضل أو النزعة الفاضلة (المترجم)

شيء آخر على أن حركة الرقي كانت سائرة سيراً سريعاً .

ولا أريد إحصاء الجمعيات التي لعبت أو لا تزال تلعب دوراً في حياة
أندونيسيا السياسية أثناء عشر السنين الأخيرة ، ويكفي أن أذكر أن كلا منها
أكثر حماسة للقومية من صاحبتها، وأن مقاومة هذه الجمعيات لهولدة تبدو في
حرية متزايدة وأن الفرق بين الأندونوسي والهولندي - كما يتميز الأسمر عن
الأبيض تمييزاً تاماً - آخذ في الوضوح شيئاً فشيئاً ويرجع بعض ذلك إلى تأثير
الصحف من الجانبين، هذه الصحف التي تكاد لا تختلف في تعصبها الحاد ، وقد
خف ضغط هولدة قليلاً في ١٩٣٠ . وإن نشاط الحكومة في مكافحة الخطط
الثورية للحزب الوطني الأندونوسي الذي تقدم ذكره في صدد الكلام عن
الاعتقاد «بالحاكم العادل» أدخل اضطراباً في الحركة السياسية الوطنية ، ثم
إن الأزمة الاقتصادية الحاضرة تستنفد معظم جهود الناس . ونظراً
لاعتماد الجمهور اعتماداً عظيماً من الناحية الاقتصادية على السلطات السياسية
والاقتصادية في هولدة فإن الأزمة تجعل أي كفاح سياسي أو اجتماعي
أو اقتصادي من جانب الأهليين للقبض على أئنة السلطان قليل الشأن لارجاء
فيه بجانب سلطان هولدة حتى أن الأمل قليل في أن يواصل الشعب الجاوي
سيره في المستقبل في الطريق الذي بدأ فيه أثناء عشرات السنين الأخيرة ، وبالطبع
لأنستطيع التكهّن بشيء عن تغيرات أكثر مما حدث ولكن من الطبيعي أن
تمكن تلك التغيرات في هذه الأيام المحملة بالنكبات .

٧ - ظلت الحركة القومية في جاوة تتطور في أكثر من عشرين سنة من
حركة تقوم بها طائفة من الشعب إلى حركة شعبية ومن أمنية خير منظمة إلى
قوة منظمة . أما الحركة القومية الشائعة فيما عدا جاوة فلم تنشأ إلا في بعض
الجهات التي تعرضت تعرضاً كافياً لتأثير أوروبا في مدة من الزمان كافية ، ولست
أؤكد أن الشعب بمخذاً فيه معنى بالحركة القومية في البلاد التي فيها مثل هذه

الحركة ، هي تظهر أولاً عند الطبقات العليا ثم تتسرب ببطء إلى الزراع الأميين المحافظين الذين لا يعرفون غير الطاعة ، وقد بدأت طبقة الأغنياء تظهر حذراً متزايداً كلما تغلغت الحركة في الشعب لأن حرب الطبقات، وهي نتيجة طبيعية للقومية في هذه الأيام ، ترسل نذيرها أمامها في هذه البلاد أيضاً ، وستضطر غداً أرسطوقراطية جاوة - كما اضطر الأثراء الحالما كيون في الهند اليوم - إلى التفكير فيما إذا كانوا سيؤيدون الحكومة المستعمرة أو سيتضافرون مع جمهور شعبهم ارتسكاباً بالخوف الضارين ، وإني لبعيد أيضاً عن تأكيد أن كل المشتغلين بالحركات السياسية أو نصف السياسية في أندونيسيا عندهم شعور سياسي كامل أو أن عندهم فكرة واضحة عن المثل العليا التي تصرح أحزابهم بالجهاد لتحقيقها ، ولا نستطيع توقع هذا إذا نظرنا إلى التغيرات السريعة التي يكاد لا يصدقها العقل والتي تحدث في القرن العشرين .

ومع ذلك نستطيع أن نرى في نمو نظام الجمعيات السياسية نمواً سريعاً علامة على أن العواطف التي كظمت طويلاً تحاول الآن أن تظهر، ونظراً لقلة ضوئ الجماهير في السياسة كانت الجمعية السياسية مجرد وسيلة تظهر بها هذه الجماهير إثارة لجمعية دون أخرى وتفصح بها عن السخط من الموقف الحاضر، أما برنامج الجمعية الرسمي فهو بمعنى من المعاني قليل الشأن ونرى هذا في أندونيسيا أكثر مما نراه في أوروبا، وليس ضرورياً البتة أن يكون هناك توافق بين ماتحمس به الجماهير وبين برنامج الحزب وغاياته الرسمية ، يؤيد هذا اختلاف مسلك الزعماء عن مسلك الأعضاء في المسائل الخطيرة التي تثير الاهتمام ومن أن طوائف كبيرة تنضم لهذا الحزب حيناً ولذاك حيناً آخر أيهما يصادف أن يكون موافقاً للظروف ، وأستطيع أن أؤكد أن الأحزاب الوطنية هي مجرد الصورة التي يحاول الجيل الحالي في أندونيسيا أن يعبر بها عما في نفسه من شعور السخط ، ولا نجد ما يؤيد زعمنا أن هذا الشعور نظم حتى صار عقيدة بمبدأ سياسي

معين تملأ نفس صاحبها . ونستطيع تعليل ما نراه من نجاح الشيوعية بأن دعائها كانوا أقل الناس تحفظا في الوعد بتحقيق كل الرغبات الممكنة ، على أن تأثر روسيا السوفيتية في ناحية الثقافة ليس حتى الآن دائما ولا قوى الظهور ، وإن ما حدث منذ عشر سنين من تحالف الشيوعية الدولية الاتحادية والقومية الأهلية هو تحالف متكلف غير طبيعي ، وهذا التحالف الذي تربطه بالمسلمين أواصر كثيرة . والذي بدأ يتحلل من الشيوعية الزراعية الأهلية الموجودة الآن ليس قائما على عقائد الجماهير .

٨ — إن الغاية الحقيقية في الحركات القومية في جمعية مالمست ناشئة في جل أمرها عن روح التعاون ولكنها تنشأ في الغالب عن انتهاز الفرصة للتعبير من وجوه كثيرة عن شعور التضامن والمظلمة وعن مقاومة السلطان الأجنبي مقاومة غريزية ، وهذا نفسه يعمل على خاط الأعمال السياسية والاجتماعية والدينية . والأعمال الخاصة بفكرة الجامعة الإسلامية والأعمال الدفاعية والثقافية حتى ليستحيل أن يبدو كل منها متميزاً تميزاً تاماً . وحالة الجماهير لا تمكنهم التمييز بين الأشياء حتى أنها لا ترى لها إلا ناحية واحدة مهما تعددت النواحي التي تظهر أمام عين الناظر الذي يقتصر على ظواهر الأمور ، وكل نشاط من الجماهير إنما هو مقاومة وكثيرا ما يكون معارضة لا دخال الاضطراب في اتساق المجتمع الأهلي من الوجهة الاجتماعية والثقافية ، وبما يعنى الباحثين في الإسلام في أوندونيسيا عناية خاصة أن تأثير شعور الوحدة الإسلامية القديم يمكن أن يتجلى أيضا في حركات كثيرة ، وأظهر ما يكون هذا في حركة شعبية مثل « شركة إسلام » التي زاد عدد أعضائها على مليونين في بعض الأحيان ، وإن تاريخها يبين أنها تكونت من عناصر غير متجانسة وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف نعرفه من القديم والحديث من المؤلفات في جواهره ، وليس في أوروبا جمعية كانت تستطيع أن تفلح في الاحتفاظ بحياة مضطربة متقلبة .

الاطوار مدة عشرين سنة كما فعلت « شركة إسلام » ،

تدفعنا هذه الخاصة في الحركة القومية إلى التغلغل فيها أكثر مما يسمح بذلك
العنوان العام لهذا الكتاب كما يظهر ؛ والحق أنه تاريخها اندمج أشد اندماج
بتاريخ الحركات الدينية المحضة التي تبوأ المكان الأول في العشرين سنة الأخيرة
ولا يزال شعور الوحدة الإسلامية بماله من تأثير عظيم يلعب اليوم — كما
لعب دائما — دورا هاما في وصل الحركات بعضها ببعض .

٩ — والحق أننا نستطيع نكران أن « شركة إسلام » تمسكت دائما بأصلها
الاسلامي رغم تحالفها أحيانا مع الاشتراكية ثم مع الشيوعية ثم مع أنواع مختلفة
من القومية آخر الأمر ، بعثت على عقد المؤتمرات الإسلامية العامة التي عقدت في جاوه
منذ ١٩٢٢ والتي ترمى إلى تنظيم مسلمي أندونيسيا ليكنوا جامعة إسلامية على مثال
جامعة مسلمي الهند ، واهتمت اهتماما عظيما بالمؤتمرين الدوليين الاسلاميين اللذين
عقدافى القاهرة ومكة واللذين حضر فيهما ممثلون أندونسيون ، وحاولت أن تسمع
العالم كله في مسألة الخلافة وإن كان قد أصابها الغرور فلم تعرف قدر نفوذها في هذه
الناحية ، وأسست في أندونيسيا مجلس العلماء وهو مجلس من الاخصائيين في المسائل
الاسلامية ونظمت أو حاولت تنظيم المقاومة ضد تدخل الحكومة المستعمرة غير
الاسلامية في المسائل الإسلامية ، وتذكرنا هذه المقاومة بمقاومة الأحزاب المسيحية
للمادة ١٧٧ من دستور الأراضى الواطئة في جزر الهند الشرقية وهي المادة التي تقيد
حرية المبشرين المسيحيين ، وبالاختصار عملت كل ما كان في حدود اختصاصها
وكل ما كان في وسعها عمله محافظة على مصالح الاسلام ولكنها في معظم
الأحوال لم تتقن عملها حتى أن النتيجة لم تكن البتة عظيمة الشأن ولا طويلة
البقاء ، كانت غلظتها الكبرى أنها أرادت الاضطلاع بكل شئ في الميادين الدينية
والسياسية والاقتصادية والثقافية ، كانت ترى واجبا عليها أن تستعد لاخذ
نصيبها في الحكم بعد استقلال أندونيسيا فأنشأت مقدما دواوين مختلفة للإدارة .

وإذا عرفنا أن « شركة إسلام » لم يكن فيها زعماء أكفاء البتة حكمنا أن هذه الدواوين لم تكن سوى مظاهر جوفاة .

١٠ - وبينما اضطرت « شركة إسلام » في ميدان السياسة أن تترك القيادة لأحزاب سياسية أكثر تطرفا - كما رأينا - فإن جمعية المحمدية أخرجتها من ميدان الدين إخراجا تاما ، وهنا نواصل الكلام في الموضوع الذي تركناه في آخر الفصل السابق . جمعية المحمدية جمعية دينية اجتماعية أسست على مبادئ حديثة في « يوجي أكارتا » (جاوة الوسطى) في ١٩١٢ وأخذت ترحل « شركة إسلام » من ميدان الدين شيئا فشيئا متفعة في الوقت نفسه بمعاملته « شركة إسلام » ونجد جمعية المحمدية - بخلاف شركة إسلام - بعيدة عن السياسة فكان نجاحها في ميدانها الضيق أكبر من نجاح شركة إسلام ، وصار لها تأثير عظيم بإنشائها المدارس وتأسيسها المكاتب وفتحها إياها على المصراعين وبيع الكتب وإنشاء المستشفيات وماوى الفقراء وملاجئ الأيتام وبايجاد إدارة لنشر الثقافة الإسلامية والدعاية لها والتصرف في أموال الأوقاف وترجمة كتب إسلامية إلى لغة البلاد وصارت تستطيع الأخذ بنصيب كبير في التوفيق بين الإسلام وبين الظروف الجديدة كما أنها قطعت الطريق على المبشرين المسيحيين من وجوه كثيرة بعد أن اصطنعت وسائلهم . ظهرت حركة المحمدية في وسط جاوة أولا وقصرت نفسها غالبا على جاوة ورغم أنها أثرت بعض التأثير في حركة التجديد على شاطئ سومطره الغربى وهى الحركة التى تكلمنا عنها في آخر الفصل السابق فلم تفلح في المزج بين مختلف الحركات هناك رغم اتجاه هذه الحركات إلى غايات واحدة ، زد على ذلك أن عملها في سومطره أصبح مختلطا بالسياسة بخلاف سياستها في جاوه .

أخذت حركة الأحمدية تدب في جاوه وسومطره وتنافس حركة المحمدية بعض المنافسة في السنوات الأخيرة (١) . وللأحمدية بكتلتا شعبيتها أنصار في

(١) أيرجع القارىء إلى الفصل السابق ص ١٣٥ ليند ادعلا بحركة الأحمدية (المترجم)

اندونيسيا درس بعضهم مذهب الأحمديّة في الهند ، وقد لفتت فرقة لاهور نظر
الاندنوس لأن أحد مبشريها نشط في الدعاية في جاوة منذ سنين واستطاع
المبشر «مرزا والى أحمد بيچ» أن يكون طائفة صغيرة رغم أن المحمديّة التي
تتفق روحياً مع الأحمديّة حاربتة ونظرت اليه نظرة ارتياب وحققت على منافسة
الأحمديّة لها ، ألقى هذا المبشر دروساً إسلامية في مدارس حكومية قليلة ،
وأظهر زعماء «شركة إسلام» وأعضاء «اتحاد الشبان المسلمين» مودتهم للمرزا
والى وهذا آخر دليل على ميل مسلمى اندونيسيا ميلاً دائماً إلى إغفال الفوارق
من غير تمحيص لها .

أثر التعليم الأوروبى

— الأشراف الأولون والتعليم الإسلامى ٢ — الرغبة في الثقافة الغربية
٣ — تأثير التعليم الأوروبى في قلب الأفكار ٤ — وحدة اندونيسيا كمثل أعلى .
١ — إن الإصلاحات الروحية التي تجرى الآن هي أهم من التغييرات التي كانت
تكيف معالم المجتمع الأهلى في الخمس وعشرين سنة الأخيرة ، هي أهم وربما كانت
أكثر بعداً في نتائجها . واتصال اندونيسيا بالأوروبيين اتصالاً مباشراً ظل قليلاً
جداً حتى آخر القرن الماضى وكان قاصراً على عدد قليل من الباحثين وغيرهم
من أولى الشأن من جهة وعلى عدد قليل من الاندنوس الذين نفرتهم الظروف
من ثقافتهم الخاصة من جهة أخرى ، كان التعليم الذى أعطته الحكومة الهولندية
للاندنوس قاصراً على فئة صغيرة ممن سيكونون في المستقبل موظفين في الدواوين ،
أما غير هذه الفئة من الشبان ، فقد تركوا ليتعلموا عن آبائهم أو ييتهم أو ليتلقوا تعليمًا
دينيًا أو يظلموا صفراً من كل علم ، كان أهم جزء في تربية الطفل من أرسناتية
جاوة تكوين أخلاقه وسبكه في قالب يجعله عضواً بين أشراف المجتمع ،
وكان يجب أن تنمي في الناشئ صفات تميزه في مستقبل حياته عن عامة الشعب

ويجعله «ساترياً» (نيلاً) كالشجاعة والفتنة وضبط النفس والاخلاق النبيلة، وكان يرجي منه فوق هذا أن يلم بأخلاق السلف وعاداتهم وبتقاليد الاسرة لأن هذه هي الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الاندوني، فاما الفتاة فكانت على العكس من الفتى، لم تكن في حاجة أن تتعلم أكثر من كيفية القيام بخدمة زوجها على الوجه الاكمل فيما بعد، وتظهرنا الكثير من الكتب الجاوية على خصائص هذا الضرب من التربية الخلقية الاجتماعية، أما التعاليم الدينية الاسلامي فكان يقوم في جوهره على سد حاجات الرجل العادي القليلة لمعرفة الاسلام معرفة نظرية، وكان متأثراً تأثراً عميقاً بالأفكار السحرية السائدة في الجو الفطري الذي يعيش فيه مسلمو اندونيسيا، وكان الانجلمو، هو الذي لعب أكبر دور في نظام التعليم هذا قبل تسرب مذهب أهل السنة من بلاد العرب وظل الانجلمو، يلعب دوراً عظيماً من ذلك العهد. الانجلمو، مقام من الحكمة الكاملة فيه أكثر مما في كلمة Science: (علم) في لغتنا ومما في كلمة «علم» في لغة العرب. ولا يبلغ الانسان ذاك المقام بحد ذاته أو شغفه به دون ما عداها بل بتربية القابلية العقلية تربية صحيحة وبطاعة الانسان لاستاذة طاعة عمياء وبتلقي رحمة الله، وليس هذا الاخير أقل شأنًا مما قبله.

٢- ورغم أن الناس ما يزالون يظهرون إثارهم للانجلمو، فإنه بفعل الظروف أفسح المجال، في الواقع، أمام الحاجة إلى التعليم الغربي. شعر الاندونوس ببعض هذه الحاجة شعوراً اضطرارياً لاختلاطهم بالاوروبيين وقام بنفوسهم بعضها لانهم أحسوا إحساساً واضحاً بالرغبة فيه لاعتبارات قومية، وأثار هذا الاحساس الهولنديون المتمسكون بسياسة استعمارية تتفق مع قواعد الاخلاق لانهم رأوا أن رفع المستوى الثقافي لأهل البلاد ونشر المدنية الهولندية الغربية بشكل عام من أهم واجبات الحكومة المستعمرة إن لم يكن أهمها جميعاً، ولا في أنصار هذا التعليم من الاندونوس ومن

الأوروبيين مشقة كبيرة في إخضاع شوكة الذين رأوا التقدم في سياسة استعمارية من الطراز القديم فحسب ، وانتهت عشر السنين الأولى من القرن العشرين بنجاح المبادئ التي نادى بها أنصار السياسة الاستعمارية الخلقية ، ونال أول أندونوسي لقب الدكتوراة في فقه اللغة الاندونوسية قبل الحرب من جامعة ليدن ، واليوم ولم تمض خمس وعشرون سنة على فتح المدارس على الأسلوب الغربي أمام عدد كبير من أبناء أندونيسيا نجد حوالى ١٠٠٠ ٠٠٠ ر ١٠٠٠ طفل من مختلف الجنسيات الاندونوسية يتلقون التعليم الأولى على الأسلوب الاوروبى ونجد عددا عظيما يتلقى العلم فى المدارس العليا والجامعات فى أندونيسيا وهو لئدة أو يقومون ناشطين بعمل ما بعد اتمامهم دراستهم .

٣ - وأكاد لا أجد مناصا من ذكر المشكلات الاجتماعية والمشكلات الخاصة بعلم الاجتماع ، هذه المشكلات التي بلغت من الطرافة درجة فوق المألوف والتي صارت ملحّة بعد تجربة خمس وعشرين سنة لقن أثناءها الشباب الاندونوسى علم أوربا ، ولا سيما أن هذه المشكلات لها على أى حال علاقة غير مباشرة بمركز الأسلام فى هذه البلاد ولا بد أن أنصر كلامى عماله بالموضوع علاقة مباشرة . إن تطور هواندة التاريخي جعل لمدينتها مميزات خاصة منها شعور عام بالاستقلال ينزع لأن ينقلب كراهية للسلطة وللنظام فى السياسة والدين وفى العادات الاجتماعية على حد سواء ، وفوق هذا تسود نظام التعليم الهولندى نزعة عقلية فردية ، وإذا استثنينا التعليم المسيحي المستقل استرعى نظرنا عدم وجود قاعدة خلقية للتعليم الهولندى ، ولا تأعب الأحزاب المسيحية الدور الأكبر فى نظام التعليم العالى فى المستعمرات ، ولما أنشئت فى أندونيسيا مدارس على الأسلوب الاوروبى لم يكن بد من تعيين كثير من المعلمين الهولنديين الذين كانت خبرتهم بالأحوال الثقافية للشعب الذى اشتغلوا بين ظهرانيه قليلة جداً ، لأنهم لم يعدوا لهذه المهمة إعداداً خاصاً حتى اضطر الاندونوس من جانبهم إلى

اتّجاع الجامعات الهولندية لآ كمال دراساتهم ، وعلى ذلك سكنت فى عقل الشباب
الآنْدونوسى الممتاز وقلبه فى أحسن قرات حياته استعداداً أفكار وآراء مستمدة
من الخصائص الهولندية والثقافة الهولندية ومختلفة أتم اختلاف عن الأفكار
التي كانت التقاليد تدعو إلى إعتناقها واحترامها فى أندونيسيا، وفى الجملة ففى
حين أن المعلمين الهولنديين كانوا غير قادرين ، بسبب إيمانهم لشعب بئذ وحدته
الروحية منذ قرون ، على أن يحلوا محل الثقافة القديمة ونظام التعليم القديم
ثقافة جديدة ونظاماً فى التعليم جديد ألهمهم ما سبقهم من القوة الذاتية والتماسك
والملازمة لحال البلاد ، نجد أولئك المعلمين من جهة أخرى يتسفون بقوة ثقافتهم
الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها ، ومعنى
هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضاً لانه متصل
بالعقائد الموروثة صلة وثيقة . إن التعليم الأوروبي يعمل على قلب وجهة نظر
الناس قلباً لا يقف عند حد ، وقوة الضربة التي تعانيتها الثقافة الأهلية كل يوم ،
إنما يحس بها تمام الأحساس الآنْدونوس الذين هم أكبر سناً ، أما الجيل الجديد
فقد شب بين أحضان النظام الجديد ولم يظهره المعلم الأوروبي على شئ من
من الثقافة الأهلية حتى أن هذا الجيل لا يحس بما بين الثقافتين من
فرق إحساساً قوياً .

إن تغير نزعة الشباب الآنْدونوسى امستثير إزاء ثقافته القديمة ، هذا التغير الذي
يحدث الآن بتأثير التعليم الأوروبي وبتأثير البيئة الهولندية يشبه ما حدث عند
الشباب المصرى منذ نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن كإرانياً ، ومسلك الشباب
الآنْدونوسى إزاء التعليم الغربى يسير على مثال ماسار فى مصر ، يظهر الشباب
عداءه للعقلية الغربية من وجوه شتى ولكنه لا يستطيع فى الوقت نفسه أن يستغنى
عن الثقافة الغربية والوسائل الغربية ، ويحاول اتخاذها وسيلة تبلغه الغرض
الذى وضعه لنفسه، هو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم هذا متقطع من

وجوه كثيرة بسبب ثقافته الغربية عن جمهور الأمة التي ولد فيها ، ومن جهة أخرى فان شباب أندونيسيا إنما اضطرا اضطراراً إلى ملاحظة وحدة الجنس الطاعرة بعض الظهور بين معظم شعوب أرخبيل الملايو وملاحظة اشتراكها في اللغة والثقافة ، اضطره إلى هذا اختلاط الشبان من كل جزائر أندونيسيا من أهل جاوة وساندا ومادورا وبالي وأمبون ومينادو وأجه ومنانجاكبو وبتاك وغيرها ، هؤلاء الشبان الذين يتصل بعضهم ببعض في الكلية أو في الجامعة .

٤ - وإذن فهناك قومية أندونيسية تعمل للوحدة ، تنمو بين الطلبة وتنم في خصائصها الكبرى عن أصلها الأوروبي وعن نزعة زعمائها نزعة أوروبية ، فتتظم هذه القومية صفوفها في هواندة لم يكن البتة من الأمورا الاتفاكية ، ومن أغراض «بيرهمبونان أندونيسا» (١) أن تجمع كل الحركات القومية المحلية تحت لواء واحد بفضل قوتها الذاتية وبمعوة الجمعيات القائمة في أندونيسيا ، ولا شك أن هذه المحاولة سائرة في طريق النجاح فرغم أن «الحزب الوطني الاتدوني» الذي يتصل أوثق صلة «بيرهمبونان» أندونيسيا قد حل بعد اصطدامه مع الحكومة في ١٩٣٠ ، نجد جمعيات الشباب المختلفة تسير في حماسة شديدة وفق الحكمة القائلة : «الوحدة فوق كل شيء» حتى لقد اختفت منذ أول يناير ١٩٣١ كل جمعيات الشبان المحلية وأفتت نفسها في جمعية شبان جامعة هي «أندونيسيا مودا» (٢) ، وهنا أيضاً تبين صحة الحكمة القائلة بأن الفكرة التي تختمر في نفوس الشباب هي التي سيكون لها الأمر في المستقبل

(١) جمعية أندونيسيا (٢) «أندونيسيا الفتاة» المترجم،

العقبات في سبيل سيادة الاسلام

- ١ - الشباب والاسلام ٢ - النهضة الجاوية ٣ - حياد جمعية أندونيسيا ٤ - اتحاد الشباب المسلمين ٥ - قوته الداخلية ٦ - المبشرون المسيحيون كعامل في التطور الحديث .
- ١ - لسكثير من صغار الشباب المثقفين متسلك إزاء الاسلام بخلاف عن متسلك الجيل السابق أتم الاختلاف ، فقد أصبحوا بتأثير التعليم العلماني لا يعبأون بالدين في الجملة ، وإذا احتكوا بالاسلام فكثيراً ما يميلون لقبول سلطان العلم ، والعلم ، بما في طبيعته من روح النقد ومن عدم اختصاصه بجماعة ما ، أظهر الاندوس على نقائص الاسلام وكثرة خداعه الديني ومن ثم كان تمسكهم ببعض التقاليد الاسلامية لا يعدو كثيراً مجرد عادات باقية (١) .
- ٢ - وهناك عامل له شأن عند الجيل الناشئ في جاوة . وجدت بعض التقاليد الهندوكية الجاوية القديمة ما يؤيدها من نتائج البحث العلمي الأوروبي ، وتكوين تاريخ امبراطورية ماجاباهت ، أحيا لهم مجداً قديماً يفخرون به ، وإن غلوا أحياناً في تقدير ذلك المجد ، واتخذ الشباب الجاويون مثلاً علياً في

(١) تعمل السياسة الاستعمارية الأوروبية في كل بلاد الاسلام على قطع صلة شعوب الاسلام بماضيها ولاسيما الديني ، فلا جرم يشب الجيل الناشئ في أندونيسيا جاهلاً بأصول الاسلام وأنظمتها . وليس بين روح العلم الصحيح وبين روح الاسلام تناقض ، ليس في الاسلام عقائد عمياء غير مخصصة ، جاء في القرآن : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، هذا من ناحية النقد العلمي . أما عن عالمية العلم ففي الحديث : « تعلموا العلم ولو بالعين » ، ودخذ الحكمة ولو كانت من كافر ، وإن ما في القرآن من حث على التبصر في الكون وأسراره وحث على التحصيل في المعرفة باب واسع آثرت مجرد لفت نظر القارئ له ، والاسلام بناحيته النظرية والعلية وبما فيها من تمحيص ووضوح بعيد عن مخادعة معتقيه (٢) في اللغة الأصلية معناها بستان التلاميذ . (المترجم)

البطولة من شخصيات التاريخ الغابر العظيمة كالمملك «إر لانجا» والمملك «أيام وروك»
 و«جاجامادا»، الوزير الاكبر لامبراطورية «ماجا باهت»، الذين بعثهم علماء
 الآثار وعلماء اللغات من ثرى التاريخ بعد أن كادوا يصبحون نسياً منسياً ،
 ومن الواضح أن مقارنة مجد العصر الهندوكى الجاوى بمجد العصر الاسلامى
 هى مقارنة باخسة للطرف الثانى لانهم امؤدية حتماً لرفع شأن الهندوكية على حساب
 الاسلام ، ولكن هذا ليس ناشئاً البتة عن كنهه الديانتين ومزايا كل منهما أو عن
 نسبة قوة إحداهما الداخلى لقوة الأخرى ، فلا عجب إذن أن نرى حزب
 «بودى» أو تاما ، وهو الجمعية السياسية الارستوقراطية فى جاوة الوسطى تكتب
 على علمها الحياذ إزاء مختلف الأديان ، ولا عجب أن نجد مدارس « تامان
 سسوا » (١) التى أنشأها «كى أجار ديوانتارا» تلقن الطلبة إثارة المدنية الجاوية
 القديمة أعنى المدنية الهندوكية الجاوية على الاسلام ، أنشئت هذه المدارس أولاً
 فى الإمارات الوطنية وهى محاولة نادرة تستلفت النظر للقبض على ناصية التعليم ،
 وأخيراً فلا عجب أن تفلح الصوفية بما فيها من نزعة هندوكية قوية فى تثبيت قدمها
 إلى حد ما فى جاوة الوسطى ، ونظراً لكثرة طلبة جاوة الوسطى بين طلبة الجامعات
 تسربت هذه الأفكار المناصرة للهندوكية الجاوية إلى جمعيات الطلبة أيضاً وأثرت
 فى شعورهم بالجامعة الاندونيسية التى يمثلونها .

٣ - وعلى الذين ينادون بوحدة إندونيسيا أن يضعوا هذه التيارات فى
 موضع الاعتبار كما لا بد لهم من مواجهة أمر هو أن بعض القبائل الاندونيسية
 التى تنجب عدداً كبيراً من المثقفين كقبائل ميتاهاسا وأمبون وباتاك قد
 ارتدت أغلبها إلى المسيحية ، على حين أن قبائل جزيرة بالى لا يزالون يعتقدون
 الهندوكية بعد تكييفها بما يلائم ظروفهم ، وأن قبائل أخرى لا تزال على الوثنية ،
 هذه الظروف نفسها ومعها النزعة العقلية التى أدت إلى بقاء التمسك الشكلى
 بالاسلام بين المثقفين فى مصر مثلاً ، أدت بالمثل فى أندونيسيا إلى أن يعلن المثقفون

حيادهم في الأمور الدينية كما أكد ذلك أخيراً رئيس حزب «جمعية أندونيسيا» في اجتماع للطلبة الهولنديين في لندن تأكيداً شديداً. وعلى هذا فإن الحركة الناشئة التي ترمي إلى وحدة إندونيسيا تقف رسمياً بمنأى عن كفاح المسلمين في سبيل الوحدة كما يدل على ذلك برنامجها الرسمي، ورغم أن هذه الحركة الأخيرة جزء من حركة الجامعة الإسلامية فإدامت تعمل بالفعل على توحيد الاندونيسيين فإن مصالح حركة الوحدة الاندونيسية والوحدة الإسلامية تسير متقارنة إلى حد ما، وهذا يؤدي إلى أن تعطف كل منهما على الأخرى عطفاً عظيماً، أضف إلى هذا أن الإسلام يطالب بأن يكون الدين الرسمي لامبراطورية أندونيسيا الجديدة التي ستتحقق قريباً كما هو المأمول، ويرى كثير من المسلمين المخاضين أنه يستحيل قبول هذا المطلب لما سينشأ من نزاع داخلي يحده هذا المركز الممتاز.

٤ - ومن جهة أخرى فربما لاحظ القارئ مما سبق بعض الفرق بين الجيل الناشئ في «جمعية أندونيسيا» التي تكونت في هولندا وبين الجيل الناشئ في أندونيسيا ذاتها، وكان من نتائج اتساع دائرة التعليم الأوروبي عدم إمكان بقاء الفكرة الأولى التي تقصر ذلك التعليم على أبناء طبقات البلاد العليا، وكان من نتائج فتح المناطق النائية من جزر الهند الهولندية أمام التعليم الأوروبي بين ١٨٩٠، ١٩١٠ أن صار ذلك التعاليم ينزع نزعة ديمقراطية تسترعى النظر، ذلك أنه ليس في أي مكان من أندونيسيا فروق طائفية دقيقة كالتى في جاوة، وفي المدارس العليا تزداد نسبة الطلبة من الأوسر المتراضعة التي للإسلام فيها سلطان أقوى مما له في الطبقات العليا من المجتمع، ورغم أن شبان هذه الأوسر يشعرون أيضاً بالقوة التي تسوقهم نحو حركة الجامعة الاندونيسية القومية فلا يزالون يحبون بتأثير يبتتهم أن يتمسكوا بدين آبائهم ولكن على صورة متجددة ومثلهم الأعلى هو التوفيق بين الإسلام وبين الحياة الحديثة كما في مصر، وحاولوا إدخال هذا المثل الأعلى إلى جمعيات الشبان المختلفة التي أنشئت قبل أول يناير ١٩٣١

فأرادوا أن يضيفوا إلى وحدة اللغة والثقافة والامة وحدة الدين أيضا ، ولما أخفقوا في حل جمعيات الشبان كلها على قبول مطلبهم المتطرف وأعلنت الأغلبية حيادها في أمور الدين بتأسيس «حزب أندونيسيا الفتاة» ليمثل الوحدة الاندونيسية الجامعة امتنعوا عن التعاون معهم وانفصلوا عنهم في «اتحاد الشبان المسلمين» الخاص بهم .

هـ - وهل نستطيع أن نرى في رغبة هذه الفئة في الوقوف جانبا برهان على قوة داخلية وثبات على الرأي يشبهان مانلاحظه في جمعيات الشبان الدينية الحديثة في أوروبا ؟ لعل من عدم نضوج الرأي ، في هذا الدور الأول من حياة الاتحاد ، أن نستخلص من تلك الرغبة نتائج خاصة بما يمكن من تطورات مقبلة ، والحق أن المسألة هي : هل قوة الاتحاد هي بعض ماورثوه من محبة الاسلام والاعتقاد به دون قيد ولا شرط أم أن تدينهم سيلعب دورا كبيرا يزيد على الحد فيفسد حياة اتحادهم ، هل يدركون أفضلية الاسلام على سائر الأديان إدراكا عميقا يقوم على بعد النظر وعلى التححيص ؟ هل يعرفون حاجات الاسلام ومطالبه ، وهل يحبونه إلى حد الهيام ؟ وأنى لهم مايعتشم على أن يجعلوه قوة روحية فعالة في قلوبهم وأن يوصلوا إسماعده إلى غيرهم كما هو الحال عند كثير من المسيحيين ذوى العقائد المختلفة ؟ أعتقد أن الناقد النزيه الذى يعطف على الاسلام عطفًا تاما سيميل للإجابة بالسلب على هذه الاسئلة ولكن يجب أن تتخذ التحفظ اللازم حينما يجيب أحد على سؤال يمس الحياة الروحية والاحساسات الداخلية لجماعة لا ينتمى هو نفسه إليها ، ونستطيع أن نعرف صحة هذه الإجابة السلبية بعد أن نرى دفاعهم عن الاسلام ذلك الدفاع الذى ينم عن عقل ضيق الافق ويظهر في صورة محاولة لاثبات أن الغرب ليس ألبتة أفضل من الشرق وأن المسيحية ليست ألبتة أفضل من الاسلام ، وحينما يحكمون على المسيحية بصورة «كاريكاتورية» للمحدوينسبون للامة المسيحية كل أخطاء التوسع الامبراطورى

الأوروبي والرأسمالية - وهما الناحيتان اللتان رأى الاشتراكيون وضعهما معاً تعزيزاً لمبادئهم - فواضح أنهم عيال على أسلافهم الأوروبيين في تقديمهم وأنهم يعوزهم التمحيص والنقد المبتكر ، وإذا اعترفوا في إعلان مبادئهم بالتسامح حيال الديانات الأخرى - هذا التسامح الذي هو غريب عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية إلا في دائرة محدودة ضيقة وإلا إذا كان الباعث عليه هو حب الإنسانية - فواضح أنهم تلاميذ الأحرار انغريين ، ولا يفتنون إلى أن التسامح سرعان ما يصير علامة على التدهور بمجرد سريانه إلى الجماهير التي تميل عادة إلى عدم الاكتراث بالمبادئ ، هم في مثل هذه الأحوال يدلون على أنهم يرجعون عشر سنين وراء أوروبا حيث أدى التسامح المسرف إلى وضع الحضارة على شفا الجرف وحيث يبذل الآن في دول عديدة جهد منظم نشيط وإن كان لا يسمح بمعارضة لأصلاح ما نشأ من نتائج المبدأ القائل : « بقدر ما هناك من رؤوس هناك آراء » (١) وما دام إصرار الشبان المسلمين على آرائهم وتمحيصهم لمبادئهم لا يسموان عن مستواها الحالي - مع استثناء القليل - فستظل القيمة الذاتية للجمعية صغيرة كما سيكون الأساس الذي شيدت عليه مزعزعا ، وأحسب أنه لن يتضح لنا عما إذا كان اتحاد الشبان له حقاً قوة على أخذ قسطه من مقاومة العاصفة الهائلة التي تزعزع دعائم العالم الإسلامي وعلى التغلب على الأزمات الروحية التي تعاني شعوب الإسلام آلامها إلا بعد أن تتربى فيه روح النقد إما بنشاط هؤلاء الشبان الخاص أو بتأثير متزايد للتعليم الأوروبي .

٦ - فصل الآن إلى البحث في العامل الأخير في حركة التقدم الحاضرة

(١) هو مثل لا تبنى : *quot capita tot sensus* ولعل الكاتب يشير إلى ما نشأ في أوروبا حديثاً من أنواع الفاشزم ، وضروب الأحزاب التي تريد حمل الأمة كلها على رأى واحد وتسحق كل معارضة ، وما حدث في ألمانيا في يونيو ويولييه ١٩٣٤ أكبر دليل على ما يقول الكاتب (المترجم) .

وهو المبشرون المسيحيون في اندونيسيا . بعد أن ثبتت أقدامهم في القرنين السادس والسابع عشر في «أمبون» و«ميناهاسا» لم تظهر لجهودهم إلا ثمرة قليلة في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ولكنهم من ذلك الوقت أبدوا نشاطا عظيما وأحرزوا نجاحا كبيرا في مناطق كثيرة ولكن هذه المناطق من أقل جزر الملايو خطرا ، أما في أهم نواحي اندونيسيا من الناحيتين السياسية والثقافية فانهم واجهوا مقاومة يتضافر فيها الإسلام والقومية ، ولا حاجة لأحد من عنوا بدراسة الكفاح بين الإسلام والمسيحية في جهات العالم الأخرى أن نخبره أن في اندونيسيا أيضا يجحد المبشرون المسيحيون من الإسلام منافسا خطرا وخصما ، وأنهم لم يحرزوا إلا قليلا من النجاح ، ويجب أن نضع إزاءه الخسائر التي عانتها المسيحية بسبب انتشار الإسلام بسرعة أكثر منها . وتضافر كل من الإسلام والقومية التي تنزع إلى الجامعة الاندونيسية معا في وجه المسيحية ، هذا التضافر يحتاج لشيء من الإيضاح . الحق أن الاندنوس كثيرأ ما يعدون المبشرين عاملا ثقافيا متصلا بأوروبا لا ينفك عنها . وفي هذه الحالة لا ينفك عن هولندية . ويعتبرون أن انتصارهم معناه اتباع البلاد التي ينتصرون فيها إتباعا سياسيا تاما للبلاد التي ينتمون إليها .

هذا الرأي الشائع ، رغم أنه غير صحيح على إطلاقه - الآن على الأقل - نستطيع أن تبين الأساس الذي يقوم عليه ، يرى الفلاح الاندنوسي الساذج أن الوطن والدين شيء واحد ، ومن السخف الذي لاحد له في رأيه أن يكون في الدولة خمس ديانات أو ست ، هو يعد المسيحية دين هولندية ولا يرى الفرق بين الكاثوليك والبروتستانت - إذا فرضنا أنه يعرف هذه الأسماء - أكثر من فرق في «المذهب» أو «الطريقة» ، على أن من الحق بين الهولنديين - كما هو حق بين الاندنوسيين - أن فيهم «الاحمر» و«الايض» (المقصرون في الدين والمتمسكون به) وأن السواد - بالطبع - ألوان متنوعة من الاحمر ،

ويحتمل جداً أن يكون الذى أدى فريضة الحج وأوتى حكمة فى تصريف أموره الدينية أكثر دراية بهذا ولكنه راسخ القدم فى معرفة الأساليب الماكرة التى تجرى عليها حكومة هولنده، وهو يعرف كيف يحذر أبناء وطنه من الخطر المسيحى حينما يرجع إلى أندونيسيا. والمتطرف من أنصار القومية يرى من البديهى وجوب رفض كل ما أتى به الغرب، وإنه ليحس بلذة باطنية لا يستطيع إخفاءها حين يردد الإشارة إلى الفرق بين مبادئ المسيحية وبين سلوك الأمم التى تزعم أنها مسيحية، أما المعتدل منهم فقد لا يعادى المسيحية من الوجهة النظرية عداً ظاهراً ولكن لا يحتمل أن يعطف عليها عطفاً شديداً فى وقت تعتبر فيه الردة إلى المسيحية عند كثير من أبناء وطنه نبذاً لدين السلف بل خيانة لقضية الوطن، ولهذا نجد وفاقاً بين جمعية تغلب على تاريخها النزعة السياسية مثل «شركة إسلام» التى كان للخوف من التنصير الأجبارى نصيب فى نموها وبين جمعيات كالمحمدية واتحاد الشبان المسلمين فيما يختص بمقاومة المبشرين المسيحيين، كما نجد أن مقاومة هذه الجمعيات للمبشرين لا يلطفها التسامح الذى يذكرونه فى إعلانهم مبادئهم.

ولاحاجة بى أن أبين هنا الخطأ الذى تقوم عليه الآراء والأفكار التى يقبلها خصوم المبشرين ولكن لا بد أن أضعها موضع النظر؛ ونحن وإن صدقنا دون قيد ولا شرط ما يقوله الثقات أمثال «أدريانى» و«كريمر» عن المبشرين المسيحيين وعن أحوال الأهلىين وأخلاقهم وعاداتهم وآرائهم حينما يقولون إن تأثير المبشرين أقوى بكثير مما يبدو من مجرد عدد المرتدين إلى المسيحية فيجب علينا أن نلاحظ أن هذا التأثير - حيثما كان له نتائج ظاهرة ملموسة - أفاد خصوم المبشرين بقدر ما أفادهم أنفسهم، ويحضرنى هنا مثلاً ذكر المقاومة التى أثارها نشاطهم فى جمعية المحمدية هذه المقاومة التى عملت كثيراً على تقدم هذه الجمعية الأهلية ويحضرنى أيضاً ذكر مدارس التبشير بتلاميذها الكثيرين ونسبة المرتدين القليلة بينهم.

وإذا نظرنا إلى إخفاق المبشرين نظرة لا تنميد بأى اعتبار وجدناه بالطبع شامداً على نجاحهم ولكنه يجعل للمسيحية مركزاً غير مستقر بين التيارات التى تعمل للتحكم فى مجرى الحوادث ، وربما تكون المسيحية أقوى ويكون تأثيرها أكبر لو لم تضطر إلى التغلب على مقاومة أنصارها الاسمين الذين يعتقدون بإمكان الجمع بين الاعتراف بالمسيحية اعترافاً قاطعاً وبين المجاهرة بما يعتقدون من أفضلية المجلس الأيضى على أهل البلاد، وعلى مقاومة من يسعون إلى إقناع الحكومة الهولندية بأن تظاهر المبشرين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة رغم اتخاذها من أول الأمر خطة الحياد فى الأمور الدينية واحتفاظها بثلاثة قرون بوجهة نظر تقتضى عليها بعدم الاشتغال بأخلاق وعادات أهل البلاد إلا فيما يظهر أن ثمة ضرورة شديدة .

أما إن المبشرين سيفوزون أم لا فى مستقبل كفاحهم مع الإسلام ، خصمهم الروحي الخطير حتى الآن ، فهو بعد كل شيء - إذالم تدارك المبشرين برحة رهيم - رهين استقرار سلطان هولندى فى أندونيسيا يشبه تماماً سلطان الحكومة الحااضرة . وفى زوال سلطان هولندى زوال أكبر عقبة أمام المبشرين وهى العقبة السياسية وإن كان أحد لا يجرؤ على القول بأن نجاحهم يكون بذلك معضمونا ، وأكثر ما يمكن قوله هو أن الفرصة المثبته أمامهم للعمل ضد الإسلام فى المستقبل أحسن فى أندونيسيا منها فى كثير من البلاد الأخرى من ديار الإسلام ، إذا نظرنا إلى خصائص الإسلام فى أندونيسيا ، ولنسأل الآن عن وجهة الإسلام . لاشك فى أن هناك قوى هادمة تعمل فى بناء الإسلام فى كل أنحاء العالم ، وينبغى ألا نبخس هذه القوى ما لها من خطر ، إن النزعة التى تصبغ كل شيء بصبغة الدين التى امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى جعلته مدة تزيد على اثنى عشر قرناً ديناً متمكناً فى امبراطوريات انمحت فيها القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها . لقد حاز الإسلام

كما بين «سوك هورجروني» في خطاب له في ١٩٢٢ عن «الاسلام» ومشكلة الاجناس، فضلاً لاسيلى لانكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الامة وهو نضل لا يمجده حتى غير المسلم ممن يعتق ديناً آخر ويتبع فكرة أخرى في الحياة، ثم إن نزعة التوسع الامبراطورى الاوروبى هذا التوسع الذى نبذ فكرة العصور الوسطى عن الدولة المصطبغة بصبغة نصف دينية وحاول اللجوء الى القومية الفردية وذلك بعد كفاحه العظيم مع الاسلام أيام الحروب الصليبية بزمن قليل وبسبب ذلك الكفاح من وجوه كثيرة هذا التوسع نفسه أحدث أول الامر بين أوروبا والعالم الاسلامى انفصالا روحياً صار لا بد من إزالته فيما بعد بسبب حاجة أوروبا إلى التوسع ولم تكن إزالته مستطاعة إلا بادخال العالم الاسلامى تحت تأثير أوروبا، ثم إن أفكاراً أوروبية مخالفة في جوهرها للأفكار التى كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكاناً خفياً في مراكز العالم الاسلامى ونبتت في زعماء المسلمين، وأحدثت عملية انحلال انتهت في ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربة بالروح الأوروبية تعترف بالاسلام ديناً لها بل تعترف في بعض الأحيان أنه أكبر الأديان شأنًا ولكنها لا تزيد على ذلك، وأصبحت الأمة الإسلامية التى تنسأى على القوميات على وشك التمزق إلى قوميات تعز بقوميتها، ولا بد لأفراد هذه الأمة أن يفصحوا عما سيؤثرونه في المستقبل : الاسلام أم القومية، وهناك علامات تدل أنهم سيؤثرون الطرف الثانى في المستقبل القريب، ذلك أن الخلافة وهى رمز الوحدة الإسلامية - وإن كانت في بعض الأحيان غير جديرة بذلك - قد ألغيت، وأن الاسلام فوق ما يعوزه من سلطان رجال الدين تعوزه أيضاً الصحف الدولية التى تشبه صحف الكاثوليكية والصحف التى تعمل البروتستانتية على إنشائها في بعض الجهات، وليس في العالم الاسلامى إدارة مركزية، ليس هناك هيئة تفكر في مطالب المسلمين تفكيراً منظماً، أما المحاولات التى عملت في

السنوات الأخيرة القليلة لا إيجاد وسيلة تبحث في شؤون المسلمين
بحسباً منظماً فربما تسير إلى الفشل في المستقبل القريب على الأقل
لأن الدول الإسلامية الناشئة حديثاً التي قامت على أساس علماني لم تخبر
حتى الآن القومية الأوروبية السياسية ولم تعرفها معرفة عملية تمكنها من رؤية
جانبا المظلم والآن فالتعليم على الأسلوب الأوروبي الجديد - وهو غريب
عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية - يضع وهو صامت بذور
انحلال أكثر مما حدث .

هناك بعض الدلائل على تفهقر العالم الإسلامي ، ونرى أوروبا من جانبها
تعاق أزمة روحية ، وليست أزمتها عارضا مؤقتا البتة بل هي بعد كل شيء نتيجة
حتمية لفعل الفردية المفرقة التي سادت تطور أوروبا منذ نفورها من العالم
الإسلامي بعد الحروب الصليبية ، وربما تؤدي هذه الأزمة الروحية إلى إزالة
أعظم خطر يهدد العالم الإسلامي الآن وهو رغبة أوروبا في التوسع مطلقة
العنان تقوم على التوسع الإمبراطوري في ميدان السياسة وعلى النظام الرأسمالي في
ميدان الاقتصاد وعلى الفردية التي تتجاهل مصلحة المجموع في ميدان الثقافة ،
وربما ينتهي هذا أخيراً بتقليل سرعة تفهقر الإسلام وفوق ذلك فإن توسع أوروبا
من جهة أخرى يثير في أوروبا وفي خارجها معارضة لحركة هذا التوسع
ولوسائله والآراء الفاسفية التي هي السبب في أزمتنا الروحية ويميل فريق
ولا سيما بين المثقفين الذين عرفوا روح مدينة الغرب أحسن معرفة إلى
الاحتجاج عن قبولها - واعين أو غير واعين - ويميلون إلى محاربتها ، ومن ثم
فربما تنشأ بين الشعوب الشرقية قوى جديدة تعمل على إيقاف التفهقر الحالي
في الإسلام بل على تحويله تقدما إلى الأمام إذا ظلت أوروبا سائرة في السبيل
الذي تسلكه الآن . ومن يستطيع أن ينكر إمكان مثل هذا التقدم إلى الأمام
على الأقل بعد أن تضرب له حركات كالإحمدية مثلاً على ذلك بما لها من قوى

خلقية شديدة وشعور ديني عميق لامرأ فيه ، وبعد أن يرى أنها استطاعت إحداث بعض التأثير في بلاد كانت تعد أقصى حدود « دار الإسلام » ؟ .

ماذا سيكون موقفنا من الإسلام ومن كفافه مع المعضلات التي نشأت عن تسرب المبادئ الأوروبية السياسية والاقتصادية والثقافية إلى المسلمين ؟ وكيف سنقف إزاء ما ينتظر من تدهور الإسلام أو نهوضه ؟ وأى قيمة سنجعل للظواهر التي تشخص أماننا أثناء بحثنا ؟ كل ذلك يتوقف توقفا كبيرا على ما اخترنا لأنفسنا من وجهة نظر نسير عليها في حياتنا دون غيرها من الوجهات الكثيرة الموجودة ، ولعل من الخير الآن أن نزن الحقائق بميزان نزيه ، ومن واجب الباحث في الإسلام بحثا علميا أن يزيل من نفسه كل ما يعرقل الحكم النزيه وأن يعمل كل ما يعينه على إيجاد هذا الحكم ، وليس في حدود مهمتي أن أؤكد رأيي الخاص ، ولذلك فلن أقول هنا أكثر من هذا : ربما يكون من الطبيعي أن تصبح الفروق بين الإسلام والمسيحية أقل ظهورا - حتى من غير أن تتنازل إحدى الديانتين عن خصائصها - كلما زاد عدد من يرى الهوية السحيقة التي تفصل بين هاتين الديانتين من جهة بما فيهما من تسليم وتضامن ومثل أعلى واحد واتجاه إلى الله الأعظم وبين اللادينية الحديثة من جهة أخرى بما فيها من فردية ومن روح الشك وبشعارها : « الثروة والتقدم والرقى الدنيوى » .

ونلاحظ في اندونيسيا بالضرورة كل المظاهر والكفاح والتطورات الممكنة في المستقبل التي نلاحظها في سائر العالم الإسلامي رغم الفارق في الظروف المحلية والتطور التاريخي ، وروح التجديد في هذه البلاد المستعمرة وحركة الجامعة الاندونيسية القومية والتعليم على الطراز الأوروبي كل هذه تعمل ضد الإسلام وربما يضاف إلى هذه العوامل في المستقبل نشوء طائفة من العمال المنحطين قد تنشأ عن إزدحام السكان المتزايد ، وذلك إذا نظرنا إلى التجربة

التي وصلت اليها أوروبا وهي أن البؤساء المنبوذين في هذه الدنيا كثيراً ما تكون عاطفتهم الدينية ميتة . أما من جانب الإسلام فهناك عوامل قوية لا تزال تعمل باستمرار تلك هي : شعور الأميين من المسلمين شعوراً قوياً بالوحدة ومعارضة المثقفين منهم للتأثير الأوروبي . أما المبشرون المسيحيون فهم يعملون مع الإسلام ويعوقونه ، هم يعوقونه بسعيهم المستمر لانقاص المسلمين وهم يعملون معه بقدر ظهورهم في مظهر من الاخلاق القوية التي ستقدر على التضافر مع القوى الخلقية الأخرى وعلى تقويتها (١) . ومستقبل الإسلام في اندونيسيا رهين طريق ومدى مقاومة كل من الاسلام والقومية والتعليم الاوروبي والمبشرين بالمسيحية صاحبه في المستقبل القريب ، ويتوقف كل من طريقة هذه المقاومة ومداهما توقفاً كبيراً على السياسة الاستعمارية الهولندية ، وفي هولنده - كما في سائر أوروبا - قوى كثيرة عاملة ترمى إلى توجيه هذه السياسة في طريق آخر مختلف اختلافاً تاماً عن ذي قبل ، ولكن المستقبل يضم في خباياه ، ما سيكون من قوة تلك العوامل بعضها بالنسبة لبعض والاثار الذي سيحدثه كل منها في الآخر .

(١) لعله يريد أن يقول أن المبشرين يلقنون الناس كثيراً من الفضائل التي يصر عليها الإسلام وبهذا يستطيعون التضافر معه في هذه الناحية . (المترجم)

الفصل السادس

وجهة الاسلام

بقلم الأستاذ هـ. ا. ر. جب

«هل هناك ، عالم إسلامي ، ؟ وبعبارة أخرى هل الأجناس الرئيسية التي تعتق الإسلام ترتبط معا برابطة مشتركة من الشعور والمصلحة والأفكار ارتباطا ناشئا عن دينهم وخصوصا به ؟ إن السؤال جوهرى وإلقاؤه يستدعى أجوبة متنوعة ، .

والذين قرءوا أربعة الفصول السابقة لن يترددوا في الإجابة عن هذا السؤال ، الذى وضعه في هذه العبارة منذ بضع سنين كاتب ذو خبرة إدارية طويلة في آسيا ، بأن يقولوا نعم ، فرغم كل النزعات الجديدة والآراء التي تسربت من أوروبا إلى المسلمين ورغم الانحلال السياسى وتفاوت الثقافة لاتزال تجمعهم «رابطة واحدة من الشعور والمصلحة والأفكار» . هذه فيما يظهر قضية لا ريب فيها كما لا ريب في أن أساس الوحدة يتأخص في اعتناق دين واحد وفي الاشتراك في أصل واحد من الثقافة الدينية .

لكن رب قائل يقول — ويستطيع أن يدعم قوله ببراهين — إن الوحدة الاجتماعية في العالم الإسلامى ، إن بقيت للآن فهي في الغالب ذكرى شيء زال منذ زمان قريب . وإن دخول الأفكار الجديدة وما يقترن بها من الأنظمة الجديدة لا يزال من الحداثة والمفاجأة في الهجوم بحيث لم يفلح في أن يصد التعاطف القديم بين معظم معتققي الإسلام أوفى أن يقضى على تأثيره بينهم قضاء مبرما . ولكن زبما يقال إن الأفكار الجديدة هي أقوى العوامل الفعالة

بين شعوب الاسلام وإن المستقبل لها وحدها إلا إذا طرأ عامل ليس في الحسبان وأبطل عملها ، في حين أن الرابطة الدينية القديمة ستضعف ضعفا مطردا بعد أن تصبح عديمة النفع .

لهذا يجب أن يصاغ السؤال في عبارة أخرى لكي يبلغ صميم المعضلة : هل أواصر الوحدة قوية قوة كافية ؟ أو هل من الميسور تقويتها حتى تصون وحدة المجتمع الاسلامي وتسيطر على نزعة شعوبه وتطورها وحتى تميزهم جماعة لها ثقافتها الخاصة ؟ يجب أولا أن نحذر من أن يضلنا حصر عبارة السؤال في دائرة ضيقة ، ذلك أن موطن النزاع ليس هو أن روابط الوحدة القديمة ستظل من غير أن يعثر بها التغير سواء في شكل وحدة المبادئ أم في الخضوع لشرعية واحدة أم في اتخاذ تقاليد ثنائية واحدة ، بل الأمر على عكس ذلك ، فربما تنقلب الصور الظاهرية رأسا على عقب ، وربما تنشأ أنظمة جديدة تتلاءم مع آراء جديدة عن كنه الحكومة والمجتمع ، وربما تقوى أصول الثقافات في أقاليم مختلفة وربما تختلف يبعث التقاليد القديمة المختلفة أو بتأثير عوامل محلية ، وربما تتباين الشعوب في تأكيدها لنواحي مختلفة من العقيدة الدينية ، وربما يختلف معنى الوحدة اختلافا تاما عما كان عليه في العصور الوسطى ، ولكن هذه جميعا أمور ثانوية ، فأما الشيء الجوهرى فهو عما إذا كان المسلمون في آرائهم وأنظمتهم ومسلكتهم حيال المشاكل الجديدة وفي تطورهم المادى والروحى الصميم سيكشفون عن نزعة واحدة وسيستقون من منبع واحد وسيسيرون على ضوء الشعور بالواجب الذى يشعرون به جميعا والغاية التى يطمحون لها جميعا وأن اشتداد وطأة الافكار الجديدة والحاجات الجديدة سيفرق بينهم على الدوام وسيفلح أخيرا فى تحطيم بناء المجتمع الاسلامى .

لنقل الآن إنا لآنستطيع أن نجيب اليوم إجابة واضحة لالبس فيها ، ويحتمل كل الاحتمال ألا تقدر على ذلك حتى بعد زمان طويل ، فرب عامل

جديد ليس في حسابنا يطرأ على غرة في أى وقت ويغير مجرى الحوادث تغييراً تاماً، والحق أننا يمكن أن نعتبر من المؤكد أن أكثر من عامل كهذا سيطرأ على أن الجماعات في تطورها، يندر أن تسلك طريقاً مستقيماً حتى بعد أن تبلغ حالة من الاستقرار النسبي بعد فترة طويلة من التطور في اتجاه واضح، ويحتمل فوق هذا أن يحدث ارتباك وفوضى مفاجئة وانقلاب حينما تزعزع دعائم مجتمع وحينما يتحسس طريقة إلى الأمام لكي ينظم قواه من جديد، ونرى مثلاً مصغراً يبدو أمامنا في حالة تركيا منذ قيام الجمهورية. ومع أنه من التسرع في الحكم الزعم بأن ما وقع في تركيا إرهاب لما سيقع في كل البلاد الإسلامية الأخرى فلانستطيع أن ننكر أن هذه البلاد ربما تكون أيضاً مسرحاً لتطورات ليست في الحسبان. والأسطر القيمة التي كتبها الأستاذ ماسينيون، في مقدمة وصفه لتيارات الفكر في المغرب يجب أن تكفى في تحذير أكثر الباحثين ثقة بنفسه كيف تيمد الأرض من تحته وكيف تتحده المظاهر الخارجية التي ينظر إليها.

وفوق هذا فما من مجتمع يعيش في عزلة تامة ولا سيما في هذه الأيام ذات الحركات العالمية والتي زادت المدنية الغربية فيها الأحكام الصلة بين أجزاء الجنس البشرى، وكما أن تأثير ثقافة أوروبا كان سبب الإزمة الحاضرة في العالم الإسلامى فسيؤثر هذا في تطوره المقبل لا بما سيحدث في المجتمع الأوروبى وحده من تطورات بل سيتأثر بتطور المجتمعات الأخرى كذلك، ولكى نأخذ على سبيل المثال حالة بعيدة الوقوع فربما يحدث قبل أن يعد المجتمع الإسلامى نفسه الأعداد الكافى لمواجهة الإزمة، أن يوطد المجتمع الشيوعى الجديد في روسيا سيادته على آسيا الغربية وأن تعيد جماعة هندوكية توطيد مركزها في الهند وأخرى أندونيسية في أقصى الشرق أو قد تصير لواحد من هذه المجتمعات على التعاقب غلبة ثقافة تمكنها من تغيير مجرى التطور في البلاد الإسلامية تغييراً

أساسياً ، ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نعرض هنا لمثل هذه التخمينات ، وكل ما يمكننا عمله هو أن نتناول العالم الاسلامى كما هو فنظر أولاً في مدى انتشار الأفكار الغربية الاجتماعية والسياسية التى تسربت اليه بالفعل وفيما لا تتشأر تأثيرها من علامات ثم ننظر بعد ذلك فى مسلك الشعوب الاسلامية كل على حدة وفى مسلك العالم الاسلامى فى جملة حيال الضغط الاوروبى ثم نقيم آخر الامر ميزاناً يعين لنا الاتجاه العام الذى يظهر أن المجتمع الاسلامى سائر فيه الآن . وأظهر علامة تميز العالم الاسلامى فى هذه العقود الأولى من القرن العشرين ليست هى صيرورته إلى الاخذ بمنازع الغرب ولكن رغبته فى ذلك . ومن العسير أن تقع عين الرائي على بلد اسلامى واحد يرفض مستحدثات الغرب رفضاً تاماً فى كل ميادين الحياة والفكر ، فلم يقم من المسلمين زعيم مثل غاندى يدعو مواطنيه إلى محاربة المدنية « الشيطانية » ، بل الامر على عكس ذلك فرغم كثير من النقد لنواحي المدنية الغربية ورغم تشجيع خطابه بليغ على « المادية » الغربية ، يعلن كل زعيم أن غاية حزبه تنظيم البلاد اقتصادياً وسياسياً على الطراز الاوروبى ، وقد يزيد البعض على هذا أنه لا بد أن يراعى فوارق التقاليد والتاريخ مراعاة مناسبة ، غير أن عرف الغرب يقبل معياراً فى الواقع ، وحتى أولئك المحافظون الذين يلتمسون القدوة فى ماضيهم ويستوحونه التشجيع ويذكرون شواهد من تاريخ الاسلام ليبينوا أن المبادئ والصفات التى ننشدها اليوم توجد فيما لهم من تليد هؤلاء أيضاً يتخبرون - دروا أولم يدروا - الأمثلة التى توافق وجهة نظر الغرب ويغفلون كل ما يناقضها منأضة شديدة .

ومهما عظم الاختلاف فى مدى الاستغراب بين أقليم وآخرفان كتاب أربعة الفصول السابقة أبانوا فى وضوح أنه موجود فيها جميعاً ، ومن المهم لتحقيق الأغراض التى نقصدها من بحثنا الآن أن نبين الاطوار التى ترا كمت فيها

تأثيرات الغرب وأن نعين مكانها من بناء المجتمع الاسلامى .

فالطور الاول هو الاخذ بقشور الحياة الغربية ، وكان أصل البلاء هو اتخاذ العدد والآلات الحربية الاوروبية — التى عمرت حتى الآن فى بعض البلاد أكثر من قرن — وما اقترن به من النتائج التى أشرنا إليها فى المقدمة ، وتلا هذا عادة — وإن لم يكن — دائماً اتخاذ الملابس الغربية ، وفى بعض البلاد اتخذت المساكن والآثاث والعادات والاخلاق وصيغ الكلام وكثير من التفاصيل الأخرى الوثيقة الصلة بالسلوك ، وإن المسافر الذى ينزل فى الاسكندرية أو بورسعيد ويسافر فى قاطرة فاخرة إلى القاهرة وينزل فى فندق فى الحى التجارى أو فى طابق حديث أو د فلا ، فى الضواحي الآهلة بالسكان ويجد فى انتظاره كل ملاذ حياة المدن الاوروبية حتى الخيالة و الجازباند ، والكتابة الكهربائية سيجد نفسه مدفوعاً إلى التسليم بدعوى خديوى مصر منذ أكثر من خمسين سنة أن مصر قد صارت قطعة من أوروبا ، وبالطبع نجد ظروف الحياة فيما عدا هذه المراكز التى يلتقى فيها الناس من كل جنس أكثر سداجة وربما يلتمس الشاعر هناك ، الطابع الشرقى ، الذى تلتانى من المدن الكبرى ، ولكنه منها أوغل فى ذهابه فن الصعب عليه الافلات من برائن المدنية الغربية المترامية التى صارت ترتع كما تشاء فى أقصى مساكن الانسان وأبعدها منا لا بفضل آخر عون من أعوانها وهى الآلة ذات الاحتراق الداخلى ، والسيارة والطائرة ومضخة البترول تبوأ مكانها إلى جانب البندقية حتى فى صحراء جزيرة العرب وفى وسط الصحراء الكبرى .

وإذا تسامل أحد عن قيمة هذا بالنسبة لموضوع بحثنا قلنا : إن مجرد الاخذ بقشور مدنية الغرب سواء أكانت تتمثل فى دار الأوبرا ، أو فى ادخار شيخ القرية دملعة وشوكة ، من التكل يصعب أن يدل بذاته على أكثر من رغبة فى تقليد عادات الغرب والانتفاع بمخترعاته الجديدة ، لاشك أنه يتطلب بعض

الاعتراف بأن الغرب سبق الشرق في هذا المضمار ولكنه لا يدل حتماً على
احترام الأفكار الغرب الاجتماعية والسياسية يساوى ذلك لاعتراف فضلاء
أن نتخذ دليلاً صحيحاً على تشرب الروح التي ينطوى عليها هذا النموذج الذي
يحتذونه ولعل فهم النموذج فهماً صحيحاً يقل كلما كان التقليد طبق الأصل ، ومهما
يكن من شيء فإن هذا التقليد لا يحمل في ثناياه ذلك المعنى الذي قرنه به علماء
المسلمين المتمسكين بالقديم وهو إضعافه للتعلم بأهداب الإسلام ، ولا شك
أن مما له معناه أن هناك ظاهرة خارجية واحدة رفضها الناس جميعاً حتى في البلاد
الإسلامية التي لها أطول تاريخ من الاستغراب معلنين في صراحة أنهم يرفضونها
لأسباب دينية ، تلك الظاهرة هي القبعة ، ومهما البست الأطراف فإن الرأس ظل مسلماً
وحتى في تركيا سخط الناس على ما أرغموا عليه من لبس القبعة الأوروبية أكثر مما
سخطوا من أى إجراء آخر اتخذته الحكومة الجمهورية ولم يذعنوا لهذا الأمر
إلا لما بعثه فيهم من خوف . أما في الأفغان فإن إرغام الناس على لبس القبعة كان
آخر أمر تافه كلف المصلح الطائش ما كان له من عرش .

وحيثما ذهب الأخذ بظواهر المدنية الغربية إلى مدى بعيد كما يشاهد
في القاهرة بدأ الطور الثاني من أطوار الاستغراب ليس هو مجرد التقليد بل هو
تكيف مظاهر المدنية الغربية بما يلائم الحياة الشرقية ، ويكون التأثير هنا عميقاً
بما يتناسب مع تعدد النواحي التي يشملها ويمس حياة جمهور الشعب مسافرياً
غاية القرب ، وإن أهمية التغيرات الاقتصادية التي حدثت في كل إقليم نالت حظها
من العناية في كثير من الفصول السابقة فلا حاجة لذكر أثرها في كل إقليم مرة
أخرى ولكن إذا ضربنا الآن صفحاً عن الآثار السياسية والاقتصادية التي أحدثتها
هذه الحركات بقيت عندنا الناحية الاجتماعية الهامة التي يوشك ألا تكون
قد نالت حظها من العناية . إن نمو الصناعة تحت الإشراف الأوروبي
حوّل المدن القديمة المسورة حتى صارت مجتمعات متحضرة (في القاهرة
أكثر من مليون نسمة وفي الإسكندرية ما يقرب من ستمائة ألف وفي

بغداد والجزائر ٢٥٠٠٠ ر ٢٥٠٠ وتحتوى مدن شمال الهند وجاوة أيضا نسبة كبيرة من المسلمين) أبرزها إلى عالم الوجود جيلا حضريا يتكون غالبا من الأجراء يخالف ما كان فى تقابات الصناع وأصحاب المهن فى مدن القرون الوسطى ، وإدخال الآلات والنقل الميكانيكى يوجدان أيضا فى البلاد الإسلامية نوعا من العمال يشبه النوع الذى أوجده فى أوروبا وهو نوع سريع فى حركة فكره ويده ، يقظ لا يهدأ ، سهل التهييج لم ترسخ جذوره فى المجتمع ، ينزع إلى عدم الاكتراث بالعادات والأوضاع القديمة الدينية والاجتماعية ، وتلاحظ هذه النتائج — بخلاف مظاهر المدنية الغربية الأخرى — فى بلاد المغرب خاصة لأن النزعات الناشئة عن حركة العمال الأفريقيين إلى فرنسا — وهى الحركة التى وصفها الاستاذ ماسينيون — تبرزت فيها بما نشأ عن التجنيد الإلجبارى فى الجيش .

وإلى جانب هذه الطبقة الدنيا من عمال المدن نرى فى كثير من البلاد ولا سيما مصر وجاوة طبقة مثلها من العمال الزراعيين نشأت عن استعمال الوسائل الفنية الأوروبية فى الري والزراعة ، وأن تغير رى الحياض الذى كان يؤتى محصولا واحداً فى العام إلى رى دائم يسمح بثلاثة محاصيل فى السنة ثم إدخال القطن والحاصلات الأخرى عملا على إثراء ملاك الأرض وإفقار الزراع حتى نزلوا إلى مستوى الأجراء ، والشفقة الاجتماعية بين ملاك الأرض (الذى كثيراً ما يكون بعيداً عن أرضه) وبين الزراع أعظم بكثير مما كانت عليه منذ قرن وإن لم يحز أن نبالغ فى ذلك ، وقد ذكر الاستاذ وبرج ، تطورا كهذا فى جاوة فى العلاقات بين الزراع والأرستوقراطية الجاوية وهو مثال رائع على تشابه التطور فى بائدين إسلاميين متباينين بتأثير عوامل واحدة . وليس الزارع الحر الذى يملك أطيانه فى حالة أحسن كثيراً فى معظم البلاد الشرقية لأنه على الدوام متورط فى الديون بسبب المزاين فى القرى .

ومن ثم كانت هذه الطبقات التي أحست أكثر من غيرها بما نجم عن التدخل الأوروبي من نتائج متلفة هي دون غيرها أكثر استعداداً للتأثر بجميع صنوف الدعاية فلا عجب أن نجدهم اليوم أدوات قريبة المنال لا يدي دعاية القومية وربما يصبحون أدوات قريبة المنال أيضاً لا يدي دعاية الجهاد ، هؤلاء العمال مع ذلك يلعبون في الحقيقة دوراً سلبياً - وإن حاول زعماء الحركات تحقيق غاياتهم عن طريقهم وإن كانوا سيحاولون ذلك في المستقبل .

وإن نزوع أصحاب العمل نزوعاً متزايداً للممارسة وسائل الصناعة الأوروبية والمبادئ الاقتصادية على حسابهم الخاص أهم كثيراً مما تقدم في العمل على إثراء الروح الغربية ومن أروع الأمثلة في السنوات الحديثة بنك مصر في مصر وفروعه في سوريا وإنشاء الجمعيات الرأسمالية التجارية والصناعية في الهند وجاوة وتنظيم الصناعات التركية في عهد الجمهورية ، هذه الحركة الاقتصادية لا تزال في دور الطفولة ولا نستطيع التمكن بالمدى الذي سبلغه .

ورغم أن النتائج الاقتصادية للاستغراب ذهبت مدى بعيداً نجد أن الأخذ بوسائل الغرب الفنية في تنظيم الحكومة والإدارة يتبوأ مكاناً أسمى في عين الجمهور ، وليس هذا في البلاد التي تحت الإشراف المباشر أو غير المباشر لأوروبا فحسب حيث يمكن أن يكون هذا قضية مسلمة ولكنه أيضاً - كما رأينا - في معظم البلاد الإسلامية المستقلة حيث أعيد تنظيم المصالح والنظم الإدارية على الأسلوب الأوروبي شيئاً فشيئاً حتى يمكن القول بأنها قد استغربت تماماً . وأشرنا إلى أن هذا كان في الواقع أول أغراض المصلحين الأولين في تركيا وحيثما أخفقوا أفلح خلفهم في استثمار خططهم بل في السير بها إلى غايات أكثر تطرفاً . وكل حكومة إسلامية اليوم - ماعداً الأفغان واليمن التي هي أكثر حكومات الإسلام تشبهاً بمنازع القرون الوسطى - لها دواوينها « البيروقراطية » في ظل وزراء مسئولين ، في القضاء والشئون الخارجية والتعليم بل في الأمن العام والرى

والأشغال العمومية والأعمال الصحية والطبية وما شاكلها .

وبما هو أكثر دلالة على الاستغراب في الإدارة إنشاء المجالس البلدية ومجالس الأقاليم على أساس تمثيلي لالما أثبتت لها التجربة من قيمة من حيث هي ميدان تمرين لإدارة الدولة فبحسب بل لالنها ظاهرة جديدة كل الجدة في تنظيم الدولة الالسلامية . ونكاد لا نرى حاجة شديدة لالاطناب في الكلام عن الرغبة الملحة التي دعت إلى المطالبة بهذه الالأنظمة التمثيلية ولا الحماس الذي به أدخلت ولا عن فائدها في إرضاء الشعور الوطني المنطوى على احترام النفس . إن الحكومة النيابية تعتبر في الدور الحاضر من أدوار التطور السياسي العلامة الظاهرة الدالة على كمال الالائمه ، وإن ما في تصرفات النظام التمثيلي من اضطراب في معظم البلاد الالسلامية لا ينقص من قيمه المبدأ الذي تقوم عليه . وقد نبذت نظرية الحكم الاستبدادي نهائيا وحلت محلها نظرية سيادة الالائمه وفي هذا دليل على بلوغ الذروة في الالآخذ بظواهر المدنية الغربية وهي الذروة التي لم تبلغ إلا منذ عهد حديث جدا . على أن المصلحين الالاولين في مصر وتركيا لم يكونوا ديمقراطيين ألأبته ، ولكي يفهم النظام التمثيلي حق الفهم كان لابد من انتظار الترية السياسية التي تعين على تقديره ، وممر ما يقرب من قرن بممر تسرب التأثيرات الالأوروبية قبل أن يظهر هذا التقدير عاملا فعالا في الحياة السياسية للمسلمين .

وإن حداثة عهد هذا النظام السياسي تدل على أن دعائمه لا بد أن تكون أقل استقراراً وأصوله أقل امتزاجاً بقول الالائمه من المظاهر الخارجية لمدينة الغرب هذه المظاهر التي تستر الحياة التقليدية للشرق ، وحتى لو قلنا إن هناك أقلية صغيرة من المثقفين ثمافة أوروبية أدركت مهمته الحقيقية فالتنا لا نستطيع أن نغفل الالأنظمة الدستورية للحياة السياسية في تركيا ومصر وفارس وغيرها سوى أشياء غريبة عن حياتها الحقيقية أعنى ألأنها تطبق إلى للنظم الغربية في ميدان الحكومة على مثال تطبيق الآلات في الصناعة والتنظيم البيروقراطي ، في الإدارة سواء بسواء .

وهناك نقاد راحوا يؤكدون أن النظام التمثيلي لا يعدو هذا : إنه غريب في أصوله عن الشرق ، ولن ترسخ دعائمه فيه ، والحق أن المؤرخ مضطر إلى التسليم بأن تقاليد الحكومة في العالم الاسلامي ليست من طراز ينزع إلى تنمية صفات لا بد منها لنجاح الأنظمة الديمقراطية ، ولكن إنكار أن تلك الصفات يمكن أن تنمو إذا تغيرت الظروف رأى لا يستند إلى أساس من العقل يثبت فيه الإنسان من التاريخ إلى الكهانة ، أما الجدل المرتكن إلى « المميزات الجنسية » حتى لو فرضنا أن لها قيمة علمية في هذا الميدان - فمسير جداً أن نحكم به على مجتمع يضم على الأقل سبعة أجناس متميزة كل التمايز .

وعلى أى حال فالمسألة التي تعنيننا مباشرة هي أنه رغم أن هذه الأشياء من أروع الأمثلة على شدة وطأة تأثير أوروبا على العالم الإسلامي فإن مستقبل الاستغراب والدور الذي سيلعبه في العالم الإسلامي ليس رهين واحد أياً كان من هذه المظاهر الخارجية المنقولة ؛ لأن الصور الظاهرية ثانوية ، وهي ثانوية هنا أكثر منها في الأمور المادية ، وكلما كان التقليد في المظاهر أكمل كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلدين أقل لأن فهم الروح والأصول التي تنطوي عليها المظاهر الخارجية فهمها كاملاً لا بد أن يصحبه إدراك التعديلات التي تتطلبها الظروف المحلية ، ويمكن أن يزول من العالم الإسلامي كثير من الأنظمة الغريبة التي نراها فيه الآن ولن يكون بعد ذلك أقل حظاً من الاستغراب ، بل ربما كان أوفر حظاً ، وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح الذي نسير به غور التأثير الذي أحدثته الثقافة الغربية في العالم الإسلامي يجب أن ننفذ إلى لباب الأمور وأن ننفذ أولاً إلى الأفكار والحركات التي تقوم على تشرب الأفكار الغربية تشرباً يبعث على الابتكار بعد استعداد داخلي قوى ، كل ما عدا هذا فهو سطحي ، ومهما شق الأمر فلا بد أن نبذل الجهد في أن تبين تلك العناصر التي تكون حقاً صرح ثقافة جديدة من مجموعة العناصر المنقولة التي تراكت في العالم

الإسلامى والتي كثيرا ما تكون قشورا زائفة :

والتعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب - والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم كل ما تدل عليه ، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامى إلا بمقدار دراسته للفكر الغربى وللمبادئ ، والنظم الغربية ، ولكن هذا التعليم ذو أنواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة ، وبالطبع لا بد أن هناك بالفعل قليلا من التعليم على الأسلوب الأوروبى ، فى المدرسة وفى الكلية الفنية وفى الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . رأينا مراحل دخول هذا التعليم فى بلاد الإسلام المختلفة ورأينا الأثر الذى أحدثه فى عقول الزعماء العلمانيين وقليل من الزعماء الدينيين فى العالم الإسلامى ، ولكن إذا سلمنا بما يقال عادة من أن ٩٥ فى المائة من المسلمين أميون (وإن كان فى هذا التقدير بخس بالنظر إلى الجيل الناشئ وإلى سرعة نشر التعليم الأوروبى فى كل البلاد الإسلامية) ، وتنبأنا أحدث الأرقام أن أكثر من خمسمائة ألف طفل يتعلمون الآن فى المدارس الأولية فى مصر (وإذا لم يكن بد من التسليم أيضاً بأن نصف المتعلمين على الأقل تلقوا العلم على الأسلوب القديم وحده فإن الثلثة الباقية من المتعلمين على النسق الأوروبى قليلة جداً حتى أنها لا تكفى - رغم مكاتها الفائقة - فى تعليل النزوع إلى الروح الغربية نزوعاً عاماً نكاد نشاهده فى كل أصقاع العالم الإسلامى ، ثم إن انتشار التعليم سيعتد بزيادة فى الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه ولا سيما لاقرانه بالعوامل التعليمية الأخرى التى تدفع الشعوب الإسلامية فى نفس الطريق .

ونستطيع أن نعد من هذه العوامل ، ما ينشأ عن مجرد وجود المظاهر الخارجية لمدنية الغرب بما ذكرناه فى الفقرات السابقة ، وقد أشرت فيما تقدم إلى الأثر الذى أحدثته اتخاذ وسائل الصناعة الأوروبية فى هذه الناحية وبالمثل سيكون من أثر إدارة البلاد على الأسلوب الأوروبى قبول الرعية للنظام الأوروبى حتماً

ومطالبتهم به وليس بين البلاد الإسلامية الحديثة مثلاً من تستطيع الاستغناء عن القيام بالأعمال الطيبة وتسهيل نشر التعليم ، وستكون الأنظمة التمثيلية كذلك الخطوة الأولى في تربية النخبين تربية سياسية ومن الأمور المسلم بها أن الأنظمة نفسها ليست أكثر من خطوة أولى ، هي لا ترشد الناس إلى الوسائل التي تؤدي إلى حسن الإدارة والإشراف على الأعمال السياسية فلا بد لهذه الخطوة الجديدة - التي لولاها لما كانت المظاهر الخارجية سوى قشور سطحية - أن تقوم على تكوين رأى عام مثقف لا على نشر التعليم بالأولى والثانوى فحسب ، وتكوين هذا الرأى العام هو الميدان الخاص بالصحافة وهي عامل تعليمى آخر بعثه الغرب .

إن نمو الصحافة السريع وشيوعها في البلاد الإسلامية سجلت له مزايا كما سجلت له مساوئ ، فهو من جهة أفصح فلاحاً لا ريب في إيجاد جرائيم الشعور السياسى بين جمهور الشعب ، وكان أكبر عامل على رفع المستوى العقلى العام ، والصحافة في الغرب المتعلم بما تعمل أحياناً على تخدير الرأى العام أما في الشرق الأسمى فهي تعمل على تنبيه الأمة ، ولا بد أن نضع في مقابل هذه المزايا ما يقع أحياناً من إساءة استعمال تأثيرها العظيم وما يشوبها من نقائص ذاتية تعزى إلى جدائته نموها وعدم استقرارها ، ومع هذا فالمطبعة أكبر من كل ما أعطته أوروبا للعالم الإسلامى في عظم نفوذها وقلبها لوجه نظر المفكرين ، وعدد الصحف التي تصدر بكل اللغات في العالم الإسلامى يزيد الآن على الألف وهو يأخذ في الزيادة ، وذكر الأستاذ كامبهاير ، مختلف الشؤون التي تتمثل في الصحافة المصرية التي تنبأ المكان الأسمى في العالم الأدبى الإسلامى ولا سيما منذ الحرب ، غير أن هناك مراكز أخرى ليست وراء القاهرة بكثير ؛ وهذا العدد الهائل من الصحف التي تظهر وتختفى بسرعة وبكثرة والتي هي دون كل ماعداها أصدق مرآة للأفكار والنزعات الجارية لن يستطيع الإحاطة به

إلا معهد منظم ، وحتى معهد الشرق الايطالى Istituto per l'Oriente الذى يرجع اليه الفضل فى نشر بحوث قيمة لاغنى عنها لمن يريد تعرف شئون المسلمين الجارية فى مجلة شهرية هى الشرق الحديث 'Oriente Moderno' هذا المعهد لا يشمل ضمن المصادر التى يستقى منها ، صحف آسيا الوسطى والصحف الهندية والاندونيسية .

ونستطيع أن نتبين بعض المميزات العامة التى لها علاقة بالمسألة التى نحن بصددھا . إن المشرفين على تحرير الصحف اليومية هم من أرقى الطبقات رأياً فى بلادهم . ولذلك نجد الروح الاوروبية تسيطر على نزعة معظم تلك الصحف ، هم زعماء الحركات الدستورية وكبار النقاد للادارة الداخلية وللحكومات الاوروبية فى البلاد الاسلامية ، هم يأخذون بأوفر حظ من تكوين الراى العام فيما يختص بالشئون المحلية وفوق هذا يحيطون بالجمهور علما بالحوادث والآراء التى تقع فى أورربا وما يكون لها من عدى فى الشرق بما ينشرون من أخبار ومقالات تعلل الحركات السياسية والاقتصاد وبما ينقلونه عن الصحف الاوروبية ، ويبدون فوق هذا اهتماماً عظيماً بشئون سائر البلاد الشرقية أكثر مما تبديه الصحف الاوروبية فى الواقع ، وبذلك يغذون شعور التعاطف الذى تبعثه وحدة أمانى البلاد الشرقية ومواجهتها مشاكلاً واحدة . فالصحافة الاسلامية عامل تثقيفى لا من الوجهة القومية فحسب ولكن من الوجهة الدولية أيضاً ، ويساعد على هذا انتشار الصحافة العربية خاصة فى كل البلاد الاسلامية الاخرى . ونستطيع أن نتبين بعض الفوارق بين الصحافة فى البلاد المختلفة فيما يختص بتيارات الفكر العامة وبقوة سلطان النزعة الدينية على هذه الصحف ، فأما الصحافة التركية فهى - بالطبع - علمانية وقومية إلى الحد الأقصى (ولا تجرؤ على أن تكون غير ذلك لأن الحكومة تراقبها أشد المراقبة) وأما الصحافة المصرية فهى رغم روحها الثورية أكثر جرياً مع التطور ويتجلى فيها تنوع فى الراى

مستحب غير أنها في الجملة علمانية النزعة ، وصحافة البلاد العربية في غرب آسيا أكثر خضوعاً لسلطان الدين من صحافة مصر وتنزع إلى « الجامعة العربية » نزوعاً قوياً في حين أن الصحافة الإسلامية في الهند يسودها الشعور الديني وتنعكس منها نزعة قوية إلى الإصرار على الفوارق الدينية التي لا تزال تمتاز بها الحياة السياسية في الهند .

ويشد أزر الصحف اليومية عدد وافر من المجلات الأسبوعية والشهرية التي تعنى غالباً بشئون خاصة بها تراوح ما بين علوم الكلام الإسلامية والأدب العام إلى شئون المسرح والسينما ، وتؤثر هذه المجلات أيضاً تأثيراً كبيراً ما يجاوز البلاد التي تصدر فيها ، فمجلة « المنار » بنزعتها الأصلحية ذائعة في العالم الإسلامي كله وتلعب دوراً هاماً في إصلاح الأفكار الدينية كما بينه الأستاذ « برج » حين وصف تأثيرها في أندونيسيا ، وسنزيد الكلام عن هذا فيما بعد أما المجلات الأدبية الحديثة في بلاد الإسلام فلها نفس الصبغة العلمانية التي للصحف اليومية وهي تعمل بازدياد على إحياء الثقافة الأدبية ووضع أصول النزعات العقلية الجديدة ، أما الحركة النسائية فلها صحفها الخاصة ويدير النساء بعضها ، وهناك صحف للكشفافة وصحف علمية تنشرها الجامعات المختلفة ومما هدد التربية وصحف لاسائر صنوف الجمعيات .

كانت النتيجة الخالصة لهذه الحركة التعليمية أنها حررت ، بقدر ما كان لها من تأثير ، نزعة الشعوب الإسلامية من ساطع الدين دون أن تحس الشعوب بذلك غالباً . وهذا وحده تقريباً هو جوهر كل نزعة غربية فعالة في العالم الإسلامي وهو وثيق المعيار الذي نقيس به قوة الرأي الحديث والرأي المحافظ أحدهما بالنسبة للآخر . إن الإسلام من حيث هو دين ندي فقد القابل من قوته ، وأما من حيث هو المسيطر على الحياة الاجتماعية فانه آخذ في النزول عن عرشه ، ذلك أن إلى جانبه قوى جديدة يصدر عنها سلطان يناقض تقاليد الإسلام وأوامره الاجتماعية .

نفي بعض الأحيان ولكنه رغم هذا - يشق طريقه بالقوة غير مبال بتلك
 الاوامر ولكي نصف الموقف في أبسط العبارات نقول أن ما حصل هو
 هذا : إلى عهد قريب لم يكن للرجل العادي بين الرعايا المسلمين ما يرب أو أعمال
 سياسية ولم يكن له أدب قريب المنال إلا الأدب الديني ، ولم تكن له أعياد
 ولا حياة اجتماعية إلا مقترنة بالدين ، وإن رأى شيئاً عن العالم الخارجي لم يكن
 ليراه إلا من خلال المنظار الديني ، فكان الدين عنده كل شيء ، أما الآن فقد اتسع
 مدى مصالحه في كل البلاد الراقية ولم يعد نشاطه مقيداً بالدين ، وضعت المسائل
 السياسية تحت نظره وقرأ أوقرى له عدد من المقالات في موضوعات متنوعة
 لا علاقة لها بالدين وربما لا تتعرض لوجهة النظر الدينية مطلقاً ، كما أن الحكم عليها
 قد يكون مقيداً بمبدأ مختلف عن مبادئ الدين كل الاختلاف ، هو يجد أن
 الرجوع إلى المحاكم الشرعية لا يغنيه شيئاً في كثير من مصاعب حياته ومشاكلها
 بل يجد نفسه خاضعاً لقانون مدني قد لا يعلم له مصدراً صحيحاً يستمد سلطانه
 منه ، ولكن لا شك أن هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة ،
 ولم يعد الدين هو الرابطة الاجتماعية الوحيدة أو على الأقل الكبرى بينه وبين
 إخوانه ، إذ أن مهام أخرى لا تمت إلى الدين بصلة ترغمه على الالتفات إليها
 وهكذا يرى سلطان الإسلام قد انفصلت عراشه عن حياته الاجتماعية وهذا
 السلطان ينحسر شيئاً فشيئاً حتى يقتصر على دائرة صغيرة من الأعمال ، حدث
 كثير من هذا في غفلة من الناس ولم يفتن إلى إدراكه إلا عدد قليل من المتعلمين ولم
 يعتمد على تحقيقه إلا عدد أقل من ذلك ، ولكن التيار سار جارفاً لا يلوى على
 شيء وحيثما رسخت قدمه لم يعد رده ممكناً ويظهر من المستقبل الآن ولا سيما
 إذا راعينا ازدياد المطالبة بالتعليم والازدياد في اتخاذ الأنظمة الغربية أن تنعكس
 الآية وأن يعود الإسلام إلى استشاره بالسلطة الاجتماعية والسياسية استشارة
 لا ينازع فيه .

وإذا جعلنا هذا مقياساً نسبر به غور الاستغراب قالى أى حد تمكن هذا بالفعل فى العالم الإسلامى ؟ يتضح من الفصول السابقة أن سير العالم الإسلامى فى هذا الطريق متفاوت جداً وأن كل الأَطوار تقريباً تتمثل فيه اليوم . فالحديث الحاكم فى تركيا مثلاً تسوق الناس فى طريق الاستغراب فى أشد أشكاله تطرفاً ، ونرى من جهة أخرى أن قدمه لم ترسخ بعد فى جزيرة العرب ، أما فى بلاد المغرب فتراه لم يجاوز الطور الأول إلا قليلاً ، وأما فى تونس فيظهر أنه ذهب إلى أبعد حد ، أما فى مصر فهو يسير بخطوات سريعة ولكنه يتقدم أبطواراً تدريجية غير عنيفة ، ويظهر أن العراق وسوريا ترسمان منطى مصر وأن فارس تحذو حذو تركيا ولكن فى كثير من الاعتدال ، أما أفغان فأنها بعد التجربة الطائشة التى أتاها أمان الله تهقرت - ولو مؤقتاً - إلى الأخذ بمنازع العصور الوسطى على حين أن جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية قد أدالت دولة الدين نهائياً بضغط من موسكو ، أما فى الهند فإن المسألة الطائفية عملت على جعل عقول المسلمين متركزة على دينهم ، ولا نخال حتى من غير هذا أن جمهور المسلمين فى الهند سيأخذون بوجهة نظر الغرب ولو إلى درجة صغيرة ، أما أندونيسيا فيتجلى فيها عدد كبير من التيارات المتعارضة حتى يصعب أن نصدر أى حكم عام عليها ، وإذا استثنينا الأقلية فسيكون من التسرع أن نقطع برسوخ أصول الاستغراب فيها ، أما المسلمون فى أفريقية فأنهم لا يزالون فى طور السذاجة النفسية .

وربما كانت أسلم نتيجة تقرر ها هى أن نقول إن هناك طبقتين رئيسيتين : طبقة عليا تشمل أفراداً من القادة ولكنها تشمل أيضاً أكبر مراكز الفكر الإسلامى تأثيراً وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية ظهوراً قوياً : وطبقة دنيا تشمل جمهور لرأى الإسلامى الذى لا يفصح عن نفسه وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقاً إلى حد ما وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب إلا فى جزيرة العرب ،

وما دام الزعماء هم الذين يعتقد بهم - ولاسيما زعماء الجيل الناشئ ، استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذهم نائيا بوجهة نظر لاسطان للدين عليها إلا إذا طرأ عامل جديد وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى .

ولكن قد يسأل البعض هنا : لم لم نقل شيئاً عن القومية في العالم الإسلامي ؟ أليس من المسلم به حقاً أن القومية أروع دليل وأظهره من كل الوجوه على الاستغراب ؟ الجواب إلى حد كبير رهين المعنى الدقيق الذي نفهمه من كلمة «قومية» فإذا كان معناها ماصرنا نفهمه اليوم من أنها القومية التي تقوم على الكفاح في السياسة والاقتصاد والتي بقصر جهودها على المصالح الخاصة بطائفة واحدة تنسى المصالح العامة للجماعة التي تنتمي إليها تلك الطائفة فحينئذ - ولحسن الحظ - لا نستطيع أن نتبين إلا قدراً ضئيلاً منها حتى الآن في العالم الإسلامي ، هي موجودة إلى حد ما في تركيا وتسيطر الآن - على الأقل - على مجرى السياسة التركية ، وأتى بعد الحرب وقت ظهر فيه أن نزعة القومية هذه تشيع في البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً ولكنها انتهت أولحقتها الفناء ، على أن لتركيا مكانة بارزة في نظر معظم الباحثين الغربيين عن الإسلام ولها في الزعامة وراثته قديمة حتى ليعدهم لها في كثير من الأحيان نموذجاً لما يحدث أو سيحدث في البلاد الأخرى من العالم الإسلامي ، ويعزز هذا الرأي أن الحركات والأمانى القومية توجد من غير شك في تلك البلاد أيضاً ، غير أننا قد نجد بعد الفحص الدقيق أن المثل العليا والغايات الأولى لهذه الحركات القومية تتكشف عن روح مختلف كل الاختلاف عما عند الجمهوريين الأتراك ، روح أقل تطرفاً وأكثر رحمة ، وقد يكون مستحيلاً أن نتبين حتى الآن العناصر التي تكون القومية الإسلامية ، هي تشمل أو تجتذب لنفسها - كما أبان الأستاذ برج - أنواعاً كثيرة من النشاط وجهتها غايات متباينة كل التباين ، هي مكافحة أعني أن غايتها

الأولى محاربة التدخل الأوروبي واسترداد الحرية من يد الأشراف الأوروبيين ولكن هذا المظهر الكفاحي موجه ضد أوروبا وحدها، وإذا تسعى هذه القومية إلى أغراضها تلتبس أقوى الوسائل تأثيراً في إيقاظ الشعور بالوحدة بين كافة أعضاء كل مجتمع، والظروف التاريخية التي لخصناها في المقدمة جعلت هم القومية أول الأمر محصوراً في كل بلد على حدة غير أن هذا كان أول الأمر فحسب، فالبلاذ الإسلامية عدا تركيا - وأندونيسيا إلى حذما - لا تنسى ولا تهمل المصالح والغايات المشتركة التي تربط الواحدة منها بالأخرى، وحتى مصر فرغم حلول المعضلة المحاية فيها كما في غيرها في المحل الأول نرى من أعظم مفاخر الناس حتى المنظرين منهم أن مصر زعيمة العالم العربي الإسلامي، أما نزعات الانفصال فقاصرة غالباً على ميدان الحكومة.

ويمكن أخيراً أن نعال الفرق بين القومية التي من الطراز الأوروبي كما تتمثل في تركيا وبين هذه القومية الإسلامية المعدلة بأنه علامة على قوة أو ضعف كليهما على التوالي، ذلك أن البلاذ التي تحس في نفسها القدرة على صيانة استقلالها بجهودها الذاتية وعلى أن تنهض على قدميها أكثر عرضة للوقوع فريسة في مخالب النوع الخطر من القومية، أما البلاذ التي تحس بضعف سياسي أو اقتصادي فهي تتطلع لقوة خارجية تشد أزرها، في هذه الحالة قوة الاحتفاظ بالوحدة الإسلامية. ولن يرينا إلا المستقبل إن كان هذا التعليل صحيحاً في الواقع أو أن فكرة الوحدة الإسلامية خيال يقف المسلمين منها بين رجاء في تحقيقها سلاحاً لهم جميعاً وبين يأس منها كما يئسسون من الخيال، وسنزيد الكلام عن هذا في جملة فيما بعد ولنقبل هذا الرأي الآن ليحدد لنا الفكرة الجارية عن القومية في معظم البلاذ الإسلامية، وإذن فلنعرف القومية الإسلامية مؤقتاً بأنها الجهد لإعادة تنظيم الجماعة الإسلامية على أساس فكرة الممالك المستقلة وهي ثمرة تسرب الأفكار الغربية السياسية من جهة وثمره العدا للسيادة الغربية السياسية والاقتصادية

من جهة أخرى. القومية الإسلامية شعور وطني وليست عصبية بين الشعوب، ونكاد نجد دليلاً فيما عدا تركيا وفارس على أنها ستواصل السير في طريق القومية الغربية المملوكة ولا نستطيع القول - حتى الآن - إن الشعور القومي ظاهرة راسخة سائدة في أي بلد إسلامي، هو يحمل معه أمتعة دخيلة، وكان الشعور الإسلامي ينزع على الدوام إلى هدم الفوارق الجنسية حتى يصعب التصديق أن هذه الفوارق ستسهل الآن إقامتها من جديد.

ولكن هناك شرذمة من المفكرين في بعض البلاد استهواهم التعصب الجنسي، وهذا أيضاً أقوى ما يكون في تركيا حيث نجد أن فكرة الجامعة التركية التي قبل الحرب قويت أثناء الحرب وكانت سبباً في كثير من الحركات التالية في الحكومة الجمهورية، وبلاد المغرب - كما أبان الأستاذ ماسينيون - زعماءها الذين يريدون سيادة الجنس البربري، وليست حركة الجامعة العربية في غرب آسيا بريئة من مثل هذه العناصر برادة نامة، وكان من النتائج العجيبة لتأثير مدنية الغرب أنها غدت هذه النزعات بما بثت من مدنيات قديمة كانت مزدهرة من قبل في البلاد التي احتلتها شعوب الإسلام، وإن طيف الحضارة الحيثية يبعث اقتنا ناكوبيا في بعض الزعماء الأتراك، وشجع كشف مقبرة «توت عنخ أمون» بعض الدوائر الأدبية في مصر على إحياء الحضارة الفرعونية، وهي حركة لم تمت بعد، وحدثت مثل هذه النتائج أيضاً في أندونيسيا بسبب العثور على الحضارة الهندوكية - الجاوية، وربما تحدث الحضارة السومرية والبابلية تأثيراً كهذا في العراق كما فعل ذلك - لا ريب - العثور على الحضارات الفارسية القديمة في فارس غير أنه لا يمحتمل - على الأقل - أن يكون لهذه «الطيف» في معظم شعوب العالم الإسلامي أثر يقارن بالأثر الذي أحدثه إحياء التراث الأغريقي في اليونان أوائل القرن الماضي، وأكبر قيمة لها فيما يبدو لنا - حتى الآن - أنها ستكون وسيلة لتقوية شعور المسلمين ضد أوروبا رغم أنها ربما تكون

في المستقبل عنصرا مغذيا للحياة القومية ،

الآن وقد رأينا إلى أى حد تغلغلت عوامل التثقيف الأوروبية في العالم الإسلامي وأوجدت روحا جديدا ونزعة فكرية جديدة بين بعض شعوبه ، أن لنا أن ننظر في الناحية الثانية من المسألة . ما أثر هذا في الإسلام ؟ وكيف تغير مسلك المسلمين إزاء ثقافتهم الدينية الموروثة ؟ وإلى أى حد لا يزالون يقدرون الإسلام عنصرا في حياتهم القومية وينمي بينهم من صلات ؟ وما مبلغ استعداد الفكر الإسلامي لمواجهة الظروف الجديدة ؟ سبقت إجابة جزئية عن بعض هذه الأسئلة ولكننا سنتناولها بالبحث هنا مرة أخرى في مجموعها ولو كان في ذلك شيء من التكرار .

في مقدمة بحثنا في الاستغراب قررنا بشكل عام أن العالم الإسلامي يرغب في ذلك ، ويجب أن نقرر في مطلع هذا الجزء من بحثنا حكما عاما آخر أكثر إطلاقا وليس أقل خطرا : لا يزال المسلمون متمسكين بدينهم متمسكا شديداً ومقتنعين اقتناعا تاما بأنه خير الأديان ، أما كرون أفراد مبعثرين من المسلمين ولا سيما بين الطبقات العليا فترى العزيمة في دينهم ومهملين لا وأمره بل معلمين . أنهم ملحدون فهم مسألة قليلة الشأن مثل مسألة أن بين الذين يسمون أنفسهم مسلمين جماعة لا يزيد دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة . إن قوى الإسلام الحيوية من حيث هو عقيدة وقاعدة للحياة ونظام خلقى لا تزال بنجوة من الفساد، ومضت الساعة الحرجة التي كانت تهدد الإسلام في آخر القرن الماضي ، وأكبر الفضل يرجع للشيخ محمد عبده وتلاميذه ، وكان من أثر جهوده التي فرغ لها حياته — مثل سر سيد أحمد خان — أن أزال العوائق التي كانت تشل حركة الإسلام وتجذب القهقري وأن أطلق الهمم الفتية من عمالها لتعمل على التوفيق بين الإسلام وأنظمتها وبين الحياة الجديدة في بلاد الإسلام ، على أن الإسلام لم يعد شيئا يؤخذ من غير تمحيص ولكنه في

هذا العصر وما يلابسه من ضيق ومن انحلال في النظام الاجتماعي القديم صار شيئاً لا بد أن يجاهد من أجله ، وفي هذا باعث قوى للناس على أن يزيد تقديرهم لقيمتهم ، لقد كان الإسلام على الدوام ديناً يملأ شعور معتقيه وهم اليوم أكثر شعوراً به منهم في أى عهد سابق .

ورغم تصدع الوحدة القديمة للمجتمع الإسلامى تحت ضغط القوى والأفكار الجديدة من الغرب ، ورغم فقدان الإسلام حقوقه التشريعية في ميدان السياسة ، فلا يزال المثل الأعلى على القديم للوحدة الإسلامية حافظاً سلطانه على عقول شعوب الإسلام ، وعلى بمد هذا المثل الأعلى من الوهن قوى على الدوام . وازدادا تمكنا في شعور الناس أثناء القرن الماضى ، وقيام الناس في وجه التدخل الأوروبى والضغط الاقتصادى من جهة ، والدعاية الشيطة للجامعة الإسلامية من جهة أخرى تلك الدعاية التى أقامت بها تركيا بين ١٨٧٨ و ١٩١٠ وانتشار ثمرات الأقلام من مصر ومراكز أخرى كل هذه عملت على جعل الرابطة المشتركة بين المسلمين أشد قوة ، على حين أن رقى وسائل المواصلات المتتعة فى أوروبا عمل على جعل تلك الرابطة حقيقة واقعة أكثر من ذي قبل . ووجود هذه الرابطة - كما هو الأمر فى معظم الأنظمة الإسلامية - جدير أن يفوت نظر الباحثين الذين يحكمون على قوة الحركات بتنظيمها الظاهرى ، ولن يستطيع إدراك جوهر تلك القوى التى تفعل فعلها من وراء ستار إلا من يعلم أن هذا الجوهر رهين إرادة تعتق مثلاً أعلى لارهاين المظاهر ، وحسبنا أن نجد فيما كان من أمر الخلافة العثمانية دليلاً قوياً على هذا ، فإن الباحثين الأوروبيين ناقشوا يعدونها العروة الوثقى فى الوحدة الإسلامية ويعدون هدم الجمهورية التركية لهاضرة فاضية ، والحق أن الخلافة العثمانية ما كانت تعدو رمزاً للوحدة ناقصاً جداً ، ولم تنل اعتراف المسلمين حتى من هذه الناحية ، ولنتظر مثلاً إلى اخفاقها الذريع حين حاولت إعلان الجهاد فى ١٩١٤ .

ولا تنكر أن إلغائها أحدث فزعاً بين المحافظين من أهل السنة، غير أنه لم يوهن
ثابتة من قوة الوحدة التي كانت الخلافة رمزاً لها بين الشعوب الإسلامية؛ بل
هو على العكس أزال سبباً قد يبعث على الشقاق ويفضي إلى الانقسام ولا
سيما أن الخلافة التركية كانت تمثل فكرة الوحدة في صورة «أوتوقراطية» من بقايا
العهد القديم أصبحت لا تتلاءم مع المثل العليا الجديدة للشعوب الإسلامية،
ولم يكن شيء أكثر وقوعاً في الوقت المناسب تماماً من أن يحتفى بهذا الشبح
الذي يمثل النظام القديم ويفسح المجال لأفكار جديدة تتلاءم مع الموقف
الجديد في العالم الإسلامي (١).

أما الوحدة الاجتماعية في شعوب الإسلام فيمكن أن نعدها - كما رأينا -
شئنا من مخلفات الماضي يعيش في عصر غير عصره، ولكن هل من المؤكد
تماماً أن المثل الأعلى القديم للوحدة صفر من كل ما ينال إعجاب الأجيال
الحديثة التي تلقت العلم على الأسلوب الأوروبي وبعث فيهم حماس الحافظوا
عليه؟ لا ريب أن مصالحهم - إن لم يكن ميولهم الشخصية - ستؤكد لهم أن في
بقاء تلك الوحدة مزايا يعتدون بها في دفاعهم وينفعون بها في بنائهم مدنياتهم،
وإن المسلمين وهم يقفون وجهاً لوجه أمام ما يروعهم من قوة لاوروبا ما تزال
هائلة - وإن مزقها الشقاق أحزاباً متناحرة - إنهم يشعرون بضعفهم وهم آحاد
لأن الشعوب المنفرقة التي تكون العالم الإسلامي ضعيفة عدداً، بل إن أقواها
وهم مسلمو الهند الذين يبلغون سبعين مليوناً هم في الحقيقة من أضعف تلك
الشعوب لما يواجهونه في بلادهم من قوة هائلة مصدرها القومية الهندوكية،

(١) إن وحدة الرئاسة في الإسلام - وهو جوهر الخلافة - نظام في الحكم له
مزايا عظيمة، ولا سيما أن نظام الخلافة جامع لمحاسن الحكم الجمهوري لقيامه على
الانتخاب والحكم الملكي لما فيه من ثبات واستقرار - فلا يبقى في رأى إلا إحياء
منصب الخلافة الذي هو روح الإسلام ومظهره بما يلتم مع حالة العالم الإسلامي
الحاضرة وظروفه الجديدة.

وخطر التفرق ظاهر لهذه الشعوب جميعا وهو ليس خطراً بالمعنى الحرفي،
فحسب ولكنه خطر يهدد منابع الحياة الثقافية للمسلمين، وقد ألمعنا فيما سبق
إلى أن شعور المسلمين بالوحدة سلاح يدافعون به عن أنفسهم ولن يبنذوه
مستخفين به لأنه يسبغ القوة المعنوية على الوحدات المنفرقة. زد على
ذلك أن نجاح مسلمي الهند في تنظيم الشعور العام دفاعا عن تركيا أراهم الفائدة
العملية التي تجني من تعبئة جهود تتجلى فيها روح العطف، ونحن وإن كنا نسلم
أن هذا السلاح الجديد ما يزال في أول أطواره (وهذا بما يعلل مافعله الزعماء
الأتراك بعض التعليل إذ انصرفوا الانصراف كله عن حلفائهم المسلمين وقبلوا
معوثة روسيا السوفيتية بدلا منهم) فسنرى أن السعي لتقويته من أهم الحركات
في العالم الإسلامي اليوم.

ويقترن بهذا السعي ازدياد في إدراك المسلمين مظهراً آخر من مظاهر الوحدة
الإسلامية، ففي حين أن الحركات القومية التي تتبعنا تطورها ثمرة لمعرفة المسلمين
مبدأ سيادة الدولة كما يفهمه الأوروبيون نجد شعوب الإسلام لم تخط حتى
الآن إلا الخطوة الأولى في سبيل إيجاد القوميات المنفصلة. لم ينشأ المسلمون
كما نشأنا - بين أحضان النظم القومية، وعقولهم لا تزال بنجوة من سلطانها فهم
لذلك يستطيعون أن يحكموا عليها حكماً لا محاباة فيه وأن يصوغوا مثلهم العليا
ويسيروا في سياستهم بما يتلاءم مع ذلك. على أن ازديادهم خبرة بأوروبا
ومعرفة بتاريخها آتاهم معرفة تامة بما يكون للقومية الغربية من نتائج مهلكة
حينما تسرف حتى تضع مصلحة الفرد فوق مصلحة المجموع، ونرى في نواحي
مختلفة من المجتمع الإسلامي سخطاً من نظام يضع - على حد تعبير الأستاذ
برج - المصلحة الخاصة فوق المصلحة العامة، وإن ثورة المسلمين على مبادئ
الحضارة الأوروبية التي تعارض قواعد الأخلاق ستدفع المثقفين منهم
حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصروا
خاصة على مبدأ الأخاء الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام.

وعلى هذا فالنزعة إلى تأكيد الرابطة الاجتماعية بين شعوب الإسلام تأكيداً مكرراً نزعة آخذة في القوة - كما يبدو للعيان - على أسس أخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسي للطبقة الوسطى التي أثرت فيها على الدوام تعاليم الإسلام الخلقية تأثيراً أقوى مما كان لها في الارستوقراطية الحربية القديمة ، وكلما زادت روح الديمقراطية في القوميات المقبلة زاد سلطان مبادئ الإسلام على العلاقات السياسية . وأخيراً فربما يكون من أثر الفكر الغربي أن يسوق الناس هنا أيضاً إلى السير في هذا الاتجاه نفسه ، فالنزعات الجديدة في أوروبا ترمى - بمحاربتها للقومية المسرفة التي تقوم على الكفاح والتي اشتدت في عشر السنين الأخيرة - إلى اتحاد الدول لتكون جماعة كبرى وإلى نبذ مبادئ القومية المتطرفة ، وهذه النزعات لن تحقق في أن تحدث في الفكر الإسلامي تأثيراً مماثلاً لما أحدثته في الفكر الأوروبي ، وستفلق في شد أزرا للمجاهدين في توثيق أو إصرار الوحدة الإسلامية ، ويساعد هؤلاء المجاهدين عامل آخر وهو أنه ليس بين شعوب الإسلام منافسة اقتصادية كذلك التي أرهفت من حد الخصومات القومية في أوروبا ، وليس أمامنا ما يرجح أن منافسة كهذه ستنشأ في المستقبل القريب وتفسد ما بين شعوب الإسلام من علاقات .

غير أن عاملاً واحداً ربما يدخل فيعوق تحقيق الوحدة الإسلامية تحقيقاً كاملاً ، هو تفاوت التماسك في البلاد الإسلامية . رأينا أن في الأماكن أن نميز تمييزاً دقيقاً تلك البلاد التي بدأت في إصلاح حكوماتها على الأسلوب الأوروبي من تلك التي لا تزال مغلقة في الجوهر للأنظمة الموروثة ، بل نجد في الطائفة الأولى فوارق كبيرة في مبالغ الأخذ بأنظمة الغرب . وربما تستمر هذه الفوارق غير أنها ليست عقبة كأداء في سبيل الوحدة ، لأن الأساس الذي تشترك فيه البلاد الإسلامية سيبقى وسيبقى نقطة يلتقي عندها الجميع ، هذا الأساس سيكون الأفكار الأوروبية على غرار واحد تقريباً حتى في أكثر البلاد

الإسلامية تقدماً وأكثرها تأخراً ، وبذلك سيميز الجماعة الإسلامية عن
الاوروبية أو الهندوكية أو جماعة الشرق الأقصى . ربما تظل الفوارق
في اتخاذ نظم الغرب مسائل فرعية في الجملة وهذه المشكلة ناحية دينية سنسهب
في الكلام عنها بعد قليل .

والآن نعود إلى الموضوع الذي نحن بصدده فنقول إن عاطفة الوحدة قد
بقيت ولم تقتصر على هذا بل هي تدل دلالة محسوسة على وجودها بطريقة
مطرده رائعة ، فلا تمر حادثة تمس حياة العالم الإسلامي من غير تعليق حماسي
جاذب في صحافة تذيع في نصف آسيا وأفريقية ، وعندما تأخذ هذه الحوادث
شكلاً خطيراً سواء في مراکش أو ليبيا أو فلسطين أو الهند أو اندونيسيا تأتي
قرارات الاحتجاج من كل فج وكلها متشابهة في اللهجة بل في العبارة ، وليس
عندنا بعيداً بالجزء الأكبر من العالم الإسلامي حينما كان يخيل لمن يراه أنه
في سبات عميق حتى حسبه البعض قد فقد الحياة ، فأما اليوم فإن حادثة صغيرة
مثل قتل (الشهيد) عمر المختار تهز ما بين مراکش وجاوة كأنها صدمة كهربائية
وتولد تياراً من السخط الملتب . حقا إن ذلك الشعور المتولد يخمد سريعا
ولكن تراكم أثر تلك الصدمات (التي أشار الاستاذ كامبهاير إلى أحدثها)
سيجعل رد الفعل أكثر قوة وسيزيد العالم الإسلامي شعوراً بوجوده .

هذا ولم تفقد كل الأنظمة القديمة التي غذت الوحدة قوتها في العصر الحديث
ورغم فقدان الشريعة ما كان لها من استئثار بالتشريع ، ورغم أن الثقافات المحلية
بدأت ترحز الثقافة المشتركة ، ورغم أن الفوارق في العادات الاجتماعية
أصبحت أكثر ظهوراً وأن التعليم الديني القديم أصبح قاصراً على طائفة متضائلة
من الشعب فلا تزال المظاهر الدينية والعبادات باقية . أما الذي يزعم أن
القرآن قد قل حظه من الدراسة الآن أو أن نظمه الذي يظل صدها يتردد في
النفوس قد فقد غلبته على عقول الرجال فلن نجد ما يؤيد زعمه الكاذب ،

ولا تزال العبادات الإسلامية منبعاً للرضا والاطمئنان حتى عند من يهملون في أدائها، وقد قوطعت الطرق الصوفية في تركيا كإقل تأثيرها في مصر وآسيا الغربية ولكن الباحثين الثقات يؤكدون أن نجمها فيما عدا هذه البلاد آخذ في الصعود. ومن أكبر مميزات الإسلام الحديث شعور الولاء لذات محمد (عليه الصلاة والسلام) والحماسة التي يبعثها بين كل الطبقات. قال حديثنا واحد من أعظم المعبرين عن الفكر الغربي في مصر مشيراً إلى بعض المؤلفات الأوروبية عن تاريخ الجماعة الإسلامية الأولى: يقولون إنني ملحد، ولكنني حين أقرأ ما يكتبه لا... عن محمد أمثلي غيظاً حتى لا أشعر أنني أقوى إسلاماً ممن ينتقدونني، والمظنون أن الكتاب الذين ينكرون قوة الإسلام الحيوية في تركيا لو اختبروا الناس على هذا النحو لوجدوا ما يدعوههم إلى تغيير آرائهم، أما في الدائرة الدينية المنظمة فلا يظهر نقص في تموين الأوقاف التي يذهب دخلها إلى الجمعيات الخيرية والمستشفيات والمكتبات ودور الأيتام والمؤسسات الأخرى التي تؤدي خدمة دينية واجتماعية. ولكن أعظم فروض الإسلام تأثيراً في تغذية روح الوحدة الإسلامية هو الحج، ولا يمكن لمسلم أخذت روحه حظاً في تعظيم عبادة يشارك فيها عشرات الألوف من أخوانه المؤمنين من كل جنس وطائفة (ففي مكة تهادأ أشد العداوات الطائفية حدة وإن بدا تعصب أحياناً) أن ينسى تلك اللذة العليا التي ذاقها وما تميظ عنه اللثام من قوة باطنة لدينه ومن انتشاره العظيم في الآفاق، وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة العامة التي ترفع على القوميات الصغيرة ويصير مركزاً تشع منه حماسة دينية لمثل الإسلام العليا التي تسمو على القومية. لا تنكر أن حوادث عشرات السنين الأخيرة انقصت عدد الحجاج في السنوات الأخيرة، ولكن من التسرع استنباط أن هذا النقص المؤقت دليل على نزعة دائمة.

ولكن الحماسة الدينية وحدها لا تستطيع - مهما اشتدت - صيانة الوحدة فضلاً

عن أن تعيد بناء وحدة حطامتها عوامل هدامة قوية ، ويشعر زعماء الإسلام بهذا أيضا ، وقد بدءوا يلتمسون الأسباب لتقوية روح الوحدة قبل أن يدركها الموت ، بأن أوجدوا أنظمة جديدة تستثمر أنظمة المجتمع الإسلامي الموروثة وتقويها ، وأشرنا في المقدمة إلى أن من أكبر مطالب النظام القديم أنه أفنى القدرة على العمل المنظم شيئا فشيئا في كل ناحية ماعدا الناحية الحربية ، ولكن أشرنا إلى أن التعليم على الأسلوب الأوروبي كان من أثره تقوية الباعث على تكوين هيئات منظمة تسعى وراء غايات معينة ، وبالطبع كان أبرز هذه الجمعيات ما أنشئ لأغراض سياسية ولم يمض زمن طويل حتى أخذ المهتمون بالشؤون الدينية يدركون المزايا التي تجني من العمل المنظم ولكن نظراً لأن الإسلام كما يفهمه أهل السنة ليس فيه هيئة كهنوتية فإن الطبقة التي تقابل رجال الكنيسة في المسيحية لم تنظم في شكل رياسة دينية ولا يلوح من المحتمل أنها ستعير هيئة كهنوتية في المستقبل ، غير أن كبار علماء الدين أظهروا في عقود السنين الأخيرة في بلاد شتى ميلاً إلى تكوين جمعيات تنافح عن ميراث الإسلام وإلى إنشاء معاهد دينية بل إلى مضاعفة الجهود في تبليغ دعوة الإسلام لمن لا يدينون به ولمن لا يعرفون من أصوله إلا الاسم ، وكان مسلموا الهند هم الطلائع في هذا الميدان وفي الهند الآن ندوة العلماء ، وجمعية علماء الحديث ، وجمعيات أخرى كثيرة ذكرها الكولونل دفرار ، وحركة الأحمدية التي ذكرت مراراً في الفصول السابقة هي في جل أمرها حركة من هذا الطراز نفسه وأصبحت بنيتها تدريجياً لمزايعها الأولى وما فيها من زيغ وحزبية جمعية دعاية إسلامية في جوهرها - وإن كان علماء أهل السنة مايزالون يرمقونها بعين الريبة ، واليهما يرجع الفضل في إتمام أسلوب من الجدل يدافعون به عن الإسلام وهو ، وإن لم يتمكن بعد من اتقان فن الجدل الغربي جدير بالاعتبار ولا سيما في الترق وفي افريقية .

وأنه لطبعي جداً أن تكون هذه الجمعيات الدينية أنشط في الهندو أندونيسيا

منها في البلاد الإسلامية الوسطى ، ذلك أن العنصر غير الإسلامي في هذه البلاد قليل العدد، أما هناك فالإسلام يواجه حركة تبشير تقوم بها الجمعيات الهندوكية والمسيحية . والجمعيات الإسلامية تواصل في الواقع - وفي ظروف جديدة وفي صورة جديدة - سياسية تبليغ الإسلام الأولى حيال المجتمعات الشرقية القديمة ، وإنه ليدل على نشاطها في هذه الناحية أنها نجحت سريعا في تكيف نشاطها بما يلائم الظروف الجديدة، أما في إفريقيا فتكاد لا توجد علامات على مثل هذه الجمعيات فطبقات التجار التي كان عليها أكبر العبء في الاضطلاع بادخال الناس في الإسلام قل شأنها وهيتها حتى لنجد الإسلام في بلاد كثيرة وافقا لأوامرهم قرا ، ويعول في تقدمه على الجماعات الصوفية القديمة أو على جمعيات تبليغ الإسلام الآتية من الهند والتي كونت جماعة إسلامية قوية في جنوب إفريقيا . ولم تحل حتى اليوم مشكلة تحويل النشاط الحربي القديم في الدعوة إلى الإسلام عند أقوام كالغولا إلى جمعيات تبليغ دعوة الإسلام بطريقة سلمية ويظهر أن مستقبل الإسلام بين زنوج إفريقيا يتوقف على حل هذه المشكلة .

وأعظم من ذلك خطراً ولا سيما في البلاد الوسطى - الجمعيات الإسلامية الأحدث عهدا والتي يسود فيها العنصر العلماني لأنها تؤثر في دائرة أوسع كثيرا ، وتعنى بالتعاليم الخلقية للإسلام أكثر مما تعنى بالفقهية وتحليل الاستاذ كامبفابر لجمعية الشبان المسلمين تحليلا كاملا يجعل تلخيصنا لوسائلها وغاياتها تكراراً لا طائل فيه لأن الجمعيات الأخرى كجمعية الهداية الإسلامية في البلاد الناطقة بالضاد والجمعيات الأندونيسية التي وصفها الاستاذ برج تنهج طريقا عظيم الشبه بطريق جمعية الشبان المسلمين ، وإن غاية هذه الجمعيات يشيرون الجامعة الإسلامية والصيغة الدولية لكثير منها وما تحافظ عليه فيما بينها من علاقات كل ذلك يدل على أنها لابد أن تلعب دورا حاسما في تقوية عاطفة الوحدة الإسلامية بل ربما لعبت دورا في تمهيد السبيل إلى اتحاد الشعوب .

الإسلامية اتحاداً أكثر نظاماً في المستقبل .

واتخذت بالفعل الخطوة الأولى في هذا السبيل ، ففي طول ثلاثة عشر قرناً ونصف من تاريخ الإسلام يصعب أن نشير حتى سنوات قليلة إلى حالة واحدة اجتمع فيها ممثلون من جميع أوصاف العالم الإسلامي ليتشاوروا في مشاكل تعنيهم جميعاً وليقرروا اتباع طريق واحد في العمل ، ولكن منذ ١٩٠٠ (١) نرى فكرة عقد المؤتمرات الإسلامية تشق طريقها إلى الأمام شيئاً فشيئاً . ومنذ ١٩٢٦ عقدت بالفعل ثلاثة مؤتمرات اثنان في مكة والقاهرة في تلك السنة والثالث في ديسمبر ١٩٣١ في القدس ، وكانت أغراض ونتائج كل من هذه المؤتمرات متباينة تبايناً عظيماً . ولم يكن التباين في تكوين كل منها أقل شأنًا فؤتمر الخلافة في القاهرة - وقد وصف الاستاذ كامبهاير أهم ما فيه - اجتمع على غرض نظري بعض الشيء هو تقرير مستقبل الخلافة . أما هيئته فكانت فيها أغلبية ساحقة من رجال الدين وكانت نتائجه سلبية (كما كان ينتظر) أما اللجان الدائمة التي وضع نظامها مقدماً فالظاهر أنها لم تبرز إلى عالم الوجود . كان في الأمر حظ من الجدل قليل جداً وكانت وسائل البحث من الطراز العتيق الذي لا يتلاءم مع حاضر العالم الإسلامي . أما المؤتمر الثاني في مكة فكان له غرض ملموس أكثر تحديداً هو تقرير مكانة الحجاز وحرمةها . ونظراً لأنه في الفترة التي بين المؤتمراتين نودي بالسلطان (الآن الملك) عبد العزيز بن سعود ملكاً على الحجاز وجدت الوفود نفسها أمام أمر واقع وانقلبت أعمال المؤتمر مبارزة دبلوماسية ، بين ممثلي نجد والحجاز الذين كانوا يبغون أن ينالوا معاضدة مالية وأدوية لموادهم وبين سائر الممثلين الذين سلكوا مسلكاً فيه شيء من النقد - إن لم نقل التذمر - من أحوال بلاد الحجاز الدينية والإدارية ولاسيما الصحية . وعشنا حاول الملك أن يتدخل ، أرسل للأعضاء

(١) الاجتماع الذي عقد بمكة في ١٨٩٨ وراماً أبواب مغلقة لا يمكن أن نسميه مؤتمراً .

رسالة تشف عن تقرير خفي ويتلخص مضمونها في هذه العبارة : «أما تركنا :
نسبر وحدنا والوقوف منا موقف الناقد العاذل فذلك لا يليق بالأخوة الإسلامية
التي تربطنا جميعاً» (٢) ورفض الممثلون الأجانب أن يسمحوا حتى بمناقشة الرسالة .
وإخفاق ابن سعود في بلوغ غرضه يتضح من أن المؤتمر الذي كان لابد أن يجتمع
سنوياً في مكة أثناء الحج طبقاً للمادة الثالثة من قانونه ظل معطلاً حتى كتابة هذه السطور .
غير أننا نخطئ إذ نستنبط أن مؤتمر مكة قد فشل ، فهيشه كانت تمثل العالم
الإسلامي أكثر مما كان يمثل مؤتمر القاهرة (زيادة على نجد والحجاز فان تركيا
والإفغان والسودان والروسيا مثلت في مكة ولم تكن في القاهرة ومن جهة
أخرى فان العراق وبولنده والمغرب وجنوب أفريقيا مثلت في القاهرة ولم
تكن في مكة) ولم يكن ذلك قاصراً على الناحية الجغرافية ولكن كان فيه طائفة
طائفة كبيرة من الأعضاء العلمانيين وإن كان رجال الدين هم الأغلبية . وفي
معظم المسائل التي تناولها البحث أمكن التوفيق بين وجهات نظر مختلفة لتصير
قواعد عملية يسير عليها الجميع . وإذا كانت عوائق أخرى حالت دون العمل
فليس من اليسير إجماع الأعضاء على وجهة نظر واحدة وتعبير الرأي الإسلامي
عن نفسه وحصوله على نوع من المصادقة والتقرير في مؤتمر يمثل شعوبه . أما
عن الغرضين الأول والثاني اللذين أعلناني القانون الأساسي - وهما هيئة الفرص
للاتصال بين الشعوب الإسلامية وفحص وتحسين أحوالها الدينية والخلقية -
والاجتماعية والاقتصادية فيمكن القول بأنهم خطوا الخطوة الأولى على الأفل
لأنهم سيكتثرون من اتباع نظام المؤتمرات بعد أن عملوا به أول مرة .
على أن سؤالاً يتبادر إلى ذهن القارئ الأوروبي عن هذه المؤتمرات
وعن تمثيلها . من ذا الذي تخوله مكاته أن يستدعي مثل ذلك المؤتمر ؟ ومن ذا

(٢) خلاصة ماجرى في مؤتمر مكة موجودة في «صحيفة موجزة بأعمال مؤتمر
العالم الإسلامي الأول» طبعها محمد علي حسن صاحب جريدة ومطبعة الشرق بإسكندرية . -

الذى يعين الوفود؟ ومن يمثلون؟ يظهر أن هذه المؤتمرات - كما يبدو لنا - تعوزها الطريقة المنظمة . يأتى الممثلون ليمثلوا بلاداً هم عنها مبعدون سياسيون . وعلى أى حال فتليل منهم من يحمل اتداباً رسمياً ، وليس من السهل أن تكون الأجابة واضحة لدى من لم يدرك خصائص الأنظمة الإسلامية وما فى طبيعتها من مرونة ومن أنها تستند إلى الإرادة ، وبالاختصار فإن رأى العام أساس هذا النظام كله ، فليس لكل إنسان أن يستدعى مؤتمراً ، إنما يفعل ذلك من يعترف بالرأى العام (كما يقوده زعماءه ومنشثوه) بأنهم يتجرون مكاناً من الزعامة الطبيعية مثلهم مثل الوفود والأعضاء ، كل منهم له مقام معلوم ومقدار من النفوذ معلوم ومكانة سياسية معلومة ، وفى حين أن هناك أعضاء لا يمثلون إلا أنفسهم فقد يكون هناك ممثلون « غير رسميين » - وقد يكونون منفيين - يمثلون أحياناً الرأى العام افريق على الأقل من أبناء وطنهم تمثيلاً أصدق من الممثلين الرسميين الذين تغل أيديهم وألسنتهم القيود التى تفرضها الاعتبارات السياسية ، تجلى هذا فى مؤتمر مكة خاصة حينما انسحب الممثلون الأتراك وغيرهم كثيراً ليتجنبوا إحراج حكوماتهم ، على أن حكومات البلاد الإسلامية ليست جميعاً مؤيدة لفكرة المؤتمرات ، ومن الأسباب التى عملت من غير شك على إحباط مؤتمرات مكة اشتراط أن كل مملكة يجب أن تدفع سنوياً اكتباً قدره ثلثائة جنيه عن كل ممثل نظير امتياز التمثيل ، وأبى شرط كهذا - وهو ينزع لأن يجعل المؤتمر شبه عصبة أمم إسلامية - سابق لاؤه بأنه بكثير . إن وظيفة المؤتمرات فى الظروف الحاضرة هى توحيد الرأى العام الإسلامى ولهذا الغرض فالشرط الجوهري هو أن زعماء الرأى العام فى كل بلاد يجب أن يسمح لهم بحضور المؤتمر والتعبير عن آرائهم من غير قيود رسمية ، ثم ليحاولوا قيادة الرأى العام فى بلادهم فى الطريق الذى اتفقت عليه كلمة المؤتمر .

من هذه الوجوه امتاز مؤتمر القدس فى ١٩٣١ على سابقه بتقديم واضح

وجهت الدعوة أول الأمر - وجهها هذه المرة مفتى القدس الذي تقدم بهذا وملاً المكان الذي أخلاه الملك ابن سعود - لا إلى حكومات البلاد الإسلامية المختلفة فحسب - كما جرت العادة - ولكن إلى الجمعيات الإسلامية كذلك وقد امتنعت كل الحكومات أن ترسل ممثلين أول الأمر وذلك فيما يظهر بسبب إشاعة مبتسرة مغزاها أن في نية المؤتمر إثارة مسألة الخلافة ، وقد كذبت الاشاعة تكذيباً فاطعاً . ومن بين أمراء الإسلام المتربعين في الحكم نجد الأمام الشيعي في اليمن هو الأمير الوحيد الذي أوفد إلى المؤتمر مندوباً رسمياً - وإن كانت الحكومة المصرية قد رضيت أن ترسل ممثلاً شبه رسمي ، وأهم ظاهرة في هذا المؤتمر من جهة أخرى حضور ممثلين مفوضين من كل الجمعيات المنظمة تقريباً في مصر وآسيا الغربية بما في ذلك حزب الوفد المصري وجمعية الشبان المسلمين في مصر وفروع أخرى منها وجمعية الهداية الإسلامية في فلسطين وسوريا والعراق وكذلك «جمعية الخلافة» بالهند وهي التي عملت مادياً على انعقاد المؤتمر . وكان من أثر ذلك أن ازداد بروز العنصر العلواني في المؤتمر حتى صار أكمل تمثيلاً للرأى الإسلامى الحديث ، وحضر المؤتمر ممثلون «غير رسميين» من المغرب وروسيا وجاوه بل من كشغر إلى عدد كبير من البلاد الأخرى التي سبقت ذكرها ، وأثناء انعقاد المؤتمر أيده ملك العراق وأمير شرق الأردن والملك ابن سعود - بعد أن هدأت مخاوفهم - برسائل بعثوا بها حتى لقد أوفد الأخير ممثلاً رسمياً ولكنه وصل متأخراً فلم يدرك المؤتمر .

ومن أروع الظواهر التي تجلت في المؤتمر اشتراك الشيعيين فيه بدرجة كبيرة ، فزيادة على الوفد اليمنى أرسل علماء الشيعة في العراق ممثلاً مفوضاً ، وحضر ممثلان شيعيان من فارس ، وبعث مفتى الشيعة بسور رسالة أعرب فيها عن عطفه على المؤتمر (كما فعلت ذلك جمعية الطلبة المراكشيين في باريس) أما الطائفة الشيعية الوحيدة ذات الشأن التي لم تمثل في المؤتمر فهي الجماعة الشيعية

في الهند ، ورغم أن ممثلي اليمن كانوا حاضرين في مكة أيضا فيمكن القول إن الشيعة صرحوا في مؤتمر القدس لأول مرة عن تضامنهم مع العالم الإسلامي. السنن (وحتى لهذا وحده سيكون المؤتمر جديراً بالذكر) ذلك أنه لم يجتمع أهل السنة والشيعة قط في التاريخ الإسلامي للبحث في معضلات مشتركة ، وفي حين أن هذا الأمر يمكن أن يتخذ دليلاً على ضعف الفوارق الدينية في الحياة السياسية من جهة فهو ليس أقل دلالة من جهة أخرى على ازدياد المسلمين إدراكاً لمصالحهم المشتركة في العصر الحديث .

وزيادة على الغرض الذي كان يرمى إليه الجميع وهو الاحتفاظ بصلات دولية بين شعوب الإسلام نظر المؤتمر في عدة أغراض عملية يسعى لتحقيقها مباشرة أهمها حماية الحرم الشريف من اعتداءات كان يتوقع حدوثها ، وإنشاء جامعة إسلامية في القدس (ثم إنشاء جامعات أخرى في بلاد أخرى) وتنظيم الدعاية الإسلامية ، ويرمي المؤتمر من وراء هذا كله إلى الحصول على تأييد العالم الإسلامي لمسلمي فلسطين تأييداً مادياً وأدياً ضد الصهيونية ، ورغم حركة ظهرت في فلسطين ذاتها ضد منظمي المؤتمر مما كان عائقاً لنجاحه فهو لا ريب قد أصاب من النجاح حظاً عظيماً جداً ، ورسم للعمل خطاً واضحاً تتبع في المستقبل القريب . فقرر مثلاً أن يعقد المؤتمر كل سنتين - وإن لم يكن ذلك في القدس حتماً - وأنشئ مكتب مركزي لإدارة حركة الدعاية الإسلامية وأنشئت مكاتب فرعية في البلاد المختلفة تكتب تقارير كل ستة شهور إلى المكتب المركزي الذي يقوم بنشر تقارير سنوية (١) ورسم مشروع جمع الاكتتابات للجامعة الجديدة ، والدفاع عن الحرم الشريف ، وفي هذه الأثناء تنفذ الاجراءات الأولى الفنية لتأسيس الجامعة استعداداً لرفع تقرير عنها إلى المؤتمر الثاني ، وأقر الممثلون فيما أقروا إنشاء بنك زراعي عربي في فلسطين وإنشاء

(١) أنشئ المكتب الرئيسي ورئيسه فارسي شيعي من سلالة عربية .

يجمع على يضم العرب جميعا ويكون مركزه في مصر . بقى أن نرى مدى النتائج العملية لهذه القرارات والتأييد الذي ستلقاه من العالم الإسلامي عامة ونرى خاصة إن كان عقد مؤتمر إسلامي كل سنتين بلجان دائمة سيكون ممكنا تنفيذه في الظروف الحاضرة ، غير أنه ما دامت المقترحات الحالية معتدلة وعملية معاً وما دام تنفيذها موكولا إلى هيئات ثنائية منظمة لا إلى حكومة تضعها في سلة المهملات في إحدى الدواوين فيحتمل كل الاحتمال أن تكون لها نتائج عملية من نوع ما . وإذا كان الأمر كذلك استطعنا تأكيد أن حركة المؤتمرات ستزداد قوة على الدوام وأن عملها للاحتفاظ بوحدة الثقافة سيكون له أهمية حاسمة ،

رأى القارىء أن المؤتمرات وضعت أغراضاً ثقافية في المكان الأول وأنها تنكبت عن كل تدخل مباشر في الشؤون السياسية ، وقد منع الملك ابن سعود منعاً فعلياً بمثل مؤتمر مكة من الخوض في السياسة الدولية وما بين بعض الشعوب الإسلامية وبين حكوماتها من خلاف ، وزاد على ذلك أن هذا من المصالح الموضعية الخاصة بتلك الشعوب ، ومع ذلك لم يمكن تجنب المشاغل السياسية تجنباً تاماً ، وحتى في مؤتمر الخلافة في القاهرة أصدر قرار احتجاج على إطلاق القنابل على دمشق ، وفي مؤتمر مكة أدخل احتجاج ضد إلحاق العقبة ومعان بشرق الأردن تحت احتجاج من الممثلين المصريين والأتراك والأفغانين ، بل كان مؤتمر القدس أوثق صلة بالسياسة بما اتخذ من قرارات ضد الصهيونية وإن كانت قراراته بصدد سكة حديد الحجاز (التي نظر فيها أيضاً في مكة) لم تعد حدود المصالح الثقافية للمسلمين لأن تلك السكة وقف ديني إسلامي ، لا ينازع في ذلك أحد . وإن رغبة منظمي المؤتمر عن أن يجعلوا هذا برنامج سياسي أيا كان تجلت في أنهم حينما كان المؤتمر ينتهزون فرصة حضور كثير من الممثلين لا عادة تأكيد البرنامج السياسي الكامل للجامعة العربية في لهجة جادة غاية الجد أبوا أن يكون ذلك في المؤتمر العام بل تم في اجتماع خاص قائم بذاته

منفصل تماماً عن المؤتمر وقاصر على تمثلي البلاد العربية . وليس محتملاً على الأقل أن تظل المؤتمرات المقبلة - إذا عتمدت - بنجوة من التدخل في السياسة ، بل الأمر على العكس ، فالنواحي السياسية لكثير من المعضلات التي تواجهها شعوب الإسلام ستدخل بالضرورة شيئاً فشيئاً في المباحثات .

في نظرنا العاجلة إلى الآثار التي أحدثها الغرب في الشعوب الإسلامية وفي نظرنا إلى شعور الوحدة الإسلامية وكيف كان مسلكه حيال تلك المؤثرات وصلنا نقطة يمكن أن نقرر عندها الآن نتيجة نهائية: رغم تنافر ما يزال قائماً في بعض الدوائر بين الأفكار القديمة والأفكار الغربية الدخيلة فإن النزعة العامة كما يتضح تنهج منهج التوفيق بينها على أساس فكرة سامية هي تكوين أسرة من الأمم الإسلامية التي تكون مستقلة في تنظيمها في ظل حكومات أهلية ، ولكنها تكون جميعاً شاعرة بحظها من ميراث الثقافة الإسلامية التي تشترك فيه مع غيرها ، وتكون بفضل هذه الرابطة المشتركة في الشعور والمصلحة محتفظة بشبه اتحاد يجمعها ، اتحاد إسلامي شامل يسعى وراء الخير العام لاعتصبة أمم إسلامية تحاول فض النزاع بين أعضائها . .

وحتى إذا زعمنا أن العالم الإسلامي يمكنه أخيراً أن يجد في هذا النظام وسيلة يستثمر بها موارد القوة الهائلة التي تملكها شعوبه أحسن ما يكون الاستثمار فإن المؤتمرات وما شاكلها لن تؤدي ألبتة إلى بلوغ هذه الآمال ، ولا نستطيع القول إنها ستبلغ غايتها حتى بعد مدة طويلة من الزمن ، ولكن ينبغي ألا نبالغ في تقدير طول هذه المدة لأن هناك ظاهرة كثيراً ما يهملها الباحثون في حركات المجتمع الإسلامي مهما كان نوعها وهي أنها تنضج بسرعة مدعشة حتى أن وجودها - كما أشار الأستاذ ما سينيون - يندر أن يخطر على بال أحد قبل أن يندلع لهيها ويروع العالم ، والمسألة الكبرى هي مسألة الزعامة فحينما يجد الإسلام « صلاح الدين » الجديد ، رجالاً يجمع بين الحسنة السياسية العظيمة وبين

شعور برسائله الدينية يبلع أعماق نفسه فان ماعدا ذلك ينحل من تلقاء نفسه .
بقي أن نمس برفق بعض المشاكل الحاضرة التي نشأت عن تضافر هذه
التيارات الفكرية ، وأولى هذه المشاكل تتعلق بمكانة الرعايا غير المسلمين في
القوميات المقبلة إن كانت المبادئ الإسلامية ستظل أساسها ، هل سترى تكراراً
مكبراً لتبادل الرعايا الذي حدث بين تركيا واليونان وما كان فيه من عنف
وسخف ؟ لا ، اللهم إلا إذا تدخلت أوروبا بتعالات واهية كالتي ساعدت دعاة
القومية الأتراك على بلوغ غايتهم . أما في مصر وآسيا الغربية فمشكلة الأقليات
غير الإسلامية سهلة إلى حد ما فبعد أن نبذت الأفكار القديمة التي كانت تنظم
العلاقات السياسية بين المسلمين وغير المسلمين - وقد نبذت اليوم في كل مكان
عدا جزيرة العرب (هذه لا يكاد يوجد فيها غير المسلمين) - صارت العقيدة
الدينية مسألة شخصية لها اختصاص قضائي مستقل لا يؤثر على المكانة المدنية ،
وزالت نهائياً العقبات التي كانت قائمة في سبيل تكوين قوميات متجانسة ، ذلك
أنه ليست هناك شقة ثقافية بين المسلمين والشرقيين من المسيحيين واليهود كما
بين الأتراك وبين الأتراك أو بين مسلمي الهند والهندوك . ومن
الوجهة التاريخية يتصل الإسلام في ناحيته الاجتماعية اتصالاً وثيقاً باليهودية
والكنائس المسيحية الشرقية وقد ساهم كل من اليهود والمسيحيين الشرقيين في
العصور الوسطى بنصيب هام أضافه إلى الثقافة الإسلامية وقد اندمجوا في هذه
الثقافة أندماجاً تاماً كما أن تطوره الحديث سار مقارناً لتطور المجتمع الإسلامي
وتعرضوا كما تعرض هذا المجتمع لمؤثرات واحدة . وأكبر آية على هذا ، الدور
الذي قام به المسيحيون الشرقيون في تطور الأدب العربي الحديث .
وأفصح ازدياد الشعور القومي في البلاد الناطقة بالضاد فلاحاً كبيراً في
إيجاد علاقة منظمة بين المسلمين وغير المسلمين ، ففي كل جمعية سياسية
أو ثقافية في مصر من الوزارة إلى جمعيات الإحسان يتعاون المسلمون والأقباط

(ما عدا - تابعاً - الجمعيات التي خصصت لأغراض طائفية بحتة) ونرى هذه الظاهرة نفسها في الحياة العامة في فلسطين وشرق الأردن وفي الجزء الأكبر من سوريا وفي علاقات اليهود ومعظم مسيحي العراق مع السكان المسلمين والحكومة الإسلامية وفي علاقة المجوس في فارس مع أبناء وطنهم المسلمين ولسانتكر بمض الشواذ ، فالمارونيون في فلسطين والجاليات الأرمنية في سوريا طائفتان لا تندجان وقد لا تقبلان اندماجا ، كما أن المسيحيين السوريين في قلق على علاقاتهم مع أغلبية المسلمين في العراق . والموقف في سوريا والعراق معقد لوجود فوارق طائفية في الصفوف الإسلامية ، ولكن الفكرة الإجمالية التي تبقى بعد نظرة في الأسباب التي يمكن أن تحول دون الوحدة في آسيا الغربية هي أن الحركة الفكرية تسعى سعياً حثيثاً في التغلب عليها جميعاً ماعداً التي أخدمت بسبب وجود خصومات قوية لأسباب نصف جنسية ونصف اجتماعية بصرف النظر عن العقيدة الدينية . وربما كان السنيون الأكبر كراد حجر عثرة في سبيل تنظيم دولة قومية في العراق مثلهم مثل مهاجري اليهود في سبيل تكوين قومية سورية فلسطينية .

ومهما كان لابد من مواجهة هذه المصاعب أخيراً فلا ننكر أن النزعات السائدة تسير بقوة في سبيل الاحتفاظ بأساس إسلامي للقوميات الجديدة وقد أجابت الأقليات غير الإسلامية على تسامح المسلمين إزاءها بأن قبلت وأيدت مبدأ اعتراف الدولة بالإسلام ديناً رسمياً . ونجد الشعور القومي العربي في البلاد الناطقة بالضاد من آسيا الغربية قد استهواه من غير شك المثل الأعلى للوحدة العربية الإسلامية وما تنطوي عليه من إحياء لشعور الفخار القومي بما كان للحركة الإسلامية من ماض مجيد . وكانت الصحف المسيحية أكثر حماسة من الصحف الإسلامية في المناداة بفكرة الجامعة العربية ، وإن صحيفة إنجليزية أورثوذكسية هي التي افتتحت مقالاً رئيسياً عن مؤتمر القدس بهذه العبارة :

مرحبا بمن جاءوا ليضعوا بحكم الإسلام أساس لا عادة أيام عمر ، باني مجد الإسلام على أثر سيده محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، (١) وربما كان أهم من ذلك أن المؤتمر الأتريق الأورثوذكسى الذى تصادف أن كان منعقدا أيام انعقاد المؤتمر الإسلامى فى فلسطين أرسل وفدا يحمل تحياته لى المؤتمر الإسلامى .

ونستطىع أن نفهم لماذا كانت البواعث القومية فى تركيا وفارس على الاحتفاظ بالاسلام أساسا للدولة أقل شدة منها بين العرب ، ولكن يظهر أن فارس - على الأقل - تشعر بأن الثقافة الإسلامىة الثالثة أساس حياتها كأمة متحدة ، وحتى فى تركيا اللادينية الملحدة ، هل هناك أى قوة روحىة فى الأمة سوى قوة الإسلام ؟ وإذا كان حكام تركيا الحالىون قد أدالوا دولة الإسلام فانهم يبدون عناية مشبعة بالحماسة لحماية العناصر الإسلامىة فى حياتهم الاجتماعىة من أن تشوبها تعاليم دىنية أخرى ، ومادامت رأس الجمهورية التركية تحمل على الأقل الكلمة للإسلامىة ، غازى ، فالقول بأن تركيا لم تعد دولة إسلامىة تناقض بين - فىما يظهر - ومن جهة أخرى فان تطىيق فكرة القومية الإسلامىة فى حالات معقدة غاية التعقد كما فى الهند وأندونىسيا أمر لن يكشف عن مدى إمكانه إلا المستقبلى ، وربما يضطر الإسلام فى البلاد التى لم يفلح فىها فى التغلغل فى البناء الاجتماعى بثقافته ومثله العلىا الخاصة إلى الرضا باتتقاص مساحته كما أضطر فى شبه جزيرة البلقان من قبل تاركا المجال للمجتمعات الأخرى التى برهنت على أنها أقوى من تندمج فىه ، وهذا بما يفىد الإسلام أيضا إذ تظل له قوته على التماسك والاتحاد . وكانت وجهة النظر العلمانىة التى هى أساس فكرة القومىات أكبر عامل فى إحداث هذا التغير فى العلاءة بين الدين والدولة ، وعسى أن نجد فى أى مكان من آسيا الغربىة عدا جزيرة العرب أى مبادضة قوية للنظرىة القدىمة التى كانت

(١) لىس هذا نقلا عن الأصل ، بل تعرب الترجمة الانجلىزىة (المترجم)

حتى سنوات قليلة تتمثل في الخلافة العثمانية ، ولكن هذا التغير في الرأي عن مكان الدين من الدولة وهو التغير الذي نشأ عن الأخذ بالسياسية الغربية في ناحيتها النظرية والعملية يحدث صدعا واسعا في الأفكار الإسلامية الموروثة ، ولا نستطيع أن نمضى دون التعرض لمسألة ما إذا كانت هذه المؤثرات نفسها التي أثرت في الفكر الإسلامى فى هذا الميدان أثرت أو ستؤثر فى المستقبل فى الناحية الدينية البحتة ، ولهذا أيضا علاقة ظاهرة بمعضلة العالم الإسلامى كلها . وإذا كان التمسك بالدين سيظل عاملا من عوامل الوحدة فبين أنه لكن تظل الرابطة قوية لا بد أن تحتفظ البلاد الإسلامية بنزعة دينية واحدة تقريبا ، وإذا تطورت هذه النزعة تحت ضغط الأفكار الجديدة؛ وجب أن يكون تطورها على غرار واحد فى جميع البلاد ، وإلا فربما أصبح الدين كما أوشك أن يكون فى أوربا — عاملا يعمل على الانقسام أكثر مما يعمل على الوحدة ، وربما انقسم الإسلام إلى كثير من الأديان القومية ، ، ومهما بدا هذا الرأى غريبا فهو ليس عسير التصور ولا غير مسبوق ، فمنذ أربعة قرون كان لمذهب الشيعة فى فارس كل صفات الديانة القومية وتوشك الوهاية فى جزيرة العرب أن تكون ديانة قومية ثالثة تنافس عقيدة الإباضية فى عمان والزيدية فى اليمن .

نرجع إذن الى السؤال الذى طرحناه فى أول هذا الكتاب : أى وجهة يقصدها الإسلام من حيث هو دين ؟ وبعبارة أوضح كيف تأثر التفكير الإسلامى بالتغيرات التى أحدثتها الثقافة الغربية ؟ إنه لسؤال شاق ومكان زلزل فى قدم غير المسلم فى حين أن المسلم نفسه لا يقطع بصحة جواب يفوق به ، ولكنه سؤال لا مناص منه . أول ما نلاحظ أن الجماهير الإسلامية العظيمة لم تتأثر فيما يظهر بالمؤثرات الدينية الغربية وأن الرأى الفقهى الإسلامى فى مجمله لا يزال مستمسكا بما ورث . ولكن هذا ليس الحق كله ، الحق أن التعاليم والنزعة الدينية حتى عند أشد معتقى الإسلام محافظة عليه كانت تتطور ببطء فى القرن الماضى على حين تحفلة من

رجال الدين ومن غيرهم ، لم يدخل أى عنصر جديد بالذكر ولكن بتأكيد بعض المسائل وانتباز بعضها إلى المحل الثانى يتحرك ميزان العقيدة والتعاليم الخلقية ، ويتحرك فى اتجاه يجعلها أقرب إلى الاخلاق الغربية والتعاليم الحديثة كما تتمثل فى التعاليم الجارية فى الكنيسة المسيحية .

ولكن هنا أيضاً يجب أن ننظر إلى الزعماء لا إلى الجماهير إن أردنا إصدار حكم على النزعات الحاضرة فى الفكر الدينى ، والحق أن الزعماء قد ذهبوا إلى أبعد من هذا ، والحق أن معظمهم مهما تكن أفكارهم حديثة يعارضون فى إثارة المسائل الدينية على الجماهير لأنهم يعتقدون بحق أنها ستصرفهم عما يحدونه واجبا أكثر إلحاحا ، وأنهم قد تبعثوا لا محققات ولا تقاسمات فى كل إقليم وفيما بين الشعوب الإسلامية فى مجموعها فى وقت واحد ، ولكن يوجد غم هذا فى كل بلد إسلامى - مع الاستثناء الدائم لجزيرة العرب والافغان وأجزاء من إفريقيا الوسطى - حركات معينة تختلف فى قوتها وحدتها وترمى إلى تفسير جديد أو إلى إعادة النظر فى المبادئ الدينية للإسلام ، وقد عملت مدرسة الشيخ محمد عبده بفروعها صراحة منذ زمان طويل من أجل هذه الغاية . وقد أتى بعض الأفراد بأفكار أكثر تطرفا ولا سيما فى الهند ، ولكن صغار المفكرين خاصة هم الذين يقومون بالإصلاحات الكبرى من وراء حجاب ، وهناك ظاهرة تسترعى النظر فى هذه الحركات وهى أن المنهاج واحد فى الإصلاح الوهابى بما فيه من رجوع مسرف إلى مذاهب السلف وفى المسلك الذى يتبعه المجددون المتطرفون ، كلاهما يرفض ما تكس من تعاليم العصور الوسطى التى كانت تندر بخنق حياة الإسلام وينادى بالرجوع إلى مبادئ السلف ، وربما يتبين أن للوهابية دورا حاسما تلعبه فى تجديد الفكر الدينى ، وربما تسيد الثغرة التى تهدد الآن بالافتتاح بين المحافظين والمجددين وذلك بتأثيرها الذى تحدثه فى طوائف آخذة فى الازدياد فى داخل نطاق الجزء المحافظ من الفكر الإسلامى

وفي الوقت نفسه لا تحل هذه المعارضة التي تصطبغ بصيغة « الاحتجاج ، (١) مشكلة تأويل تعاليم الإسلام بما يتناسب مع روح العصر لأن من العسير أن يسير المسلمون خطوات هامة في هذا التأويل إلا إذا تغيرت وسائل التعليم الديني وأصوله تغيراً تاماً ، فإذا نبذت فلسفة العصور الوسطى التي تقيد بها علم الكلام الإسلامي حتى الآن كان التوفيق بين مبادئه الأولى وبين قواعد الإيمان الحديث أقل صعوبة مما يظهر .

ولقد أشرنا مراراً إلى أن الموقف الذي يواجهه علم الكلام الإسلامي اليوم شبيه بالموقف الذي نشأ منذ أكثر من ألف عام حينما واجه الميراث الأغرقي وكان النصر الحاسم حليف المحافظين في ذلك الكفاح الذي أنتج « علم الكلام » الإسلامي الحالي ويتسائل البعض : ألا يمكن أن يحدث مرة أخرى أن الروح المحافظ إذ يكيف ما يجده في الفكر الحديث من عناصر تلائم أغراضه سيكون أقوى من أن يسمح للأفكار الجديدة المتطرفة أن توطد نفسها في الجزء الأكبر من العالم الإسلامي ؟ إن هذا الرأي يغفل الفرق الجوهرى بين الموقفين ففى الوقت الأول كان نجم الإسلام آنذاً فى الصعود وكان الصراع مقصوراً على دائرة صغيرة من المتكلمين ، أما الآن فهو يقف موقف المدافع ولا بد له من التغلب على كتلة قوية متزايدة من رأى العلماني الذي حرر نفسه من سلطان العلماء ، والآن ففى حين أن سواد الرأى العام الإسلامى لا يزال فى الهند مثلاً قوى المحافظة نجد الأفكار الحديثة قد صارت من القوة فى مصر - بصرف النظر عن تركيا - بحيث لا يمكن اقتلاعها من غير تعريض بناء المجتمع الإسلامى كله للخطر .

(١) يريد أنها تشبه ثورة البروتستانت على الكنيسة ومعنى البروتستانت المحتج وكان البروتستانت يريدون ألا تستأثر الكنيسة بتأويل الكتاب المقدس (المترجم)

وعلى هذا فرغم أننا لا نستطيع أن نخرج من حسابنا إمكان انقسام العالم الإسلامي آخر الأمر فهناك عدة عوامل قد تدخل وتمنع العالم الإسلامي من أن يحتذى تماماً ذلك المثل السيء الذي ضرب به الإصلاح الديني في أوروبا وما جلبه ذلك الإصلاح من نكبات ، أحد هذه العوامل عدم وجود كهنوت في الإسلام وما يترتب على ذلك من قوة تناولها الطائفة العلمانية المثقفة ، وفي الصراع الأخير بين زعماء الرأي العام العلمانيين وبين الشيوخ المتعلمين تعليماً دينياً كان النصر الأكبر لحليف الأولين الذين آثروا في الجملة - من جانبهم - أن يتبعوا سياسة تطورية معتدلة بدلاً من أن يحتذوا المثل الذي ضربته تركيا وما فيه من تغير متطرف عنيف . وإن عدم وجود سلطة واحدة على العقيدة ينشأ عنه أيضاً نزعة إسلامية أخرى تنهج منهج التوفيق ، وهي النزعة التي يقبلها الجميع وتبيح الاختلاف في الرأي وتخرج من أن تخرج من زمرة المسلمين أحداً إلا من يسعى إلى ذلك بحماسة وتعصبه الطائفي الضيق . وقد وجدت الفوارق دائماً بين جمهور المسلمين من أهل السنة وليست هي فوارق تافهة في المذاهب أو العبادات فحسب ولكنها فوارق جوهرية كالتى ميزت متكلمي أهل السنة عن كبار شيوخ الطريقة الصوفية ، ولكنها رغم قرون من الجدل لم تؤد إلى انقسام .

وهناك عامل ثالث هو قوة شعور العالم الإسلامي بالأهمية العظمى للوحدة الدينية أمام أوروبا والهندوك ، وقد لطف هذا العامل فيما مضى من حدة الشعور الطائفي حتى بين طوائف توارثت خطة العداء منذ ألف عام ، وقد رأينا مظهر تضامن الشيعة من العرب والفرس مع أهل السنة بادياً في مؤتمر القدس ، وكل الباحثين في الحركات السياسية الحديثة في الشرق يعرفون الدور الذي لعبه الشيعة في الإسلام في الهند ، لاعامة الشيعة المعتدلين أمثال المرحوم سيد أمير علي فحسب بل الشيعة المنظر أعاجان . ويظهر أن سعة التسامح الإسلامي

تزداد من كل جهة وربما توقع أن تمتد أكثر من ذلك حينما يصبح الدين بمعناه الضيق لا يلعب دور المسيطر على الحياة السياسية القومية في الشعوب الإسلامية . وقد يكون هناك خطر دايزال قائما وهو أن الدين سيصبح من الضعف بحيث يفقد سلطانه نهائيا ولكننا رأينا أن هذا الخطر أقل تهديداً الآن مما كان منذ عشرين سنة ، ونرجو فوق ذلك أن يتمخض تفاعل القوى الدينية المختلفة الفعالة الآن في العالم الإسلامي عن حياة دينية عميقة شاملة . ولا بد أن نتساءل أخيراً عن مكانة المجتمع الإسلامي بوجه عام ، ولا سيما عما عسى أن يكون له من علاقات مع المجتمعات البشرية الأخرى في وضع العالم المستقبل . ألمع الاستاذ « برج » إلى أن انحياز الشعوب الإسلامية إلى «مجانِب الشرق أو جانِب الغرب يتوقف توقفاً كلياً على مسلك أوروبا إزاء العالم الإسلامي والشرق عامة . وفي الوقت نفسه لا يستطيع العالم الإسلامي أن يعيش إن أنكر الأصول التي قام عليها . وقد رأينا أن الإسلام في أصوله ينتمى إلى المجتمع الغربي الكبير (١) ويكون جزءاً جوهرياً فيه ، هو المكمل والموازن للمدينة الأوروبية يتغذى من الإنبايع التي أعتدت منها ويستنشق الهواء الذي تستنشقهُ وإذا نظرنا نظرة تاريخية شاملة رأينا أن ما يحدث الآن بين أوروبا والعالم الإسلامي هو إعادة توحيد المدينة الغربية التي انفصلت انفصالاً غير طبيعي أيام النهضة الأوروبية والتي تعيد الآن تأكيد وحدتها بقوة جارفة . والباحث في التاريخ رغم شعوره الخفيف بنقائص التشبيه لا يبتالك نفسه من تذكر وقتين سابقين (وإن لم يكونا أسبق ما يكون) حدثت فيهما عملية تفاعل منتج بين نصفي العالم الغربي استمرت قروناً كثيرة ، وكان من مجد الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أنها وحدت هذين النصفين تحت لوائها وأن من تلك الوحدة تولدت العوامل الروحية التي سيطرت على مجرى التاريخ الغربي من ذلك الحين ، وفي منتصف الطريق بين عصرنا وبين ذلك العصر حدثت أول مخاطرة عقاية

(١) أنظر الصفحتين الثالثة والرابعة من الفصل الأول .

عظيمة للإسلام حينما أدمج في نفسه الميراث الأغرقي وجعله يزدهر من جديد حتى كان من هذا الازدهار بذور نمت منها النهضة الأوروبية .

ولا يمكن أن يقف التيار عند ذلك ، إنه مستمر أمام أعيننا في صورة أوسع وأعظم - وإن خفى ذلك عن أنظارنا بسبب المعارضة التي يوجهها العالم الإسلامي في جملة لتقدم أوروبا تقدماً مدهشاً في الناحية الفنية وربما تكون النتيجة - كما كانت من قبل - هي أننا لا بد أن ننظر حتى يعيد المجتمع الإسلامي توازن المدينة الغربية المختل الآن بسبب رجحان أحد جانبيها . وربما يتبين أخيراً أن حصن الامبراطورية العثمانية كان فيه خلاص العالم الإسلامي وأنه بعزلها له حالت دون مشاركة في نمو القومية الأوروبية المسرقة وحالت دون أن ينقسم إلى ولايات كما أصاب البلقان وكما حدث لتركيا ذاتها وكان ذلك من ميراثها السياسي البيزنطي أكثر مما كان من ميراثها الإسلامي . وعلى كل حال خالعالم الإسلامي يقف جنباً لجنب مع أوروبا متميزاً عن المجتمعات الشرقية الصميمة في الهند والشرق الأقصى ، وفكرة «رابطة شرقية عامة» من العالم الإسلامي والهند والصين واليابان هي النتيجة الخيالية الناشئة عن الحق على سيادة أوروبا السياسية والاقتصادية المؤقتة ، ولكي يصل العالم الإسلامي إلى أتم رقي في حياته الثقافية والاقتصادية لا يستطيع أن يستغنى عن التعاون مع المجتمع الأوروبي ، ولكي تصل أوروبا أيضاً إلى أتم رقي في حياتها الثقافية ولا سيما في حياتها الروحية لا تستطيع أن تستغنى عن القوى والكفايات التي توجد في المجتمع الإسلامي ولن يستطيع أحد الفريقين أن يسترد ويستثمر قواه الكاملة إلا بعد أن يستعيدا ذلك التعاون الذي تمتع به الشرق والغرب في ظل الامبراطورية الرومانية .

ولا يزال الإسلام في داخل العالم الغربي يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة ، وهو على معارضته لفوضى القومية الأوروبية وللنظام العسكري

اروسيا الشيوعية لم يقع بعد فريسة لهجمات الحياة الاقتصادية الماحقة التي تمتاز بها أوروبا والحاضرة وروسيا الحاضرة كذلك، وقد لخص الاستاذ ماسينيون الأخلاق الاجتماعية في الإسلام تلخيصاً يدعو إلى الإعجاب حيث قال : « للإسلام الفضل في أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزانة العامة، إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية البنوك وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء التي لها أهمية جوهرية ، ثم هو يؤكد حقوق الأب والزوج والملكية الفردية ورأس المال التجاري ، ونراه هنا يقف مرة أخرى في مكان وسط بين الرأسمالية «البورجوازية» (١) وبين الشيوعية البولشفية ،

ولكن الإسلام لا تزال له رسالة يؤديها من أجل قضية الانسانية . هو يقف رغم كل شيء أقرب الى الشرق الحقيقي من أوروبا اليه ، وله ماض مجيد من تفاهم الانجناس وتعاونها ولا يوجاء مجتمع آخر سجل له من النجاح في أن يجمع كثيراً من أجناس الانسان المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل ونهضة الفرصة كما سجل للإسلام ، والجماعات الإسلامية العظيمة في افريقية والهند واندونيسيا والجماعات الإسلامية الصغيرة في الصين أيضاً والجماعة الصغرى في اليابان كلها تبين أن الإسلام لا تزال له القوة على أن يتألف العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد . وإذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب فان وساطة الإسلام شرط لا بد منه لأن في يده إلى حد كبير حل المعضلة التي تواجه أوروبا في علاقاتها مع الشرق ، وإن اتحد ا زاد الامل لزيادة لاحد لها في بلوغ نتيجة سلمية ، أما إن قذفت أوروبا بالإسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه فلا بد أن تكون النتيجة ناكبة للجانبين .

(١) طبقة البرجوازية هي طبقة أصحاب المصانع ويستبدون بالعمال استبداداً قاتلاً

فہم — رس

- الاسلام: خصائصه: ۸-۱۱۶۹ - ۲۲۷، ۲۱۹
 انتشاره: ۱۲، ۱۷، ۱۷۶، ۱۴۷، ۲۴۷-۸
 ۱۶۲-۳
 تكوينه السياسى: ۲۸، ۲۸-۳۰
 نظريته السياسية: ۱۸، ۲۶-۲۷، ۱۲۹-۳۰
 معضلة الاجناس فيه: ۲۴۸، ۲۲۲، ۲۰۰
 حركات الاصلاح: ۳۲-۳۹، ۴۸-
 ۵۰، ۵۹، ۶۱-۶۵، ۷۶، ۸۴
 ۹۲، ۱۰۵، ۱۱۹، ۱۲۴، ۱۵۱
 ۱۷۲، ۱۸۶، ۱۹۴-۲۴۳
 المحافظون والاصلاح: ۳۸، ۴۲، ۴۶،
 ۶۵، ۱۲۵، ۱۷۴-۲۰۷
 الشريعة: ۳۳، ۶۳، ۶۵، ۸۱،
 ۹۲، ۱۰۳، ۱۳۰، ۱۴۷، ۱۷۵
 ۲۱۸، ۲۲۸، ۲۳۱
 الطرق الصوفية، ۱۴، ۱۴، ۸۴، ۱۰۴
 ۱۱۳-۱۴، ۲۲۹
 علم الكلام، ۹، ۱۱، ۴۸، ۱۳۰
 ۱۴۷، ۱۶۰، ۱۶۱-۱۶۱
 طريقة الدفاع الجديدة، ۴۸، ۵۹،
 ۶۱، ۶۶، ۸۹، ۱۲۶، ۱۳۵، ۱۹۵
 ۲۲۰، أنظر أيضاً الأحدية، أوروبا،
 فرنسا، المبشرون المسلمون، القومية،
 الجامعة الإسلامية، الاستغراب
 وحدة المدينة الإسلامية، ۱۰-۱۵، ۲۷-۸
- تفاوتها، ۳۹ - ۴۰، ۴۲، ۱۱۵
 مشروع عصبة أمم إسلامية، ۸۴
 القرآن: ۸، ۶۰، ۷۶، ۸۵، ۲۲۸
 المسلمون: مسلکهم إزاء أوروبا، ۱۷-
 ۲۵، ۳۹، ۴۱، ۵۱، ۵۸، ۱۰۰
 ۱۰۲، ۱۲۷، ۱۳۶، ۱۶۹-۷۰
 ۱۷۸، ۱۹۰، ۲۰۱، ۲۲۰
 مسلکهم إزاء الهندوكية، ۱۸، ۱۰۷
 ۱۱۴، ۱۴۲، ۱۴۵-۱۵۰، ۱۶۳
 ۱۷۲-۲۳۹
 خصائص الحركات الإسلامية ۵۴-۵۵
 ۱۸۴، ۲۳۸
 زعمائهم، ۴۲، ۴۵، ۶-۹۸، ۱۰۰
 ۱۱۲، ۱۷۱، ۱۸۳، ۲۳۴، ۲۳۸
 نحوهم السياسى، ۲۵، ۲۹، ۳۵
 وحدتهم، ۲۷، ۳۱، ۴۰، ۵۲-۳
 ۷۸، ۸۴-۱۰۱، ۱۳۹، ۱۵۰
 ۱۶۱-۲، ۱۸۴، ۲۰۴، ۲۱۶
 ۲۲۴-۳۲، ۲۳۶، ۲۳۸
 إحصائهم وتوزيعهم، ۸، ۹، في الهند
 ۱۰۸-۱۱۱، ۱۱۳
 العرب: ۱۸، ۵۷، ۶۲-۳، ۱۲۹
 ۱۶۸-۹ أنظر أيضاً قومية
 جزيرة العرب، ۴۲، ۹۶، ۱۱۲، ۱۶۷
 ۲۱۹، ۲۴۱، ۲۴۲

قومية اندونيسيا : ١٥٩ ، ١٧٦ -

١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٣

القومية العربية : ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٩

٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧

الجامعة الإسلامية : ٢٩ - ٣٤ ، ٤٢

٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٨

٨٩ ، ٩٦ - ١٠١ ، ٢٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠

الامبراطورية العثمانية : ١٨ ، ٢١ ، ٢٩

٣١ ، ٣٧ ، ٤٧

التعليم : ٣٤ ، ٣٥ - ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧

٦٣ ، ٦٦ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٢٠

- ٢٢ ، ١٣١ - ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٦١

١٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ - ١٩١

١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٣٦

أوروبا : تجارتها - ٢١ ، ٢٤ ، ٩٧ ، ١٧٧

التوسع والاستعمار : ٢١ ، ٢٣ ، ٦٧ ،

١٠٠ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ -

١٨٠ ، ٢٠١

علاقتها بالاسلام : ١١ ، ٢٠١ - ٢٢ ،

٢٤٦ - ٨

عدم استقرار أساس سيادتها : ٥٥ ، ١٧١

أرجحتها ٣٢ ، ١٧٠ ، ٢٠٠ ، ٢٢٤

أنظر أيضا : الاستغراب . المسلمون

الاستغراب : ٤٤ - ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ،

٥٣ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٩٦ ،

١٠٣ - ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ،

١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٧ - ١٩١ ، ٢٠٠ ،

٢٠٧ - ٢٢٠ ، ٢٢٨

اللغة العربية والكتابة العربية : ١٤

٦٦ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٤

الجيش : دوره السياسي ٤٣ - ٤٥

الخلافة : ٢٦ - ٨ ، ٨٥ ، ٨٧ - ٩١

٢٠٠ ، ٢٣٢

الأزهر : ٤٥ ، ٤٩ ، ٨٨ ، ٨٩

البربر : فصل ٢ . قانونهم ٨١

الأحادية : ١٣٥ - ٩ ، ٢٠١ ، ٢٣٠

المؤتمرات الإسلامية : ٦٤ ، ٨٨ ، ١٤٢

١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢٣٢ - ٣٧ في الهند

٦٤ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٥٠

الاجتهاد والتقليد : ٤٨ - ٩ ، ١٣٠

١٧٣ ، ١٧٥

الملك ابن سعود : ٨٨ ، ٩٦ ، ٢٣٢

٢٣٥ ، ٢٣٧

الملك الحسين بن علي : ٨٨ ، ٨٩

٩٥ ، ٩٨

الهندوكية : ١٣ ، ١٨ ، ٣١ ، ٥٣

فصل ٤ ، ١٧٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٧

٢٢٥ ، ١٤٧

الثقافة الهندوكية الجاوية : فصل ٥ ، ٢٢٢

الحج : ١٤ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ١٠٩ ، ١٦١

١٦٨ ، ٢٢٩

القومية : ٥٠ - ٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٩٦

١٣٠ ، ١٥٠ ، ١٧١ ، ١٨٢ - ٣

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢٢٠ - ٣

٢٢٦ ، ٢٤٧

مكة البربر : ٦٢ ، ٢٢٢

حو

- أنظر : الجيش . التعليم . القومية .
 الإصلاحات الاجتماعية . الجمعيات .
 الحركة النسائية
 الحركة النسائية وتعليم المرأة : ٤٦ ، ٦٦ ،
 ٩٣ ، ١٣٣ - ٣٤ ، ٢١٧
 الإصلاحات الاجتماعية : ٤٦ ، ٥٠ ،
 ٦٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٧ ،
 ١٠١ ، ١٨٦
 الجمعيات : ٥٧ ، ٦٩ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٠ -
 ١٢٢ ، ١٤٦ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ -
 ٢٣٢
 الأدب والصحافة : ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٠ ،
 ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ - ٩٠ ، ٨٥ ،
 ٨٩ ، ٩٤ - ١٠١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٥ ، ١٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ -
 اللغة الأوردية وأدبها : ١١٢ ، ١٢١ ،
 ١٢٢ - ٢٤ ، ١٤٨
 ألوهية : ٤٢ ، ٦٠ ، ١١٣ ، ١٣٠ ،
 ١٧٣ ، ٢٤٣
 العصبة الشرقية : ٢٤٧
 السنوسية : ٦١
 الشيعة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ١١٣ ،
 ١٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥
 المنار : ٤٩ ، ٦٠ ، ٩٥ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
 ٢١٧
 المنفلوطي : ٩٤
 الجهاد : ٥٥ ، ٦١ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ،
- ٢٤٥ ، ٢١١ ، ١٦٩
 الدرديري (دكتور ي) : ٧١ ، ٧٥ - ٦
 المسيحية : علاقتها بالاسلام : ١١ ، ١٧ ،
 ٢٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، أنظر : المبشرون
 المبشرون المسلمون : ١٧ ، ٥٩ ، ٦١ ،
 ٩٥ ، ١٠٧ - ٨ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ،
 ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٨٦ ، ٢٣٠ - ١
 الأحادية : ١٣٧ ، ١٨٦ - ٧
 المبشرون المسيحيون : ٧٩ ، ٨٦ ، ٩٨ ،
 ١٠٠ - ١٠٣ ، ١٦٩ ، ١٨٥ - ٦
 ١٩٣ ، ١٩٦ - ٢٠٣ ، ١٩٩
 مدارسهم : ٣٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٩٩
 المسيحيون الشرقيون : ١٢ ، ١٨ ، ٨٠ ،
 ٩٢ ، ١٠٠ - ١٠٣ ، ٢٤٠
 التجارة والاقتصاد : ١٤ ، ١٩ ، ٢٣ ،
 ٦٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٩ ،
 ١٦٧ - ٩ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠ - ١١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦
 أهل القرآن : ١٢٥
 أهل الحديث : ١٢٥
 أغا خان : ١١١ ، ١١٣ ، ٢٤٥
 تقديس الأولياء : ١٣١
 جمعية الشبان المسلمين ، فصل : ٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٥
 جمال الدين الأفغاني : ٣١ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٠٥
 خدابخش : ١٢٧ ، ١٤٣
 دار الاسلام : ١٥ ، ١٤٠ ، ١٥٣
 دار الحرب : ١٠٧ ، ١٤٠

سياستها في مراکش: ٦٢، ٨١	سر سيد أحمد خان: ٤٧، ١١٩، ١٢٥
سياستها في سوريا: ٩٧	١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ٢٢٣
مشروع اتفاقها مع الإسلام: ٦١، ٦٥	سيد أمير على: ١٢٦، ٢٤٥
الدعاية الإسلامية فيها ٥٨ - ٥٩، ٦٠	شركة إسلام: ١٨١، ١٨٤، ٦
الشيخ محمد عبده ٤٨ - ١٠٥، ٩٥، ٥٠	١٨٧، ١٩٨
١٧٣، ٢٢٣	عبد الحميد سعيد بك ٧٠ - ٧١
سر محمد أقبال: ١٢٨ - ١٣١، ١٤٣	علي عبد الرازق: ٨٩ - ٩٠، ٩٤
١٥٠ - ٥١	غلام أحمد: أنظر الأحدية
دكتور محمد حسين هيكل ٩٤	فرنسا: الطلبة والعمال المسلمون فيها:
(تمت)	٢١٠، ٥٦

الخطأ والصواب

ص.	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١٨	أن	آن
٢٦	٢٣	هو الأّمصار	هو في الأّمصار
١٢٦	١	أخص	خاص
١٢٦	١٩	الذي	الذين
١٢٧	٣	خدا نجش	خذا نجش
١٢٩	٢٠	وجوهم	وجوهم
١٣٥	٤	علاقات	العلاقات

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

